الكتاب رقم
(١٥)

موسوعة تعظيم علّام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الافتقارُ إلى اللّه تعالى

تأليفُ

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين





موسوعة:

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

الكتاب رقم (١٥)

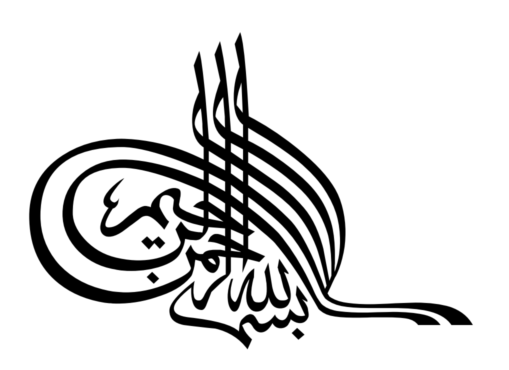
الافتقارُ إلى الله تعالى

تأليف

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

غفر الله له ولوالديه وللمؤمنين




بسم الله الرحمن الرحيم



فهرس المحتويات



مُقَدِّمَة

الحمد لله ربِّ الأرض وربّ السماء، خلق آدم وعلّمه الأسماء، وأسجد له ملائكته، وأسكنه الجنة دار البقاء، وحذّره من الشيطان ألدّ الأعداء، ثم أنفذ فيه ما سبق به القضاء، فأهبطه إلى دار الابتلاء، وجعل الدنيا له ولذريته دار عمل لا دار جزاء، وتجلّت رحمتُه بهم فتوالت الرسلُ والأنبياء، وما منهم أحد إلا جاء معه بفرقان وضياء، ثم ختم الرسالات بالشريعة الغراء، ونزّلَ القرآن لما في الصدور شفاء، فأضاءت به قلوب الأتقياء. أغنى الناس من افتقر إليه، وأسعدهم من فاز بالزُّلفى لديه.

أحمده تبارك وتعالى على النعماء والسرّاء، وأستعينه على البأساء والضراء، وأعوذ بنور وجهه الكريم من جَهد البلاء، ودرك الشقاء، وسوء القضاء، وشماتة الأعداء، وأسأله عيش السعداء، وموت الشهداء، ومرافقة الأنبياء. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، سميعٌ بصيرٌ يرى ويسمع النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصمّاء، أجرى الأمور بحكمته، وقسم الأرزاق وفق مشيئته. وأشهد أن نبينا محمدًا خاتمُ الرسل والأنبياء، وإمام المجاهدين والأتقياء، هو القدوة النيّرة في الصبر على البلاء، والعمل لدار البقاء. اللّهم صلِّ وسلِّم وبارك عليه وعلى آله وصحابته الأجلّاء، وعلى السائرين على دربه والداعين بدعوته إلى يوم اللقاء، ما تعاقب الصبح والمساء،



وما دام في الكون ظلمة وضياء.

أما بعدُ؛ فهذه رسالة مما يسّرها الله تعالى في الافتقار إلى الله تبارك وتعالى، من جهة المعنى والفضل وطرق التحصيل والموانع ونحو ذلك مما يقتضيه المقام، سائلًا ربي تعالى - وأنا الفقير الكسير الحسير المسكين المذنب الخاطئ الذليل التائب إليه - الغِنَى به عمّن سواه، فلله نفحات لطف وساعات إجابه وأرزاق برٍّ مَنْ أنعمَ عليه بها فهو من الفائزين، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥].

إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

٢٩/ ١٢/ ١٤٣٨هـ

aldumaiji@gmail.com

www.alukah.net
شبكة الألوكة

التعريف

الفقر هو الحاجة، والافتقار الاحتياج، فالفقر صفة راسخة لا تزول إلا بزوال الفقر عن طريق الغنى، أما الافتقار فكأن فيه زيادة الإحساس بالفقر سواء كان فقيرًا في الأصل أم لا. وعلى هذا فيصح القول بأن الافتقار هو الفقر، ويصح كذلك أن نزيد بأن الافتقار متضمن للإحساس بالفقر والتوجه جهة المُغني لإزالة فقره.

وبتعبير آخر فالفقر قد يكون حِسّيًّا نابعًا من قرارة النفس وجوعتها لما يسد رمقها الحسي كالمال والغذاء والدواء ونحو ذلك، أو معنويّا ـ وهو أشدّ ـ كالحاجة للأمن والسكينة والراحة والطمأنينة والغنيمة والحب، ثم إن هذا الافتقار قد يكون مكتسبًا، أي أن المرء يحرّك قلبه ضراعة وحاجة نحو سبب الغنى أيًّا كان ذلك السبب حقيقيًا كان أو متوهّمًا. وبالعموم فكل مخلوق هو في حقيقته فقير فقرًا مطلقًا لخالقه ومالكه وربه سبحانه وبحمده.

وأعظم الافتقار وأصدقه وأنجعه هو افتقار المرء لربه، فيتأمل ضعفه وفقره ومسكنته وحاجته وعجزه، ثم يرفع ذلك إلى ربه الغنيّ الملك القويّ العزيز الرزّاق الوهّاب، حينها يكون ذلك القلب المهديّ قد التوى على حبل التوفيق والإعانة والرزق والغنى في روحه وجسده ودينه ودنياه، وعلى قدر افتقاره لربه يكون توفيقه ورزقه وغناه. قال تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، وقال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِ ٱلْبَٰطِلُ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [لقمان: ٣٠].



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفي أصل مادة الفقر والافتقار قال ابن فارس: «الفاء والقاف والراء أَصلٌ صحيح يدلُّ على انفراجٍ في شيء، من عضوٍ أو غير ذلك. من ذلك: الفَقَار للظَّهر، الواحدة فَقَارةٌ، سمِّيت للحُزُوز والفُصول التي بينها. والفقير: المكسور فَقَارِ الظَّهر. وقال أهل اللُّغة: منه اشتُقَّ اسمُ الفقير، وكأنه مكسورُ فَقَار الظَّهر، من ذِلَّتِهِ ومَسْكَنتِه. ومن ذلك:

فقرَتْهم الفاقرة، وهي الدَّاهية، كأنها كاسرةٌ لفَقار الظهر. وبعضُ أهلِ العلم يقولون: الفَقير: الذي له بُلْغَةٌ من عَيْشٍ. ويحتجُّ بقوله[1]:

أمَّا الفَقيرُ الذي كانت حَلُوبَتُه ... وَفْقَ العِيال فلم يُتْرَك له سَبَدُ

قال: فجعل له حَلوبةً، وجعَلَها وَفْقًا لعياله، أي قوتًا لا فَضْلَ فيه. وأمَّا الفقير فإنَّه مَخرَج الماءِ من القناة، وقياسُه صحيح، لأنّه هُزِم في الأرض وكُسِر. وأمَّا قولهم: أفْقَرَكَ الصَّيدُ، فمعناه أنَّه أمكَنَك من فَقَارِه حتَّى ترمِيَه.

وسَدَّ اللهُ مَفاقِره، أي أغناه وسَدَّ وجوهَ فقره، قال:

وإنَّ الذي ساقَ الغنَى لابنِ عامرٍ ... لَرَبِّي الذي أرجو لسدِّ مَفاقري»[2]

وقال ابن منظور: «الفَقْر والفُقْر ضد الغِنى مثل الضَّعْفِ والضُّعْف[3]،

---

(١) أي: بقول الراعي النميري.

(٢) معجم مقاييس اللغة لابن فارس (٤/٤٤٣ - ٤٤٤).

(٣) ولعاصم قراءتان صحيحتان في آية سورة الروم: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً﴾ وهما بفتح الضاد =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقَدْرُ ذلك أَن يكون له ما يَكْفي عيالَه، ورجل فَقِيرٌ من المال وقد فَقُرَ فهو فَقير، والجمع فُقَراءُ، والأُنثى فَقِيرةٌ من نسوة فَقَائِر. وقال يونس: الفَقِيرُ أَحسن حالًا من المسكين. قال: وقلت لأَعرابي مرةً: أَفَقِيرٌ أَنت؟ فقال: لا والله بل مسكين، فالمسكين أَسوأُ حالًا من الفقير(١). وقال ابن الأَعرابي: الفَقِيرُ الذي لا شيء له، قال: والمسكين مثله.

والفَقْر الحاجة، وفعله الافْتِقارُ، والنعت فَقِيرٌ، وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] سئل أَبو العباس عن تفسير الفَقِير والمسكين فقال: قال أَبو عمرو بن العلاء فيما يَروي عنه يونُس: الفَقِيرُ الذي له ما يَأْكل، والمسكين الذي لا شيء له. وقال الأَصمعي: المسكين أَحسن حالًا من الفَقِيرِ، قال: وكذلك قال أَحمد بن عبيد، قال أَبو بكر: وهو الصحيح عندنا لأَن الله تعالى سَمَّى من له الفُلْك مسكينًا فقال: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ﴾ [الكهف: ٧٩] وهي تساوي جُمْلة، قال والذي احتج به يونس من أنه قال لأَعرابي أَفَقيرٌ أَنت ؟ فقال: لا والله بل مسكين. يجوز أَن يكون أَراد لا والله بل أنا أَحسن حالًا من الفقير.

وقيل: الفَقِيرُ الذي لا شيء له، والمسكين الذي له بعض ما يَكْفِيه. وإِليه ذهب الشافعي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وقيل فيهما بالعكس، وإِليه ذهب أَبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

=

وضمّها في المواضع الثلاثة من الآية الكريمة.

(١) والمشهور عند جمهور الفقهاء أن الفقير هو الذي لا يجد شيئًا، أما المسكين فهو الذي يجد شيئًا لكنه دون كفايته ومن يعول.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال الأَزهري: الفَقِيرُ أَشد حالًا عند الشافعي رحمه الله تعالى، وقال ابن عرفة: الفَقِيرُ عند العرب المحتاج، قال الله تعالى: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥] أَي المحتاجون إِليه.

والمُفَقَّر من السيوف الذي فيه حُزُوز، يقال: سيف مُفَقَّر، وكلُّ شيء حُزَّ أَو أُثِّرَ فيه فقد فُقِّرَ وكان اسم سيف النبي ﷺ ذا الفَقَارِ، شبهوا تلك الحزوز بالفَقارِ، قال أَبو العباس: سمي سيف النبي ﷺ ذا الفَقار لأَنه كانت فيه حُفَرٌ صِغار حِسانٌ ويقال للحُفْرة فُقْرة وجمعها فُقَر(١).

وقال الجوهري: الفَقِيرُ حفير يحفر حول الفَسِيلة إِذا غرست، وفَقِيرُ النخلة حفيرة تحفر للفسيلة إذا حوّلت لتغرس فيها، وفي الحديث قال لسلمان: «**اذهب ففَقّر الفسيل**»(٢) أَي احْفِرْ لها موضعًا تُغْرَسُ فيه واسم تلك الحفرة فُقْرَةٌ وفَقِيرٌ. والبئر العتيقة فَقِير وجمعها فُقُر وفي حديث عبد الله بن أنيس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «ثم جمعنا المفاتيح فتركناها في فَقِيرٍ من فُقُر خيبر» أَي بئر من آبارها»(٣).

قلت: والفقير أشد حاجة من المسكين ولهذا ابتدأ الله به في آية مصارف الزكاة ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠] بل وتقديمه على

---

(١) وجمع فَقرة ـ إذا فتحنا الفاء وهو استعمال صحيح ـ: فَقْرات، وفَقَرات، وفِقَر، وفَقَار.

(٢) بنحوه في سبل الهدى والرشاد في سيرة خير العباد (١/١٠٨).

(٣) لسان العرب (٥/ ٦٠).



المسكين مضطرد في التنزيل، وهذا دالٌّ على شدة عوز المُقدّم على غيره.

وفي المحيط: «الفَقْرُ: الحاجَةُ، وفِعْلُها الافْتِقَارُ، والفُقْرُ لُغَةٌ رَدِيئةٌ.

وأغْنى اللّهُ مَفاقِرَه: أي وُجُوهَ فَقْرِه. وقيل في قَوْله: رَأيْتُ اليَتَامى لا تُسَدُّ فُقُوْرُهُمْ، أي مَفَاقِرُهم وجُوْعُهم»(١).

وفي التهذيب: «أخبرني المنذري عن أبي العباس عن ابن الأعرابي أنه أنشده للبيد:

لما رأى لُبَدُ النُّسُورَ تطايرتْ رَفَعَ القوادمَ كالفَقير الأعزَلِ

وقال: الفقير المكسور الفقار، يضرب مثلا لكل ضعيف لا ينفذ في الأمور»(٢).

قلت: فعاد الفقر للحاجة للغير على أي وجه كان.

(١) المحيط في اللغة (١/ ٤٧٣).

(٢) تهذيب اللغة (٣/ ٢١٣).



فضل الافتقار الاختياري إلى الله

لما كان الله تعالى هو الخالق المالك المدبر ـ وتأمل هذه الثلاث التي تنتظم توحيد الربوبية ـ فلا يخرج شيء في ملكه عن قدرته ومشيئته وحكمته ورحمته، وكان العبد هو المخلوق المملوك المُدّبَّر الذي لا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا، ولا حياة ولا موتًا، ولا إعطاءً ولا منعًا؛ فهو هباءٌ صغير فقير في جملة هذا الكون الشاسع الفسيح، فإن مسألة حاجة العبد التامّة وافتقاره المطلق ومسكنته البالغة لغنى ربه وقوته ورحمته ولطفه تكون شديدة الوضوح والسطوع في بصر العبد وبصيرته، ذلك أن العبد كله لله وبالله ملكًا وإعانة فأين إذن استغناؤه ولمن يا ترى فراره؟!

والافتقار نوعان:

الأول: افتقار اضطراري، وهذا لكل مخلوق لا ينفك عنه مهما بلغ به التيه والكبر ووهم الاستغناء، وهذا النوع لا يُحمد المخلوق عليه لأنه لا اختيار ولا خيار له فيه البتة.

الثاني: افتقار اختياري، وهو المحمود صاحبه، والمُوفَّق فاعلُه، ومعناه التوجّه بكليّة القلب إلى الله، فيحدّث نفسه ويذكّرها دومًا بافتقارها لمولاها، ويملأ قلبه بالامتنان لربه وشدة الحاجة إليه، ويدعو ربه بلسانه وبحاله وبجنانه.

من افتقر فليلذ بالغني الكريم، ولينخ ركابه مستمنحًا عطايا الوهاب البر الرحيم، وكل أحدٍ إذا خفته هربت منه إلا الله العظيم فإنك إذا خفته فررت إليه ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] أي الجئوا إليه واعتمدوا في كل أموركم عليه.

والعبد لا ينفك عن افتقار تام لربه سواء في حياة قلبه وغذاء روحه بالعلم والإيمان والتسديد والتوفيق، أو في حياة جسده وتحصيل بلغته من هذه الدنيا التي جعلها الله قيامًا له، حتى إذا وصل لتلك المحلة المنيفة من التعلق والافتقار واللجأ أغناه ربه بأمداد لطفه فازداد علمه بربه ويقينه وإيمانه بموعوده وبارك الله له عمره، قال شيخ الإسلام: «ليس عند القلب أحلى ولا ألذ ولا أطيب ولا ألين ولا أنعم من حلاوة الإيمان المتضمن عبوديته لله ومحبته له وإخلاصه الدين له، وذلك يقتضي انجذاب القلب إلى الله فيصير القلب منيبًا إلى الله خائفًا منه راغبًا راهبًا، كما قال تعالى: ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣] إذ المحب يخاف من زوال مطلوبه وحصول مرهوبه، فلا يكون عبدًا لله ومحبًّا له إلا بين خوف ورجاء، قال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ ٱلْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُۥ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُۥٓ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا﴾ [الإسراء: ٥٧]»[١].

واعلم أخي الكريم أن افتقار القلب إلى ربه هو محض فضل الله وكرمه

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٥ - ٢١٦) وانظرها كذلك في الفتاوى الكبرى (٥/ ٢٠٤).

وجوده وإحسانه، والناس متفاضلون في إدراكه والإحساس به والعمل بمقتضاه وما يترتب عليه تفاضلًا كبيرًا. والتوحيد عمود الافتقار و«الناس في هذا الباب ـ أي التوحيد والإخلاص وكمال التعلق والافتقار ـ على ثلاث درجات:

منهم من علم ذلك سماعًا واستدلالًا، ومنهم من شاهد وعاين ما يحصل لهم، ومنهم من وجد حقيقة الإخلاص والتوكل على الله والالتجاء إليه والاستعانة به وقطع التعلق بما سواه، وجرّب من نفسه أنه إذا تعلق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه مضرة؛ فإنه يُخذل من جهتهم، ولا يحصل مقصوده، بل قد يبذل لهم من الخدمة والأموال وغير ذلك ما يرجو أن ينفعوه وقت حاجته إليهم فلا ينفعونه، إما لعجزهم وإما لانصراف قلوبهم عنه.

وإذا توجه إلى الله بصدق الافتقار إليه، واستغاث به مخلصًا له الدين؛ أجاب دعاءه، وأزال ضرره، وفتح له أبواب الرحمة. فمثل هذا قد ذاق من حقيقة التوكل والدعاء لله ما لم يذق غيره. وكذلك من ذاق طعم الإخلاص لله وإرادة وجهه دون ما سواه؛ يجد من الأحوال والنتائج والفوائد ما لا يجده من لم يكن كذلك، بل من اتبع هواه في مثل طلب الرئاسة والعلو وتعلقه بالصور الجميلة أو جمعه للمال؛ يجد في أثناء ذلك من الهموم والغموم والأحزان والآلام وضيق الصدر ما لا يعبّر عنه، وربما لا يطاوعه قلبه على ترك الهوى ولا يحصل له ما يسره، بل هو في خوف وحزن دائمًا، إن كان طالبًا لما يهواه فهو قبل

إدراكه حزينٌ متألم، حيث لم يحصل، فإذا أدركه كان خائفًا من زواله وفراقه(١). وأولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

فإذا ذاق هذا فقد ذاق حلاوة الإخلاص لله والعبادة وحلاوة ذكره ومناجاته وفهم كتابه، وأسلم وجهه لله وهو محسن، بحيث يكون عمله صالحًا ويكون لوجه الله خالصًا؛ فإنه يجد من السرور واللذة والفرح ما هو أعظم مما يجده الداعي المتوكل الذي نال بدعائه وتوكله ما ينفعه من الدنيا أو اندفع عنه ما يضره، فإن حلاوة ذلك هي بحسب ما حصل له من المنفعة أو اندفع عنه من المضرة.

ولا أنفع للقلب من التوحيد وإخلاص الدين لله، ولا أضر عليه من الإشراك، فإذا وجد حقيقة الإخلاص التي هي حقيقة (إياك نعبد) مع حقيقة التوكل التي هي حقيقة (إياك نستعين) كان هذا فوق ما يجده كل أحد لم يجد مثل هذا»(٢).

وكلما عظم التوحيد في القلب وامتدت جذوره فيه نمت أغصانه الظاهرة على جذع الإيمان، وأينعت ثمرته وطاب مخبره ومظهره. والافتقار إلى الله يمدّ

---

(١) ولابن دريد:

وما في الأرض أشقى من محبٍّ ... وإن وجد الهوى حلو المذاقِ
تراهُ باكيًا في كل حينٍ ... مخافة فُرقةٍ أو لاشتياقِ
فيبكي إن نأوا شوقًا إليهم ... ويبكي إن دنوا خوف الفراقِ
فتسخنُ عينه عند التنائي ... وتسخنُ عينه عند التلاقي

(٢) فتاوى ابن تيمية (١٠/ ٦٥٠-٦٥٢).

صاحبه بزاد لا يفنى، وروْح لا يضمحل، ولا يزال المفتقر إلى الله يزداد من الغنى حتى تكون شجرة التوحيد في قلبه كالشمس، «والتوحيد ألطف شيء وأنزهه وأنظفه وأصفاه، فأدنى شيء يخدشه ويدنسه ويؤثر فيه، فهو كأبيض ثوب يؤثر فيه أدنى أثر، وكالمرآة الصافية جدًّا أدنى شيء يؤثر فيها. ولهذا تشوشه اللحظة[١] واللفظة والشهوة الخفية فإن بادر صاحبها وقلع ذلك الأثر بضده وإلا استحكم وصار طبعًا يتعسر عليه قلعه.

وهذه الآثار والطبوع التي تحصل فيه، منها ما يكون سريع الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون سريع الحصول بطيء الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول سريع الزوال، ومنها ما يكون بطيء الحصول بطيء الزوال.

ولكن من الناس من يكون توحيده كبيرًا عظيمًا ينغمر فيه كثير من تلك الآثار ويستحيل فيه، بمنزلة الماء الكثير الذي يخالطه أدنى نجاسة أو وسخ، فيغتر به صاحب التوحيد الذي هو دونه فيخلط توحيده الضعيف بما خلط به صاحب التوحيد العظيم الكثير توحيده؛ فيظهر تأثيره فيه ما لم يظهر في التوحيد الكثير[٢].

وأيضًا فإن المحل الصافي جدًّا يظهر لصاحبه مما يدنسه مالا يظهر في المحل الذي لم يبلغ في الصفاء مبلغه فيتداركه بالإزالة دون هذا فإنه لا يشعر به.

---

(١) أي لحظة العين، ويقصد بها النظر إلى الحرام.

(٢) ويقع هذا غالبًا في اللمم الذي لا يسلم منه أحد، لكن عظيم التوحيد يستبشعه في ثاني الحال ولا يصرّ عليه ولا يكاد يلتذّ به، بعكس ضعيف الإيمان الذي يستمرئه ويركن إليه ولا يكاد يتوب منه ويقلع عنه.

وأيضًا فإن قوة الإيمان والتوحيد إذا كانت قوية جدًّا أحالت المواد الرديئة وقهرتها بخلاف القوة الضعيفة. وأيضًا فإن صاحب المحاسن الكثيرة والغامرة للسيئات ليُسامَحُ بما لا يسامح به من أتى مثل تلك السيئات، وليست له مثل تلك المحاسن، كما قيل:

وإذا الحبيب أتى بذنب واحد ... جاءت محاسنه بألف شفيع

وأيضًا فإن صدق الطلب وقوة الإرادة وكمال الانقياد يحيل تلك العوارض والغواشي الغريبة إلى مقتضاه وموجبه، كما أن الكذب وفساد القصد وضعف الانقياد يحيل الأقوال والأفعال الممدوحة إلى مقتضاه وموجبه، كما يشاهد ذلك في الأخلاط الغالبة وإحالتها لصالح الأغذية إلى طبعها.

هذا وإنّ ترْكَ الشهوات لله ـ وإن أنجى من عذاب الله وأوجب الفوز برحمته ـ فذخائر الله وكنوز البر ولذة الأنس والشوق إليه والفرح والابتهاج به لا يحصل في قلب فيه غيره، وإن كان من أهل العبادة والزهد والعلم. فإنه سبحانه أبى أن يجعل ذخائره في قلب فيه سواه، وهمته ومتعلقة بغيره. وإنما يودع ذخائره في قلب يرى الفقر غنى مع الله، والغنى فقرًا دون الله، والعز ذلًّا دونه، والذل عزًّا معه، والنعيم عذابًا دونه، والعذاب نعيمًا معه.

وبالجملة فلا يرى الحياة إلا به، والموت والألم والهم والغم والحزن إذا لم يكن معه، فهذا له جنتان: جنة في الدنيا معجلة، وجنة يوم القيامة»(١).

(١) الفوائد (١/ ١٩٥ - ١٩٦).

الله وحده هو الغنيُّ، وجميعُ الخلائقِ مفتقرةٌ إليه

قال شيخ الإسلام مبيّنًا اضطرار الخلائق وافتقارهم لمولاهم مهما كانت مادّة خلقهم: «فقر الأشياء إلى خالقها لازم لها لا يحتاج إلى علّة، كما أن غنى الرب لازم لذاته لا يفتقر في اتصافه بالغنى إلى علة. وكذلك المخلوق لا يفتقر في اتصافه بالفقر إلى علة، بل هو فقير لذاته، لا تكون ذاته إلا فقيرة فقرًا لازمًا لها، ولا يستغنى إلا بالله.

وهذا من معاني (الصمد) وهو الذي يفتقر إليه كل شيء، ويستغني عن كل شيء. بل الأشياء مفتقرة إليه من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته؛ فما لا يكون به لا يكون، وما لا يكون له لا يصلح ولا ينفع ولا يدوم. وهذا تحقيق قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فلو لم يخلق شيئًا بمشيئته وقدرته لم يوجد شيء، وكل الأعمال إن لم تكن لأجله - فيكون هو المعبود المقصود المحبوب لذاته - وإلا كانت أعمالًا فاسدة؛ فإن الحركات تفتقر إلى العلّة الغائية كما افتقرت إلى العلة الفاعلية، بل العلة الغائية بها صار الفاعل فاعلًا، ولولا ذلك لم يفعل. فلولا أنه المعبود المحبوب لذاته لم يصلح قط شيء من الأعمال والحركات، بل كان العالم يفسد، وهذا معنى قوله: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولم يقل لعدمتا، وهذا معنى قول لبيد:

ألا كل شيء ما خلا الله باطلُ

فقول النبي ﷺ: **«أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا**



الله باطل»(١) معناه: أن كل معبود من دون الله باطل كقوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ هُوَ ٱلْبَٰطِلُ﴾ [الحج: ٦٢] وقال تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ فَذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمُ ٱلْحَقُّ ۖ فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ ۖ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢] وقد قال قبل هذا: ﴿وَرُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ ۖ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٣٠] كما قال في الأنعام: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴿٦١﴾ ثُمَّ رُدُّوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦١، ٦٢] وقال: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ [محمد: ٣].

ودخل عثمان أو غيره على ابن مسعود - وهو مريض - فقال: كيف تجدك؟ قال أجدني مردودًا إلى الله مولاي الحق. قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ ٱللَّهُ دِينَهُمُ ٱلْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْحَقُّ ٱلْمُبِينُ﴾ [النور: ٢٤، ٢٥] وقد أقروا بوجوده في الدنيا، لكن في ذلك اليوم يعلمون أنه الحق المبين دون ما سواه، ولهذا قال: ﴿هُوَ ٱلْحَقُّ﴾ بصيغة الحصر، فإنه يومئذ لا يبقى أحد يدّعي لغيره الإلهية، ولا أحد يشرك بربّه أحدًا»(٢).

---

(١) البخاري ٥/٥٣ (٣٨٤١) ومسلم ٧/٤٩ (٢٢٥٦).

(٢) مجموع الفتاوى: (٥/ ٥١٥-٥١٧) وانظر كذلك: الرد على المنطقيين: (١/ ٣٤٥) والعقل والنقل (١/٤٢٩).



قال سهل بن عبد الله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق أقرب إليه من الافتقار»(١).

وقال أبو بكر الكتاني: «إذا صح الافتقار إلى الله صحّت العناية(٢) لأنهما حالان لا يتم أحدهما إلا بصاحبه»(٣).

وتأمل حال هذا الإنسان العجيب ومزاجه الغريب في جهله مع عجزه، واستغنائه مع فقره، ورجوعه بعد فراره وكفره، قال سبحانه وبحمده:

﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ وَإِن مَّسَّهُ ٱلشَّرُّ فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ ﴿٤٩﴾ وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٤٩ - ٥١].

قال الحافظ ابن كثير: «يقول تعالى: لا يَمَلّ الإنسان من دعائه ربّه بالخير ـ وهو: المال، وصحة الجسم، وغير ذلك ـ وإن مسه الشر ـ وهو البلاء أو الفقر ـ ﴿فَيَـُٔوسٌ قَنُوطٌ﴾ أي: يقع في ذهنه أنه لا يتهيأ له بعد هذا خير. ﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَـٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَـٰذَا لِى﴾ أي: إذا أصابه خير ورزق بعد ما كان في شدة

---

(١) صفة الصفوة (٤/ ٦٥).

(٢) أي: عناية المؤمن بصلاح أمره واستقامته.

(٣) حلية الأولياء (١٠/ ٣٥٨).

ليقولن: هذا لي، إني كنت أستحقه عند ربي، ﴿وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً﴾ أي: يكفر بقيام الساعة، أي: لأجل أنه خُوِّل نعمة يفخر، ويبطر، ويكفر، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧].

ثم قال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: أعرض عن الطاعة، واستكبر عن الانقياد لأوامر الله، عز وجل، كقوله تعالى: ﴿فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِۦ﴾ [الذاريات: ٣٩]. ﴿وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ﴾ [فصلت: ٥١] أي: الشدة، ﴿فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] أي: يطيل المسألة في الشيء الواحد فالكلام العريض: ما طال لفظه وقل معناه، والوجيز: عكسه، وهو: ما قل ودل. وقد قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ﴾ [يونس: ١٢] (١).

و«قال سبحانه: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] يخبر تعالى عن الإنسان أنه ذو فرح وأشر وبطر وطغيان، إذا رأى نفسه قد استغنى وكثر ماله. ثم تهدده وتوعده ووعظه فقال: ﴿إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ﴾ [العلق: ٨] أي: إلى الله المصير والمرجع، وسيحاسبك على مالك: من أين جمعته؟ وفيم صرفته؟»(٢).

وتدبر قول الله تعالى مبيّنا ضعف البشر وأنهم ليسوا في حقيقتهم بشيء إن

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/ ١٨٦).

(٢) تفسير ابن كثير (٨/ ٤٣٧).

خذلهم ربهم ووكلهم إلى ضعفهم وفقرهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] «يخبر تعالى بغنائه عما سواه، وبافتقار المخلوقات كلها إليه، وتذللها بين يديه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾ أي: هم محتاجون إليه في جميع الحركات والسكنات، وهو الغني عنهم بالذات؛ ولهذا قال: ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ أي: هو المنفرد بالغنى وحده لا شريك له، وهو الحميد في جميع ما يفعله ويقوله، ويقدره ويشرعه»(١).

وقال شيخ الإسلام الثاني في المدارج(٢): «ومن منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) منزلة الفقر.

وهذه المنزلة أشرف منازل الطريق عند القوم، وأعلاها وأرفعها، بل هي روح كل منزلة وسرّها ولبّها وغايتها.

وهذا إنما يُعرف بمعرفة حقيقة الفقر والذي تريد به هذه الطائفة(٣) أخص من معناه الأصلي، فإن لفظ الفقر وقع في القرآن في ثلاثة مواضع

---

(١) تفسير ابن كثير (٦/ ٥٤١).

(٢) قال العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كتاب مدارج السالكين كتاب عظيم في مقتضيات الأسماء والصفات. فإذا قرأه الإنسان كأنما قام من النوم لعظمته» في تعليقه المسموع على الحموية.

(٣) أي المشتغلون بتحقيق أعمال القلوب، وإحسان السلوك الخاص، حتى وإن قصّروا في أبواب أخرى كالمتصوّفة، حتى إنهم يتلقبون بالفقراء.

أحدها(١): قوله تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ﴾ [البقرة: ٢٧٣] الآية، أي الصدقات لهؤلاء، كان فقراء المهاجرين نحو أربعمئة، ولم يكن لهم مساكن في المدينة ولا عشائر، وكانوا قد حبسوا أنفسهم على الجهاد في سبيل الله، فكانوا وقفًا على كل سرية يبعثها رسول الله، وهم أهل الصُّفَّة، هذا أحد الأقوال في إحصارهم في سبيل الله.

وقيل: هو حبسهم أنفسهم في طاعة الله، وقيل: حبَسَهم الفقرُ والعدمُ عن الجهاد في سبيل الله، وقيل: لما عادَوا أعداء الله وجاهدوهم في الله تعالى؛ أُحصروا عن الضرب في الأرض لطلب المعاش، فلا يستطيعون ضربًا في الأرض.

والصحيح: أنهم لفقرهم وعجزهم وضعفهم لا يستطيعون ضربًا في الأرض، ولكمال عفتهم وصيانتهم يحسبهم من لم يعرف حالهم أغنياء.

والموضع الثاني: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ﴾ الآية [التوبة: ٦٠]، والموضع الثالث: قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]

فالصنف الأول: خواص الفقراء. والثاني: فقراء المسلمين خاصهم

(١) بل أكثر كقوله ﴿الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ﴾ [البقرة: ٢٦٨] وقوله: ﴿وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ﴾ [الحج: ٢٨] وقوله: ﴿إِن يَكُونُوا فُقَرَاءَ﴾ [النور: ٣٢] وغيرها. وربما قصد المصنّف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأنواع لا الألفاظ وهذا يستقيم مع سياق كلامه، والله أعلم.

وعامّهم. والثالث: الفقر العام لأهل الأرض كلهم، غنيهم وفقيرهم مؤمنهم وكافرهم. فالفقراء الموصوفون في الآية الأولى: يقابلهم أصحاب الجِدَةِ. ومن ليس محصرًا في سبيل الله ومن لا يكتم فقره تعّففًا فمقابلهم أكثر من مقابل الصنف الثاني. والصنف الثاني: يقابلهم الأغنياء أهل الجدة، ويدخل فيهم المتعفف وغيره، والمحصر في سبيل الله وغيره. والصنف الثالث: لا مقابل لهم، بل الله وحده الغني، وكل ما سواه فقير إليه(١).

ومراد القوم بالفقر: شيء أخصّ من هذا كله، وهو تحقيق العبودية والافتقار إلى الله تعالى في كل حالة.

وهذا المعنى أجلّ من أن يسمى فقرًا(٢) بل هو حقيقة العبودية ولبها، وعزل النفس عن مزاحمة الربوبية.

وسئل عنه يحيى بن معاذ فقال: «حقيقته أن لا يستغني إلا بالله، ورسمه: عدم الأسباب كلها»(٣) يقول: عدم الوثوق بها، والوقوف معها، وهو كما قال بعض المشايخ: شيء لا يضعه الله إلا عند من يحبه، ويسوقه إلى من يريده.

---

(١) فكل غنيّ إليه فقير، وكل جبار إليه كسير.

(٢) وفي هذا نظر، فالافتقار أحد ركائز العبودية وأفرادها، ونفس اللفظ شريف بمعناه هنا.

(٣) ومراده: عدم الالتفات إليها لا إعدامها بالكلية، وهذا مذهب السلف خلافًا لضلال الأشاعرة. وانظر «شفاء العليل» لابن القيم ففيه شفاء ورواء لغلّة الصادي في مسألة القدر والعلّة.

وسئل رُوَيْم(١) عن الفقر فقال: «إرسال النفس في أحكام الله» وهذا إنما يُحمد في إرسالها في الأحكام الدينية والقدرية التي لا يؤمر بمدافعتها والتحرز منها.

---

(١) أبو محمد رويم بن أحمد البغدادي. مات سنة ثلاثة وثمان مئة. وكان مقرئًا، وفقيها على مذهب داود.
ومن أقواله: «من حِكم الحكيم أن يوسِّع على إخوانه في الأحكام، ويضيِّق على نفسه فيها، فإن للتوسعة عليهم اتباع العلم، والتضييق على نفسه من حكم الورع».
قال عبد الله بن خفيف: سألت رويمًا، فقلت: أوصني. فقال: «ما هذا الأمر، إلا ببذل الروح، فإن أمكنك الدخول فيه مع هذا، وإلا فلا تشتغل بترَّهات الصوفية».
ومن وصاياه: «إذا رزقك الله المقال، والفعال، فأخذ منك المقال وأبقى عليك الفعال فإنها نعمة، وإذا أخذ منك الفعال، وأبقى عليك المقال، فإنها مصيبة، وإذا أخذ منك كليهما فهي نقمة وعقوبة». عن الرسالة القشيرية (١/ ٢٠).
ونقل عنه ابن الديبع الشيباني في مكفرات الذنوب وموجبات الجنة (١/ ٤): قال رويم البغدادي: «التوبة هي إسقاط رؤية التوبة. أي إسقاط رؤيتها صادرة من نفس المسلم، بل منّة من الله إليه، وهو منفذ لها بعد ما تحركت نفسه إليها، وصدق افتقاره إلى ربه، ولم يجد له مفرّا من نفسه إلا إلى الله تعالى، وصدق في التخلّق بلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، فحينئذ يسعفه الله تعالى بالتوفيق إليها، ويعينه على تحقيقها».
وذكر عنه صاحب العاقبة في ذكر الموت (١/ ١٣٤) قال: وقيل لرويم عند الموت قل: لا إله إلا الله فقال: ما أُحْسِنُ غيرها.
وذُكروا عنه أنه أجاب من سأله عن المحبة فأنشد:

ولو قلتَ لي مُتْ قلتُ سمعًا وطاعةً   وقلتُ لداعي الموت أهلًا ومرحبًا

وسئل أبو حفص: بم يقدم الفقير على ربه؟ فقال: «ما للفقير شيء يقدم به على ربه سوى فقره».

وحقيقة الفقر وكماله كما قال بعضهم وقد سئل: متى يستحق الفقير اسم الفقر؟ فقال: «إذا لم يبق عليه بقيّة منه» فقيل له: وكيف ذاك؟ فقال: «إذا كان له فليس له، وإذا لم يكن له فهو له».

وهذه من أحسن العبارات عن معنى الفقر الذي يشير إليه القوم، وهو أن يصير كله لله عز وجل، لا يبقى عليه بقية من نفسه وحظه وهواه. فمتى بقي عليه شيء من أحكام نفسه ففقره مدخول، ثم فسر ذلك بقوله: «إذا كان له فليس له» أي إذا كان لنفسه فليس لله، وإذا لم يكن لنفسه فهو لله.

فحقيقة الفقر أن لا تكون لنفسك، ولا يكون لها منك شيء، بحيث تكون كلك لله، وإذا كنت لنفسك فثمَّ مُلْكٌ واستغناء منافٍ للفقر.

وهذا الفقر الذي يشيرون إليه لا تنافيه الجِدَةُ[1] ولا الأملاك، فقد كان رسل الله وأنبياؤه في ذروته مع جِدَتِهِمْ وملكهم كإبراهيم الخليل، كان أبا الضيفان، وكانت له الأموال والمواشي، وكذلك كان سليمان وداود عليهما السلام، وكذلك كان نبينا ﷺ كان كما قال الله تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغْنَىٰ﴾ [الضحى: ٨] فكانوا أغنياء في فقرهم، فقراء في غناهم.

---

(١) أي: الغِنى الحسّي بالمال والمعافاة ونحو ذلك، ومنه حديث أبي سعيد مرفوعًا: **«ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجد»** أخرجه مسلم (٤٧٧).

فالفقر الحقيقي: دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وأن يشهد العبد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةً تامَّةً إلى الله تعالى من كل وجه.

فالفقر ذاتي للعبد(١) وإنما يتجدد له لشهوده ووجوده حالًا، وإلا فهو حقيقة كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه:

والفقـر لي وصـفُ ذاتٍ لازمٌ أبـدًا كـما الغنـى أبـدًا وصـفٌ لـه ذاتي

وله آثار وعلامات وموجبات وأسباب، وأكثر إشارات القوم إليها، كقول بعضهم: «الفقير لا تسبق همتُه خطوتَه» يريد: أنه ابن حاله ووقته، فهمتّه مقصورة على وقته لا تتعداه.

وقيل: أركان الفقر أربعة: «علم يسوسه، وورع يحجزه، ويقين يحمله، وذكر يؤنسه»(٢).

وقال الشبلي: حقيقة الفقر: «أن لا يستغني بشيء دون الله» وسئل سهل بن عبد الله: متى يستريح الفقير؟ فقال: «إذا لم ير لنفسه غير الوقت

(١) أي: لا ينفك عنه، لأنه من لوازم خلقته، فلا يستغني عن ربه طرفة عين حتى وإن كابر وكفر.

(٢) وهو كلامٌ شريف، فلا بد من علم بالشريعة حتى لا تتخطفه الجهالات والخيالات والمنامات والأذواق. كذلك الورع حتى لا يستسهل قبول تبرير النفس في تحصيل شهواتها بزعم افتقارها. وكذلك اليقين لأنه الزاد الذي تتغذى به الروح في سيرها لربها. أما الذكر المؤنس للنفس فلا وحشة معه، بل الأنس والسرور بربه هو غاية سعادته.

الذي هو فيه»(١).

وقال أبو حفص: «أحسن ما يتوسل به العبد إلى الله: دوام الافتقار إليه على جميع الأحوال، وملازمة السنة في جميع الأفعال، وطلب القوت من وجه حلال».

وقيل: «من أراد الفقر لشرف الفقر؛ مات فقيرًا. ومن أراده لئلا يشتغل عن الله بشيء مات غنيًّا».

والفقر له بداية ونهاية، وظاهر وباطن. فبدايته: الذل، ونهايته: العز. وظاهره: العدم، وباطنه: الغنى.

(١) مع التنبيه إلى أن المتصوفة يقررون طرائق ومسالك ورسوم وأوضاع يلزمون بها من رام الافتقار، وكثير منها تكلّفات وتنطعات وشطحات ما أنزل الله بها من سلطان، وبالجملة: فلا بد من إحسان الاتّباع مع إحسان القصد بلا تكلّف أصلٍ معدوم، ولا تغيير ركن موجود، فالأمر أمر الله، والدين دينه، والشرع شرعه، وعلى رسوله البلاغ وعلينا صدق الاتّباع وإحسان الائتساء، ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْأَخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١] وكما قال أبو العالية الرياحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كلمتان يسأل عنهما الأولون والآخرون: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ﴾ و﴿مَاذَآ أَجَبْتُمُ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ ورحم الله أبا عثمان النيسابوري – وهو من جلّة شيوخ القوم وعارفيهم ومقدّميهم – فإنه لما حضرته الوفاة وكان شديد الوصية باتباع السنة وتحكيمها ولزومها، مزق ابنه قميصًا على نفسه، ففتح أبو عثمان عينيه وهو في السياق فقال: «يا بني خلاف السنة في الظاهر، وعلامة رياء في الباطن».

واتفقت كلمة القوم على أن دوام الافتقار إلى الله مع التخليط خير من دوام الصفاء مع رؤية النفس والعُجْب[١]. مع أنه لا صفاء معهما»[٢].

«وعلى العبد الموفق الالتفات إلى ما سبقت به السابقة من الله بمطالعة فضله ومنته وجوده، وأن العبد وكل ما فيه من خير فهو محض جود الله وإحسانه، وليس للعبد من ذاته سوى العدم، وذاته وصفاته وإيمانه وأعماله كلها من فضل الله عليه.

فإذا شهد هذا وأحضره قلبه وتحقق به؛ خلصه من رؤية أعماله. فإنه لا يراها إلا من الله وبالله، وليست منه هو ولا به. فرؤية الأعمال حجاب بين العبد وبين الله، ويخلصه منها شهود السبق ومطالعة الفضل»[٣].

وقال شيخ الإسلام مدلّلًا على حاجة الإنسان التامّة وفقره الّلازم الملازم لرحمة ربه وتوليه من تسعة أوجه فطريّة عقليّة شرعية: «إن العبد، بل كل حي، بل وكل مخلوق، هو فقير محتاج إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، والمنفعة للحي هي من جنس النعيم واللذة، والمضرة هي من جنس الألم والعذاب، فلا بد له من أمرين:

أحدهما: هو المطلوب المقصود المحبوب الذي ينتفع ويلتذ به.

---

(١) فالعُجب من محبطات الأعمال الخفية، نسأل الله السلامة. وقيل: أنينُ المذنبين أحب إلى الله من زَجَلِ المُسبّحين المدلّين.

(٢) مدارج السالكين (٢/ ٤٣٦ - ٤٣٩) بتصرف يسير.

(٣) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٧).

والثاني: هو المعين الموصل المحصل لذلك المقصود والمانع من دفع المكروه. وهذان هما الشيئان المنفصلان الفاعل والغاية. فهنا أربعة أشياء:

أحدها: أمر هو محبوب مطلوب الوجود.

والثاني: أمر مكروه مبغض مطلوب العدم.

والثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب.

والرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأربعة الأمور ضرورية للعبد، بل ولكل حي لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها، وأما ما ليس بحي فالكلام فيه على وجه آخر. إذا تبين ذلك فبيان ما ذكرته من وجوه:

أحدها: أن الله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، وهو المعين على المطلوب وما سواه هو المكروه، وهو المعين على دفع المكروه. فهو سبحانه الجامع للأمور الأربعة دون ما سواه، وهذا معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه، والمستعان هو الذي يستعان به على المطلوب، فالأول من معنى الألوهية، والثاني من معنى الربوبية، إذ الإله هو الذي يؤله فيعبد محبة وإنابة وإجلالًا وإكرامًا. والرب هو الذي يربي عبده فيعطيه خلقه ثم يهديه إلى جميع أحواله من العبادة وغيرها.

وكذلك قوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿فَاعْبُدْهُ



﴿وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله: ﴿عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] وقوله تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقوله تعالى: ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: ٨] ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٩] فهذه سبعة مواضع تنتظم هذين الأصلين الجامعين.

الوجه الثاني: أن الله خلق الخلق لعبادته الجامعة لمعرفته والإنابة إليه ومحبته والإخلاص له. فبذكره تطمئن قلوبهم، وبرؤيته في الآخرة تقر عيونهم، ولا شيء يعطيهم في الآخرة أحب إليهم من النظر إليه، ولا شيء يعطيهم في الدنيا أعظم من الإيمان به.

وحاجتهم إليه في عبادتهم إياه وتألههم كحاجتهم وأعظم في خلقه لهم وربوبيته إياهم، فإن ذلك هو الغاية المقصودة لهم، وبذلك يصيرون عاملين متحركين، ولا صلاح لهم ولا فلاح ولا نعيم ولا لذة بدون ذلك بحال. بل من أعرض عن ذكر ربه ﴿فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤]. ولهذا كان الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء، ولهذا كانت لا إله إلا الله أحسن الحسنات، وكان التوحيد بقول: لا إله إلا الله رأس الأمر. فأما توحيد الربوبية الذي أقر به الخلق وقرره أهل الكلام فلا يكفي وحده، بل هو من الحجة عليهم.

وليس في الكائنات ما يسكن العبد إليه ويطمئن به ويتنعم بالتوجه إليه إلا اللهُ سبحانه. ومن عَبَدَ غير الله وإن أحبه وحصل له به مودة في الحياة الدنيا



ونوع من اللذة فهو مفسدة لصاحبه أعظم من مفسدة التذاذ أكل طعام المسموم ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢] فإن قوامهما بأن تأله الإله الحق، فلو كان فيهما آلهة غير الله لم يكن إلها حقًّا، إذ الله لا سميّ له ولا مثل له، فكانت تفسد لانتفاء ما به صلاحها، هذا من جهة الإلهية، وأما من جهة الربوبية فشيء آخر.

واعلم أن فقر العبد إلى الله أن يعبد الله لا يشرك به شيئًا ليس له نظير فيقاس به؛ لكن يشبه من بعض الوجوه حاجة الجسد إلى الطعام والشراب، وبينهما فروق كثيرة. فإن حقيقة العبد قلبه وروحه، وهي لا صلاح لها إلا بإلهها الله الذي لا إله إلا هو، فلا تطمئن في الدنيا إلا بذكره، وهي كادحة إليه كدحًا فملاقيته(١)، ولا بد لها من لقائه، ولا صلاح لها إلا بلقائه.

ولو حصل للعبد لذات أو سرور بغير الله فلا يدوم ذلك، بل ينتقل من نوع إلى نوع، ومن شخص إلى شخص، ويتنعم بهذا في وقت وفي بعض الأحوال، وتارة أخرى يكون ذلك الذي تنعم به والتذ غير مُنْعِمٍ له ولا مُلْتَذٍّ له، بل قد يؤذيه اتصاله به ووجوده عنده ويضره ذلك. وأما إلهه فلا بد له منه في كل حال وكل وقت، وأينما كان فهو معه؛ ولهذا قال إمامنا إبراهيم الخليل ﷺ: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] وكانت أعظم آية في القرآن الكريم:

---

(١) فسر شيخنا العلامة العثيمين هذه الآية الجليلة وأطال النفس في بسط معانيها في تفسيره لسورة الانشقاق، وما علم أنها آخر آية يرحل بها عن الدنيا، فقد كان يقرأ ورده حتى إذا قرأها فاضت روحه مع أنفاس تلاوته لها رحمه الله تعالى.

﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقد بسطت الكلام في معنى القيوم في موضع آخر، وبينت أنه الدائم الباقي الذي لا يزول ولا يعدم، ولا يفنى بوجه من الوجوه. وهذا أمر عظيم جدًا حري بكل مؤمن عابد ملاحظته وتذكره على الدوام، فبعبادة ربه تكون حياته فلا قوام له إلا بها.

واعلم أن هذا الوجه مبني على أصلين:

أحدهما: على أن نفس الإيمان بالله وعبادته ومحبته وإجلاله هو غذاء الإنسان وقوته وصلاحه وقوامه، كما عليه أهل الإيمان، وكما دل عليه القرآن، لا كما يقول من يعتقد من أهل الكلام ونحوهم أن عبادته تكليف ومشقة وخلاف مقصود القلب لمجرد الامتحان والاختبار، أو لأجل التعويض بالأجرة كما يقوله المعتزلة وغيرهم؛ فإنه وإن كان في الأعمال الصالحة ما هو على خلاف هوى النفس فالله سبحانه يأجر العبد على الأعمال المأمور بها مع المشقة، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ لَا يُصِيبُهُمۡ ظَمَأٞ وَلَا نَصَبٞ﴾ [التوبة: ١٢٠] الآية، وقال ﷺ لعائشة: «**أجرك على قدر نصبك**»(١) فليس ذلك هو المقصود الأول بالأمر الشرعي، وإنما وقع ضمنًا وتبعًا لأسباب ليس هذا موضعها، وهذا يفسر في موضعه.

---

(١) رواه البخاري بنحوه (١٧٨٧) ورواه مسلم (٢/ ٨٧٦) (١٢١١) عن أم المؤمنين قالت: قلت: يا رسول الله يصدر الناس بنسكين وأصدر بنسك واحد! قال: «**انتظري، فإذا طهرت فاخرجي إلى التنعيم فأهلّي منه، ثم القينا عند كذا وكذا**» قال: أظنه قال: «**غدا، ولكنها على قدر نصبك**» أو قال: «**نفقتك**».

ولهذا لم يجئ في الكتاب والسنة وكلام السلف إطلاق القول على الإيمان والعمل الصالح أنه تكليف كما يطلق ذلك كثير من المتكلمة والمتفقهة، وإنما جاء ذكر التكليف في موضع النفي كقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] ﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ [النساء: ٨٤] ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧] أي وإن وقع في الأمر تكليف؛ فلا يكلف إلا قدر الوسع، لا أنه يسمي جميع الشريعة تكليفًا[1]، مع أن غالبها قرة العيون وسرور القلوب ولذات الأرواح وكمال النعيم، وذلك لإرادة وجه الله والإنابة إليه وذكره وتوجه الوجه إليه، فهو الإله الحق الذي تطمئن إليه القلوب، ولا يقوم غيره مقامه في ذلك أبدًا. قال الله تعالى: ﴿فَٱعْبُدْهُ وَٱصْطَبِرْ لِعِبَٰدَتِهِۦ ۚ هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾

---

(١) ولهذا فإن عبارة «أعمال المكلفين» و«الأحكام التكليفية» و«التكاليف الشرعية» ونحوها تشير بأن العبادات قائمة على المشقة، وأن الشدة مقصودة لذاتها في العبادة، وليس الأمر كذلك، فالعبادة حياة وراحة وسكينة وغذاء للروح ولا غناء للقلب عنها طرفة عين. أما المشقة اللاحقة بها أحيانًا كالقتال في سبيل الله والحج والصيام والتهجد والإنفاق وغير ذلك فهذه متطلبات ووسائل لتحصيلها فهي تابعة لها، وإنما تكون المشقة مقصودة من جهة أنها اختبار وامتحان لدين العبد، فهي كالقنطرة والجسر الذي يميز الصادق المريد عن غيره، وبالجملة فالعبادة مقصودة لذاتها فهي حياة القلب، أما المشقة والتكليف فهو عارض مقصود لغيره، علمًا أن مقصود الفقهاء بالتكليف هو الأمر الإلهي وليس المشقة والكلفة. والمقصود أنه لو عُبر بأوامر الله أو فرائضه ونحو ذلك كان أولى من لفظ التكليف الموهم بأن الشرع مبني على المشقة، وليس الأمر كذلك، وفي الأمر سعة بحمد الله تعالى، وبالله التوفيق.

[مريم: ٦٥] فهذا أصل.

الأصل الثاني: النعيم في الدار الآخرة أيضًا مثل النظر إليه، لا كما يزعم طائفة من أهل الكلام ونحوهم أنه لا نعيم ولا لذة إلا بالمخلوق من المأكول والمشروب والمنكوح ونحو ذلك، بل اللذة والنعيم التام في حظهم من الخالق سبحانه وتعالى كما في الدعاء المأثور: «**اللّٰهم إني أسألك لذة النظر إلى وجهك، والشوق إلى لقائك في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة**». رواه النسائي وغيره[1].

وفي صحيح مسلم وغيره عن صهيب عن النبي ﷺ قال: «**إذا دخل أهل الجنة الجنة؛ نادى مناد يا أهل الجنة، إن لكم عند الله موعدًا يريد أن ينجزْكموه. فيقولون: ما هو؟ ألم يبيض وجوهنا، ويدخلنا الجنة، ويجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب، فينظرون إليه سبحانه. فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النظر إليه، وهو الزيادة**»[2] فبيَّن النبي ﷺ أنهم مع كمال تنعمهم بما أعطاهم الله في الجنة لم يعطهم شيئا أحب إليهم من النظر إليه؛ وإنما يكون أحب إليهم لأن تنعمهم وتلذذهم به أعظم من التنعم والتلذذ بغيره، فإن اللذة تتبع الشعور بالمحبوب، فكلما كان الشيء أحب إلى الإنسان كان حصوله ألذ له، وتنعمه به أعظم.

(١) النسائي (١٣٠٥) وصححه الألباني.

(٢) مسلم (١٨١).

وروي أن يوم الجمعة يوم المزيد، وهو يوم الجمعة من أيام الآخرة، وفي الأحاديث والآثار ما يصدق هذا(١)، قال الله تعالى في حق الكفار: ﴿كَلَّآ إِنَّهُمۡ عَن رَّبِّهِمۡ يَوۡمَئِذٖ لَّمَحۡجُوبُونَ ١٥ ثُمَّ إِنَّهُمۡ لَصَالُواْ ٱلۡجَحِيمِ﴾ [المطففين: ١٥، ١٦] فعذاب الحجاب أعظم أنواع العذاب، ولذة النظر إلى وجهه أعلى اللذات؛ ولا تقوم حظوظهم من سائر المخلوقات مقام حظهم منه تعالى.

وهذان الأصلان ثابتان في الكتاب والسنة، وعليهما أهل العلم والإيمان.

الوجه الثالث: أن المخلوق ليس عنده للعبد نفع ولا ضرر، ولا عطاء ولا منع، ولا هدى ولا ضلال، ولا نصر ولا خذلان، ولا خفض ولا رفع، ولا عز ولا ذل. بل ربه هو الذي خلقه ورزقه وبصَّره وهداه وأسبغ عليه نعمه، فإذا مسّه الله بضر فلا يكشفه عنه غيره، وإذا أصابه بنعمة لم يرفعها عنه سواه، وأما العبد فلا ينفعه ولا يضره إلا بإذن الله.

وهذا الوجه أظهر للعامة من الأول، ولهذا خوطبوا به في القرآن أكثر من الأول، لكن إذا تدبر اللبيب طريقة القرآن، وجد أن الله يدعو عباده بهذا الوجه إلى الأول. فهذا الوجه يقتضي التوكل على الله والاستعانة به ودعاءه

---

(١) كما روى مسلم في صحيحه (٤/ ٢١٧٨) (٢٨٣٣) عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: **«إن في الجنة لسوقًا يأتونها كل جمعة، فتهب ريح الشمال فتحثو في وجوههم وثيابهم، فيزدادون حسنًا وجمالًا، فيرجعون إلى أهليهم وقد ازدادوا حسنًا وجمالًا، فيقول لهم أهلوهم: والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا، فيقولون: وأنتم والله لقد ازددتم بعدنا حسنًا وجمالًا»**.



ومسألته دون ما سواه، ويقتضي أيضا محبة الله وعبادته لإحسانه إلى عبده، وإسباغ نعمه عليه، وحاجة العبد إليه في هذه النعم، ولكن إذا عبدوه وأحبوه وتوكلوا عليه من هذا الوجه؛ دخلوا في الوجه الأول. ونظيره في الدنيا من نزل به بلاء عظيم أو فاقة شديدة أو خوف مقلق؛ فجعل يدعو الله ويتضرع إليه حتى فتح له من لذة مناجاته ما كان أحب إليه من تلك الحاجة التي قصدها أولًا، ولكنه لم يكن يعرف ذلك أولًا حتى يطلبه ويشتاق إليه.

والقرآن مملوء من ذكر حاجة العباد إلى الله دون ما سواه، ومن ذِكْر نعمائه عليهم، ومن ذكر ما وعدهم في الآخرة من صنوف النعيم واللذات، وليس عند المخلوق شيء من هذا، فهذا الوجه يحقق التوكل على الله والشكر له ومحبته على إحسانه.

الوجه الرابع: أن تعلُّقَ العبدِ بما سوى الله مضرة عليه إذا أخذ منه القدر الزائد على حاجته في عبادة الله(١)، فإنه إن نال من الطعام والشراب فوق حاجته ضره وأهلكه، وكذلك من النكاح واللباس. وإن أحبّ شيئًا حبًّا تامًّا بحيث يُخَالِلُهُ فلا بد أن يسأمه أو يفارقه. وفي الأثر المأثور: «**أحبب ما شئت فإنك مفارقه، واعمل ما شئت فإنك ملاقيه، وكن كما شئت فكما تدين تدان**»(٢).

---

(١) فمن رحمة الله تعالى أن أباح بقدر الحاجة ما يكون وسيلة لإقامة الدين الذي هو غاية الخليقة.

(٢) البيهقي في الشعب (١٠٥٤١) الحاكم (٤/ ٣٢٤) أبو نعيم في الحلية (٣/ ٢٠٢) =



واعلم أن كل من أحب شيئًا لغير الله فلا بد أن يضره محبوبه ويكون ذلك سببا لعذابه، ولهذا كان الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله يُمَثَّلُ لأحدهم كنزه يوم القيامة شجاعًا أقرع يأخذ بلهزمته[1] يقول: أنا كنزك، أنا مالك[2].

فمن أحب شيئًا لغير الله فالضرر حاصل له إن وجد أو فقد، فإن فقد عذب بالفراق وتألم، وإن وجد فإنه يحصل له من الألم أكثر مما يحصل له من اللذة[3]. وهذا أمر معلوم بالاعتبار والاستقراء.

وكل من أحب شيئًا دون الله لغير الله فإن مضرته أكثر من منفعته، فصارت المخلوقات وبالًا عليه إلا ما كان لله وفي الله، فإنه كمال وجمال للعبد. وهذا معنى ما يروى عن النبي ﷺ أنه قال: «**الدنيا ملعونة ملعون ما فيها، إلا ذكر الله وما والاه**» رواه الترمذي وغيره[4].

الوجه الخامس: أن اعتماده على المخلوق وتوكله عليه يوجب الضرر من

=

وانظر السلسلة الصحيحة (٨٣١).

(١) أي: شدقيه.

(٢) الحديث في البخاري (١٤٠٣) و(٤٥٦٥).

(٣) لخوفه من فواته، وهلعه عليه، وحرقته به، وغيرته عليه، وذلته له، وانشغاله به عما سواه.. في عذابات أُخر يُصلى بها المحبون غير ربهم.

(٤) الترمذي (٢٣٢٢) وحسَّنه النووي في المنثورات (٢٩٦) والسيوطي في الجامع الصغير (١٩٦١) وذكره الألباني في صحيح الجامع (٣٤١٤).


www.alukah.net

جهته؛ فإنه يخذل من تلك الجهة، وهو أيضًا معلوم بالاعتبار والاستقراء، فما علّق العبد رجاءه وتوكله بغير الله إلا خاب من تلك الجهة، ولا استنصر بغير الله إلا خذل. وقد قال الله تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِّيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ﴿٨١﴾ كَلَّا ۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]. وهذان الوجهان في المخلوقات نظير العبادة والاستعانة في المخلوق، فلما قال: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] كان صلاح العبد في عبادة الله واستعانته. وكان في عبادة ما سواه والاستعانة بما سواه؛ مضرته وهلاكه وفساده.

الوجه السادس: أن الله سبحانه غني حميد كريم واجد(١) رحيم، فهو سبحانه محسن إلى عبده مع غناه عنه، يريد به الخير ويكشف عنه الضر، لا لجلب منفعة إليه من العبد، ولا لدفع مضرة، بل رحمة وإحسانًا. والعباد لا يتصور أن يعملوا إلا لحظوظهم، فأكثر ما عندهم للعبد أن يحبوه ويعظموه ويجلبوا له منفعة ويدفعوا عنه مضرة ما. وإن كان ذلك أيضًا من تيسير الله تعالى، فإنهم لا يفعلون ذلك إلا لحظوظهم من العبد إذا لم يكن العمل لله. فإنهم إذا أحبوه طلبوا أن ينالوا غرضهم من محبته، سواء أحبوه لجماله الباطن أو الظاهر، فإذا أحبوا الأنبياء والأولياء طلبوا لقاءهم، فهم يحبون التمتع برؤيتهم وسماع كلامهم ونحو ذلك.

وكذلك من أحب إنسانًا لشجاعته أو رياسته أو جماله أو كرمه، فهو يحب

---

(١) الواجد هو الغنيّ، مأخوذ من الجَدّ وهو الغني، فيوصف الله تعالى بأنه واجد، ولكن لا يُسمّى به لأن الحديث فيه لا يصح، وانظر: مدارج السالكين (٣/ ٣٨٤).



أن ينال حظه من تلك المحبة، ولولا التذاذه بها لما أحبه. وإن جلبوا له منفعة كخدمة أو مال، أو دفعوا عنه مضرة كمرض وعدو ـ ولو بالدعاء أو الثناء ـ فهم يطلبون العوض إذا لم يكن العمل لله. فأجناد الملوك وعبيد المالك وأجراء الصانع وأعوان الرئيس كلهم إنما يسعون في نيل أغراضهم به، لا يعرج أكثرهم على قصد منفعة المخدوم إلا أن يكون قد علم وأدب من جهة أخرى، فيدخل ذلك في الجهة الدينية، أو يكون فيها طبع عدل وإحسان من باب المكافأة والرحمة، وإلا فالمقصود بالقصد الأول هو منفعة نفسه. وهذا من حكمة الله التي أقام بها مصالح خلقه وقسم بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا، ورفع بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا.

إذا تبين هذا ظهر أن المخلوق لا يقصد منفعتك بالقصد الأول؛ بل إنما يقصد منفعته بك وإن كان ذلك قد يكون عليك فيه ضرر إذا لم يراع العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضره أقرب من نفعه. والرب سبحانه يريدك لك، ولمنفعتك بك، لا لينتفع بك[١]، وذلك منفعة عليك بلا مضرة. فتدبر هذا، فملاحظة هذا الوجه يمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك بالقصد الأول، كما أنه لا يقدر عليه.

ولا يحملنك هذا على جفوة الناس، وترك الإحسان إليهم، واحتمال الأذى منهم[٢]، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، وكما لا تخفهم فلا ترجهم،

---

(١) وهذا كلام شريف جدًّا جدًّا. وقد بسطه ابن القيم في طريق الهجرتين (١/١٠٧).

(٢) وهذا تنبيه نفيس، فبعض الخلق يجفو بني جنسه ويشمئز منهم بل قد يقع في نوع =



وخف الله في الناس ولا تخف الناس في الله، وارج الله في الناس ولا ترج الناس في الله، وكن ممن قال الله فيه: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلۡأَتۡقَى ١٧ ٱلَّذِي يُؤۡتِي مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ١٨ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعۡمَةٖ تُجۡزَىٰٓ ١٩ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ﴾ [الليل: ١٧ - ٢٠]. وقال فيه: ﴿إِنَّمَا نُطۡعِمُكُمۡ لِوَجۡهِ ٱللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمۡ جَزَآءٗ وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

الوجه السابع: أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجاتهم بك وإن كان ذلك ضررا عليك، فإن صاحب الحاجة أعمى لا يعرف إلا قضاءها.

الوجه الثامن: أنه إذا أصابتك مضرة كالخوف والجوع والمرض؛ فإن الخلق لا يقدرون على دفعها إلا بإذن الله، ولا يقصدون دفعها إلا لغرض لهم في ذلك.

الوجه التاسع: أن الخلق لو اجتهدوا أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بأمر قد كتبه الله لك، ولو اجتهدوا أن يضروك لم يضروك إلا بأمر قد كتبه الله عليك. فهم لا ينفعونك إلا بإذن الله، ولا يضرونك إلا بإذن الله، فلا تعلق بهم رجاءك. قال الله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ﴾ [الملك: ٢٠، ٢١].

=

بغي أو تقصير من جهة قصده الاستغناء عنهم بالله، ونسي أن الله قد سخر الناس لبعضهم وأقام سنن خلقه على تعاونهم وتنافعهم واتصالهم بل وإحسانهم، فالموفق من نظر للأمر نظرة كلية شاملة، فأعطى الناس حقوقها المرعية من قبل الشريعة بلا تعلق البتة بغير رب العالمين.



والنصر يتضمن دفع الضرر، والرزق يتضمن حصول المنفعة، قال الله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣ - ٤] وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُمَكِّن لَّهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَىٰ إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِّزْقًا مِّن لَّدُنَّا﴾ [القصص: ٥٧] وقال الخليل عليه السلام: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: ١٢٦] الآية. وقال النبي ﷺ: **«هل ترزقون وتنصرون إلا بضعفائكم»**(١) **«بدعائهم وصلاتهم وإخلاصهم»**(٢).

جماع هذا أنك أنت إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي؛ فغيرك من الناس أولى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك، ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها. والله سبحانه هو الذي يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله العظيم كما في حديث الاستخارة: **«اللّٰهم إني أستخيرك بعلمك، وأستقدرك بقدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقدر ولا أقدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيوب»**(٣)(٤).

قال ابن القيم معلّقًا على كلام شيخه الآنف بعد نقله ما سبق من كلام

---

(١) البخاري (٢٨٩٦).

(٢) وهذه الزيادة عند النسائي (٦/ ٤٥) من طريق مصعب بن سعد عن أبيه بزيادة تبين معنى الحديث، ولفظه: **«إنما ينصُرُ الله هذه الأمة بضعيفها؛ بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم»**. وصححه الألباني في صحيح النسائي (٣١٧٨).

(٣) البخاري (١١٦٢).

(٤) مجموع الفتاوى (١/ ٢١- ٣٣) باختصار. وانظر: (الفتاوى العراقية: ١/ ٤٨٣-٤٩٢).

شيخ الإسلام[١]: «فما أعظم حظ من عرف هذه المسألة، ورعاها حق رعايتها. ولا يحملنك هذا على جفوة الناس وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم، بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، فكما لا تخافهم لا ترجُهم. ومما يبين ذلك أن غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك وإن كان ذلك ضررًا عليك، فإن صاحب الحاجة لا يرى إلا قضاءها. فهم لا يبالون بمضرتك إذا أدركوا منك حاجتهم، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك.

وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة، وأنه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة[٢]. فهم يريدون أن يصيروك كالكير، تنفخ بطنك وتعصر أضلاعك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلُك لجزروك كما يجزرون الشاة! وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم، وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر. وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم وربما علمت، وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك، ورحت صفر اليدين. وكم فوّتوا عليك من مصالح الدارين وقطعوك عنها وحالوا بينك وبينها، وقطعوا طريق سفرك إلى منازلك الأولى ودارك التي دعيت إليها، وقالوا: نحن أحبابك وخدمك وشيعتك وأعوانك والساعون في مصالحك، وكذبوا، والله إنهم لأعداء في صورة أولياء، وحرب في صورة مسالمين، وقطاع طريق في صورة أعوان. فواغوثاه، ثم واغوثاه بالله الذي يُغيث ولا يُغاث،

(١) وقد نقله بغالب حروفه في طريق الهجرتين (١/١١٦ – ١٣١).

(٢) ويقصد من كانت صحبتهم لا تقربك إلى الله تعالى.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ مِنۡ أَزۡوَٰجِكُمۡ وَأَوۡلَٰدِكُمۡ عَدُوّٗا لَّكُمۡ فَٱحۡذَرُوهُمۡ﴾ [التغابن: ١٤]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُلۡهِكُمۡ أَمۡوَٰلُكُمۡ وَلَآ أَوۡلَٰدُكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِۚ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ﴾ [المنافقون: ٩].

فالسعيد الرابح من عامل الله فيهم، ولم يعاملهم في الله، وخاف الله فيهم، ولم يخفهم في الله، وأرضى الله بسخطهم، ولم يرضهم بسخط الله، وراقب الله فيهم، ولم يراقبهم في الله، وآثر الله، ولم يؤثرهم على الله، وأمات خوفهم ورجاءهم وحبهم من قلبه، وأحيى حب الله وخوفه ورجاءه فيه؛ فهذا هو الذي يكتَب عليهم، وتكون معاملته لهم كلّها ربحًا، بشرط أن يصبر على أذاهم، ويتخذه مغنمًا لا مغرمًا، وربحًا لا خسرانًا.

ومما يوضح الأمر أن الخلق لا يقدر أحد منهم أن يدفع عنك مضرة البتة إلا بإذن الله ومشيئته وقضائه وقدره، فهو في الحقيقة الذي لا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو: ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧] قال النبي ﷺ لعبد الله بن عباس: «**واعلم أن الخليقة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**»(١) وإذا كانت هذه حال الخليقة؛ فتعليق الخوف والرجاء بهم ضار غير نافع.

(١) أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وانظر كلام ابن رجب النفيس في معانيه في جامع العلوم والحكم (١/٤٦٢).

www.alukah.net


وجماع هذا: أنك إذا كنت غير عالم بمصلحتك، ولا قادر عليها، ولا مريد لها كما ينبغي، فغيرك أولى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك ولا قادرًا عليها ولا مريدًا لها، والله سبحانه هو يعلم ولا تعلم، ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك، ولا لتكثر بك، ولا لتعزز بك، ولا يخاف الفقر، ولا تنقص خزائنه على سعة الإنفاق، ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه إليك واستغنائه بحيث إذا أخرجه أثّر ذلك في غناه، وهو يحب الجود والبذل والعطاء والإحسان أعظم مما تحب أنت الأخذ والانتفاع بما سألته[1]، فإذا حبسه عنك فاعلم أن هناك أمرين لا ثالث لهما:

أحدهما: أن تكون أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك. وهذا هو الأغلب على الخليقة، فإن الله سبحانه قضى فيما قضى به أن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وأنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته، ولا استديمت بغير شكره، ولا عوقت وامتنعت بغير معصيته. وكذلك إذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة، فإنه لم يسلبها لبخل منه، ولا استئثار بها عليك، وإنما أنت السبب في سلبها عنك، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ﴾ [الأنفال: ٥٣] فما أزيلت نعم الله بغير معصيته.

(١) وتدبر هذا المعنى الشريف مما يحفز الداعي على المسألة والطلب والإلحاح في الدعاء وحسن الظن بالكريم الوهاب سبحانه وبحمده.


شبكة الألوكة - قسم الكتب

إذا كنـــت في نعمـــة فارعهـــا فـــإن المعـــاصي تزيـــل الـــنعمْ

فآفتُك من نفسك، وبلاؤك من نفسك، وأنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك، كما قيل:

مـــا يبلـــغ الأعـــداء مـــن جاهـــل مـــا يبلـــغ الجاهـــل مـــن نفســـه

ومن العجب أن هذا شأنك مع نفسك وأنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية، وتتهم أقداره وتعاتبها وتلومها، فقد ضيعت فرصتك، وفرطت في حظك، وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها، ثم قعدتَ تعاتب القدر بلسان الحال والمقال! فأنت المعني بقول القائل:

وعـــاجز الـــرأي مضـــياعٌ لفرصـــته حتـى إذا فـات أمـرٌ عاتـب القـدرَا

ولو شعرت بدائك، وعلمت من أين دُهيت، ومن أين أصبت؛ لأمكنك تدارك ذلك، ولكن قد فسدت الفطرة، وانتكس القلب، وأطفأ الهوى مصابيح العلم والإيمان منه، فأعرضتَ عمَّن أصلُ بلائك ومصيبتك منه، وأقبلت تشكو مَنْ كل إحسان دقيق أو جليل وصل إليك فمنه، فإذا شكوته إلى خلقه كنت كما قال بعضهم وقد رأى رجلًا يشكو إلى آخر ما أصابه ونزل به، فقال: يا هذا، تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!

وإذا أتتـــك مصـــيبة فاصـــبرْ لهـــا صـــبرَ الكـــريم فإنـــه بـــك أرحـــمُ

وإذا شـــكوتَ إلى ابـــن آدم إنّـــما تشـــكو الـــرحيمَ إلى الـــذي لا يَـــرحمُ

وإذا علم العبدُ حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتي، ومن أي الطرق أغير على سرْحه، ومن أي ثغرة سرق متاعه وسلب؛ استحيا من نفسه ـ إن لم يستح



من الله ـ أن يشكوا أحدًا من خلقه، أو يتظلَّمهم، أو يرى مصيبته وآفته من غيره، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٖ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وقال: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]»(١).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول: العارف لا يرى له على أحد حقًّا، ولا يشهد له على غيره فضلًا؛ ولذلك لا يعاتب، ولا يطالب، ولا يضارب.

ولقد شاهدت من شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه من ذلك أمرًا لم أشاهده من غيره. وكان يقول كثيرًا: ما لي شيء، ولا مني شيء، ولا فيّ شيء. وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

أنـــا المُكَـــدِّي وابـــنُ المُكَـــدِّي ... وهكـــــذا كـــــان أبي وجـــــدّي

وكان إذا أثني عليه في وجهه يقول: والله إني إلى الآن أجدّد إسلامي كل وقت، وما أسلمت بعد إسلامًا جيدًا(٢).

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٣٠ – ١٣٦).

(٢) ويعني بذلك القدر الواجب لا أصل الإيمان والإسلام، وهذا من علمه بالله سبحانه وما ينبغي له من الحق العظيم، فمن كان بالله أعرف كان له أحب، وله أرجى، ومنه أخوف، كما قال سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨].



وبعث إليَّ في آخر عمره قاعدة في التفسير بخطه، وعلى ظهرها أبيات بخطه من نظمه وهي:

أنـــا الفقـــيرُ إلى رب البريّـــاتِ ... أنـا المُسـيكينُ في مجمـوع حـالاتي
أنـا الظلـومُ لنفسـي وهـي ظـالمتي ... والخـيرُ إن يأتنـا مـن عنـده يـاتي[(١)]
لا أسـتطيع لنفسـي جلـبَ منفعـةٍ ... ولا عـن الـنفس في دفـع المضـراتِ
ولـــيس لي دونـــه مـــولىً يُـــدبِّرُني ... ولا شـــفيعٌ إذا حاطـــت خطيئـــاتي
إلا بـــإذن مـــن الـــرحمن خالقِنـــا ... إلى الشـــفيع كـــما جـــاء في الآيـــاتِ
ولســـتُ أملِـــكُ شـــيئا دونَـــه أبـــدًا ... ولا شريـــكٌ أنـــا في بعـــض ذراتي
ولا ظهـــيرٌ لـــه كـــي يســـتعين بـــه ... كـــما يكـــون لأربـــاب الوِلايـــاتِ
والفقـرُ لي وصـفُ ذاتٍ لازمٌ أبـدًا ... كـما الغنـى أبـدًا وصـفٌ لـهُ ذاتي
وهـذه الحـالُ حـال الخلـق أجمعهـم ... وكلّهـــم عنـــده عبـــدٌ لـــه آتي
فمـن بغـى مطلبًـا مـن غـير خالقـه ... فهو الجهولُ الظلوم المشرك العاتي
والحمـــد لله مـــلءَ الكـــونِ أجمعَـــه ... ما كان منه وما من بعد قد ياتي»[(٢)]

❁❁❁❁

---

(١) أصلها يأتي، ووصلت الهمزة ولم تقطع للضرورة الشعرية.

(٢) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ١٤٣) وانظر: المدارج (٢/ ٥٢٤) و(العقود الدرية: ٤٥٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ضرورة العبد للافتقار لربه

لو تأملت العبادات كافّة قلبيّها وعمليّها لعلمت أن الافتقار إلى الله تعالى هو الوصف الجامع لها الذي لا ينفك عنها، وبقدر تمكّن الافتقار من القلب تكون ثمرته ونتيجته ونفعه في الدارين، وحسبك أن تتأمل الصلاة وما فيها من معاني الافتقار للغني الوهاب الرحيم المنان. وكما أسلفنا فليست العبادات فقط بل كل أحوال المرء وحركاته وسكناته لا تخلو من اضطرار حقيقي ملازم افتقارًا للواحد الأحد سبحانه وبحمده.

قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِۖ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] والفقر المذكور هنا هو الفقر الذاتي في الناس إلى الله تعالى، يستوي فيه الغني منهم لكثرة العرض، مع الفقير لقلة العرض.

قال السمرقندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنتم الفقراء إلى الله في رزقه ومغفرته، ﴿وَٱللَّهُ هُوَ ٱلۡغَنِيُّ ٱلۡحَمِيدُ﴾ الغني عن عبادتكم، الحميد في فعاله وسلطانه، وهذا كما قال في آية أخرى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلۡغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]؛ لأن كل واحد يحتاج إليه، لأن أحدًا لا يقدر أن يصلح أمره إلا بالأعوان. والأمير مالم يكن له خدم وأعوان لا يقدر على الإمارة، وكذلك التاجر يحتاج إلى المكارين، والله عز وجل غني عن الأعوان وغيره»[(١)].

---

(١) تفسير السمرقندي (٣/ ٨٤).

وقال الغزالي رحمه الله: «اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه. أمّا فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمّى فقرًا. وإن كان المحتاج إليه موجودًا مقدورًا عليه لم يكن المحتاج فقيرًا.

وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير؛ لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال، ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده. فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد له من غيره فهو الغني المطلق. ولا يتصوّر أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدًا، فليس في الوجود إلا غنيّ واحد، وكل ما عداه فإنهم محتاجون إليه ليمدوا وجودهم بالدوام، وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِيُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾ [محمد: ٣٨]، هذا معنى الفقر مطلقًا»(١).

وقال عبدالحق الأندلسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلائلها، لا يستغني عنه طرفة عين، وهو به مستغن عن كل واحد، والله تعالى غني عن الناس، وعن كل شيء من مخلوقاته غني على الإطلاق»(٢).

وهذا المعنى يزيده بسطًا ابن تيمية زمانه العلامة ابن سعدي رحمه الله فيقول: «يخاطب تعالى جميع الناس، ويخبرهم بحالهم، ووصفهم وأنهم فقراء

---

(١) إحياء علوم الدين (٤/ ١٩٠).

(٢) المحرر الوجيز (٤/ ٤٣٤-٤٣٥).

إلى الله من جميع الوجوه:

فقراء في إيجادهم، فلولا إيجاده إياهم لم يوجدوا.

فقراء في إعدادهم بالقوى والأعضاء والجوارح، التي لولا اعداده إياهم بها لما استعدوا لأي عمل كان.

فقراء في إمدادهم بالأقوات والأرزاق والنعم الظاهرة والباطنة، فلولا فضله وإحسانه وتيسيره الأمور لما حصل لهم من الرزق والنعم شيء.

فقراء في صرف النقم عنهم، ودفع المكاره، وإزالة الكروب والشدائد، فلولا دفعه عنهم وتفريجه لكرباتهم، وإزالته لعسرهم لاستمرت عليهم المكاره والشدائد.

فقراء إليه في تربيتهم بأنواع التربية وأجناس التدبير.

فقراء إليه في تألههم له وحبهم له، وتعبدهم واخلاص العبادة له تعالى؛ فلو لم يوفقهم لذلك لهلكوا، وفسدت أرواحهم وقلوبهم وأحوالهم.

فقراء إليه في تعليمهم ما لا يعلمون، وعلمهم بما يصلحهم؛ فلولا تعليمه لم يتعلموا ولولا توفيقه لم يصلحوا.

فهم فقراء بالذات إليه بكل معنى، وبكل اعتبار سواء شعروا ببعض أنواع الفقر أم لم يشعروا؛ ولكن الموفق منهم الذي لا يزال يشاهد فقره في كل حال من أمور دينه ودنياه، ويتضرع له، ويسأله أن لا يكله إلى نفسه طرفة عين، وأن يعينه على جميع أموره، ويستصحب هذا المعنى في كل وقت، فهذا حري

بالإعانة التامة من ربه وإلهه، الذي هو أرحم من الوالدة بولدها.

والله هو الغني الحميد أي الذي له الغنى التام من جميع الوجوه، فلا يحتاج إلى ما يحتاج إليه خلقه، ولا يفتقر إلى شيء مما يفتقر إليه الخلق، وذلك لكمال صفاته وكونها كلها صفات كمال ونعوت جلال، ومن غناه تعالى أنه قد أغنى الخلق في الدنيا والآخرة، فهو الحميد في ذاته، وأسمائه، وأنها حسنى، وأوصافه لكونها عليا، وأفعاله لأنها فضل وإحسان وعدل وحكمة ورحمة، وفي أوامره ونواهيه فهو الحميد على ما فيه من الصفات، وعلى ما منه من الفضل والإنعام وعلى الجزاء بالعدل وهو الحميد في غناه الغني في حمده»(١).

ومنزلة الفقر من منازل العبادة لله سبحانه، التي يدور فيها المسلم بين ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥].

وعن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**يقول الله تعالى: يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فسلوني الهدى؛ أهدِكُم. وكلُّكُم فقير إلا من أغنيت، فسلوني؛ أرزقْكم. وكلّكم مذنب إلا من عافيتُ، فمن علم منكم أني ذو قدرة على المغفرة فاستغفرني؛ غفرتُ له ولا أبالي. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أتقى قلب عبد من عبادي(٢)؛ ما زاد ذلك في ملكي جناح بعوضة. ولو أن أوَّلكم وآخركم**

---

(١) تيسير الكريم الرحمن (٦/٣٠٩-٣١١).

(٢) وهو نبينا ﷺ وبارك.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا على أشقى قلب عبد من عبادي[(١)]؛ ما نقص ذلك من ملكي جناح بعوضة. ولو أن أولكم وآخركم وحيكم وميتكم ورطبكم ويابسكم اجتمعوا في صعيد واحد، فسأل كلُّ إنسان منكم ما بلغت أمنيته، فأعطيتُ كلَّ سائل منكم ما سأل؛ ما نقص ذلك من ملكي إلا كما لو أن أحدكم مرّ بالبحر فغمس فيه إبرة، ثم رفعها إليه. ذلك بأني جواد ماجد، أفعل ما أريد، عطائي كلام[(٢)] وعذابي كلام. إنما أمري لشيء إذا أردته أن أقول له كن فيكون»[(٣)].

فلنتأمل - يا أخي - غنى ربنا عنّا وعن عبادتنا مهما بلغت كمّا وكيفًا وصدقًا وإخلاصًا وإحسانًا، فنحن المحتاجون المفتقرون لتلك العبادات التي لا غنى لأرواحنا عنها، فهي غذاؤها وأنسها وغناها، وكفاها شرفًا وفضلًا أن ارتضاها الله تعالى لنا قرابين إليه ووسائل لمرضاته وسبلًا لمحبته، فله الحمد أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، له الحمد كله، سبحانه لا نحصي ثناء عليه.

وفقر القلب: خلوه من دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وبعده عن مشاهدة فاقته التامة إلى الله تعالى من كل وجه[(٤)].

وإنما يحصل غنى النفس بغنى القلب؛ بأن يفتقر إلى ربه في جميع أموره،

(١) وهو إبليس الرجيم أعاذنا الله منه.
(٢) فبكلمة (كُن) يخلق ما يشاء وهو الخلاق العليم القدير الحكيم.
(٣) الترمذي (٢٤٩٥) وأحمد (٢١٣٦٧) وصحّحه محققو المسند.
(٤) انظر مدراج السالكين (٢/ ٤٤٠).

فيتحقق أنه المعطي المانع فيرضى بقضائه ويشكره على نعمائه، ويفزع إليه في كشف ضرائه، فينشأ عن افتقار القلب لربه غنى نفسه عن غير ربه تعالى[(١)].

وهذا المعنى يرجع إلى الفقر الذي ذكره الله تبارك وتعالى في قوله في سورة فاطر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلۡفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ١٥]، وهي مكية.

وأما المسكنة التي سألها الرسول ﷺ فهي تعود إلى حالين:

الأولى: المسكنة التي يرجع معناها إلى الإخبات والتواضع، فكأنه سأل الله تعالى أن لا يجعله من الجبارين المتكبرين وأن لا يحشر في زمرة الأغنياء المترفين، كما قال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى في كلام له على حديث: «**اللّٰهم أحيني مسكينًا**»[(٢)] «فالمساكين ضد المتكبرين، وهم الخاشعون لله، المتواضعون

---

(١) من كلام ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، في فتح الباري (١١/ ٢٧٣).

(٢) سنن الترمذي (٤/ ٥٧٧) (٢٣٥٢) عن أنس أن رسول الله ﷺ قال: «**اللّٰهم أحيني مسكينًا، وأمتني مسكينًا، واحشرني في زمرة المساكين يوم القيامة**» فقالت عائشة: لم يا رسول الله؟ قال: «**إنهم يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بأربعين خريفًا. يا عائشة، لا تردي المسكين ولو بشق تمرة، يا عائشة، أحبي المساكين وقرّبيهم، فإن الله يقرّبك يوم القيامة**» قال أبو عيسى: هذا حديث غريب. وصححه الألباني في الإرواء. وخرجه البيهقي في الشعب (١٠٠٢٥). والأكثرون على تضعيفه، قال ابن تيمية عنه: «هذا يُروى لكنه ضعيف لا يثبت، ومعناه أحيني خاشعًا متواضعًا، ولكن اللفظ لم يثبت» الفتاوى (١٨/ ٣٥٧) وأخرجه ابن الجوزي في الموضوعات (٣/ ١٤٢).


شبكة الألوكة
www.alukah.net



لعظمته، الذين لا يريدون علوًّا في الأرض، سواء كانوا أغنياء أو فقراء.

ومن هذا الباب أن الله خيره بين أن يكون عبدًا رسولًا وبين أن يكون نبيًّا ملكًا، فاختار أن يكون عبدًا رسولًا؛ لأن العبد الرسول يتصرف بأمر سيده، لا لأجل حظّه، وأما الملك فيتصرف لحظ نفسه، وإن كان مباحًا، كما قال لسليمان: ﴿هَٰذَا عَطَآؤُنَا فَٱمۡنُنۡ أَوۡ أَمۡسِكۡ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [ص: ٣٩]، ففي هذه الأحاديث أنه اختار العبودية والتواضع»(١).

الثانية: المسكنة التي ترجع إلى حالة الكفاف، وهي حالة سليمة من الغنى المُطْغِي، والفقر المؤلم، وصاحبها معدود في الفقراء لأنه لا يترفه في طيبات الدنيا، بل يجاهد نفسه في الصبر عن القدر الزائد على الكفاف، فلم يفته من حال الفقر إلا السلامة من قهر الحاجة وذل المسألة(٢).

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقر المضطر هو الذي استعاذ منه، والفقر الذي هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذي سأله في دعائه»(٣) «وفقر المضطر هو أن يكون ما فقده من المال مضطرًّا إليه كالجائع الفاقد للخبز، والعاري الفاقد للثوب»(٤).

---

(١) مجموع الفتاوى (١١/ ١٣٠-١٣١).

(٢) انظر فتح الباري (١١/ ٢٧٤-٢٧٥).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ١٩٣).

(٤) إحياء علوم الدين (٤/ ١٩١).


شبكة الألوكة - قسم الكتب

قال ابن حجر رحمه الله: «إن قيل ما وجه استعاذته من الفقر؟ فالجواب: إن الذي استعاذ منه وكرهه فقر القلب، والذي اختاره وارتضاه طرح المال»(١) وقال ابن عبد البر: «الذي استعاذ منه هو الذي لا يُدرك معه القوت والكفاف، ولا يستقر معه في النفس غنى؛ لأن الغنى عنده غنى النفس، وقد قال تعالى: ﴿وَوَجَدَكَ عَآئِلًا فَأَغۡنَىٰ﴾ [الضحى: ٨]، ولم يكن غناه أكثر من ادخاره قوت سنة لنفسه وعياله، وكان الغنى محله في قلبه ثقة بربه، وكان يستعيذ بالله من فقر منسي، وغنى مطغي(٢)، وفيه دليل على أن للغِنَى والفقر طرفين مذمومين، وبهذا تجتمع الأخبار في هذا المعنى»(٣).

فالفقر الحقيقي هو فقر القلب وليس فقر العَرَض، فعن أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ «**يا أبا ذر، أترى كثرة المال هو الغنى؟**» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «**فترى قلة المال هو الفقر؟**» قلت: نعم يا رسول الله. قال: «**إنما الغنى غنى القلب، والفقر فقر القلب**»(٤).

---

(١) انظر: الفتح (١١/٢٧٦).

(٢) أخرج الترمذي وحسنه واستغربه (٢٣٠٦) عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**بادروا بالأعمال سبعًا، هل تنتظرون إلا فقرًا مُنسيًا، أو غنًى مُطغيًا، أو مرضًا مفسدًا، أو هرمًا مفنّدًا، أو موتًا مجْهزًا، أو الدجال؛ فشرُّ غائب يُنتظر، أو الساعة؛ فالساعة أدهى وأمر**».

(٣) التلخيص الحبير (٣/١٢٣)، أحكام الفقير والمسكين، د. محمد بن عمر بازمول (١/ ٤٩، ٢٢٥ - ٢٣٠) باختصار وتصرف.

(٤) حديث صحيح، أخرجه ابن حبان في صحيحه (الإحسان٢/٤٦١، ٦٨٥) وغيره.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

«وفقر القلب: خلوه من دوام الافتقار إلى الله في كل حال، وبعده عن مشاهدة فاقته التامة إلى الله تعالى من كل وجه»[١].

وتدبّر ـ رعاك الله ـ تملّق الرسول الأعظم صلوات الله وسلامه وبركاته عليه لربه تعالى، واستكانته وانكساره وانطراحه وافتقاره إليه في هذه النجوى النبوية لرب العالمين. ففي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي ﷺ كان يدعو بهذا الدعاء: «**اللّٰهم اغفر لي خطيئتي، وجهلي، وإسرافي في أمري، وما أنت أعلم به مني، اللّٰهم اغفر لي جدي وهزلي، وخطئي وعمدي، وكل ذلك عندي، اللّٰهم اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، وما أنت أعلم به مني، أنت المقدم، وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير**»[٢]. وفي شفاء العليل: «وحقيقة الأمر أن العبد فقير إلى الله من كل وجه وبكل اعتبار، فهو فقير إليه من جهة ربوبيته له وإحسانه إليه وقيامه بمصالحه وتدبيره له، وفقير إليه من جهة إلهيته وكونه معبوده وإلهه ومحبوبه الأعظم الذي لا صلاح له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور إلا بأن يكون أحب شيء إليه، فيكون أحب إليه من نفسه وأهله وماله ووالده وولده ومن الخلق كلهم، وفقير إليه من جهة معافاته له من أنواع البلاء، فإنه إن لم يعافِهِ منها هلك ببعضها، وفقير إليه من جهة عفوه عنه ومغفرته له، فإن لم يعف عن العبد ويغفر له فلا سبيل إلى النجاة، فما نجى أحد إلا بعفو الله، ولا دخل الجنة

---

(١) انظر مدراج السالكين (٢/ ٤٤٠) عن السابق (١/ ٢٣٠). وقد مر قريبًا.

(٢) البخاري (٨/ ١٠٥) (٦٣٩٩) ومسلم (٨/ ٨٠) (٢٧١٩) (٧٠).



إلا برحمة الله.

وكثير من الناس ينظر إلى نفس ما يُتاب منه فيراه نقصًا، ولا ينظر إلى كمال الغاية الحاصلة بالتوبة، وأن العبد بعد التوبة النصوح خير منه قبل الذنب، ولا ينظر إلى كمال الربوبية وتفرد الرب بالكمال وحده، وأن لوازم البشرية لا ينفك منها البشر، وأن التوبة غاية كل أحد من ولد آدم وكماله، كما كانت هي غايته وكماله، فليس للعبد كمال بدون التوبة البتة، كما أنه ليس له انفكاك عن سببها، فإنه سبحانه هو المتفرد المستأثر بالغنى والحمد من كل وجه وبكل اعتبار، والعبد هو الفقير المحتاج إليه المضطر إليه بكل وجه وبكل اعتبار، فرحمته للعبد خير له من عمله، فإنّ عمله لا يستقل بنجاته ولا سعادته، ولو وُكل إلى عمله لم ينج به البتة.

وهذا بعض ما يتعلق بقوله ﷺ: **«لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم»**(١) ومما يوضحه أن شكره سبحانه مستحقّ

---

(١) كما في حديث أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي خرّجه أحمد وغيره (٣٥/ ٤٦٥) (٢١٥٨٩) بسنده عن ابن الديلمي قال: «لقيت أبيَّ بن كعب فقلت: يا أبا المنذر، إنه قد وقع في نفسي شيء من هذا القدر، فحدثني بشيء لعله يذهب من قلبي. قال: «لو أن الله عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، ولو رحمهم كانت رحمته لهم خيرًا من أعمالهم، ولو أنفقت جبل أحد ذهبًا في سبيل الله عز وجل ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير ذلك لدخلت النار، قال: فأتيت حذيفة فقال لي مثل ذلك»، وأتيت ابن مسعود فقال لي مثل ذلك، وأتيت زيد بن ثابت فحدثني عن
=

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عليهم بجهة ربوبيته لهم، وكونهم عبيده ومماليكه، وذلك يوجب عليهم أن يعرفوه ويعظموه ويوحدوه ويتقربوا إليه تقرب العبد المحب الذي يتقلب في نعمه، ولا غناء به عنه طرفة عين، فهو يدأب في التقرب إليه بجهده، ويستفرغ في ذلك وسعه وطاقته، ولا يعدل به سواه في شيء من الأشياء، ويؤثر رضا سيده على إرادته وهواه، بل لا هوى له ولا إرادة إلا فيما يريد سيده ويحبه. وهذا يستلزم علومًا وأعمالًا وإراداتٍ وعزائم لا يعارضها غيرها، ولا يبقى له معها التفات إلى غيره بوجه.

ومعلوم أن ما طُبع عليه البشر لا يفي بذلك، وما يستحقه الرب تعالى لذاته وأنه أهل أن يعبد أعظم مما يستحقه لإحسانه، فهو المستحق لنهاية العبادة والخضوع والذل لذاته ولإحسانه وإنعامه. وفي بعض الآثار: «**لو لم أخلق جنة ولا نارًا لكنت أهلًا أن أُعبَدَ**» ولهذا يقول أعبدُ خلقه له يوم القيامة[1] وهم الملائكة:

=

النبي ﷺ مثل ذلك. وحديث زيد بن ثابت مرفوع، والبقية لها حكم الرفع، وهو مخرّج كذلك في سنن ابن ماجه (١/ ٢٩) (٧٧) وصححه الألباني.

(١) أي: بعد الرسل والأنبياء، فهم أعبد بلا تردد، وقد تقلّبوا في رياض العبودية بشتى صورها ومراتبها، وجاهدوا وصبروا وأوذوا في سبيل الله ودعوا الناس لتوحيد ربهم والإيمان به، إلى غير ذلك من مقامات العبودية التي لم يلحقهم فيها ملك. فمن حيث الكيفية والأفضلية فعبادة المرسلين أفضل من جهة المجاهدة، أما من حيث الكم فالملائكة أطول عمرًا وقد قال الله فيهم: ﴿لَّا يَعۡصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمۡ وَيَفۡعَلُونَ مَا يُؤۡمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].



شبكة الألوكة - قسم الكتب

«سبحانك ما عبدناك حق عبادتك»[(١)].

فمن كرمه وجوده ورحمته أن رضي من عباده بدون اليسير مما ينبغي أن يعبد به ويستحقه لذاته وإحسانه، فلا نسبة للواقع منهم إلى ما يستحقه بوجه من الوجوه، فلا يسعهم إلا عفوه وتجاوزه. وهو سبحانه أعلم بعباده منهم بأنفسهم، فلو عذبهم لعذبهم بما يعلمه منهم، وأن لم يحيطوا به علمًا، ولو عذبهم قبل أن يرسل رسله إليهم على أعمالهم لم يكن ظالمًا لهم، كما أنه سبحانه لم يظلمهم بمقته لهم قبل إرسال رسوله على كفرهم وشركهم وقبائحهم، فإنه سبحانه نظر إلى أهل الأرض فمقتهم[(٢)] عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب[(٣)].

---

(١) روى البيهقي في شعب الإيمان (١/ ٣٢٥) بسنده عن عبد الله بن عمر أن عمر بن الخطاب جاء والصلاة قائمة، فذكر قصة امتناع أبي جحش الليثي عن الصلاة مع النبي ﷺ، وفيها أن النبي ﷺ قال: **«هلمّ يا عمر، اجلس حتى أحدثك بغنى الرب تبارك وتعالى عن صلاة أبي جحش، إن لله في سمائه ملائكة خشوعًا لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم قالوا: ربنا ما عبدناك حق عبادتك، وإن لله في السماء الثانية ملائكة سجودًا لا يرفعون رؤوسهم حتى تقوم الساعة، فإذا قامت الساعة رفعوا رؤوسهم، ثم قالوا: ربنا ما عبدناك حق عبادتك»** قال البيهقي رحمه الله تعالى: «قد أخرجته بطوله في مناقب عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ» وضعفه الألباني في السلسلة (٤٩٨٢).

(٢) المقت: غاية الكره، وفي التنزيل: ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٣].

(٣) يعني الحديث المتفق عليه، ولفظ مسلم (٤/ ٢١٩٧) بطوله من حديث عياض بن =



ولكن أوجب على نفسه إذ كتب عليها الرحمة أنه لا يعذب أحدًا إلا بعد قيام الحجة عليه برسالته.

وسرّ المسألة؛ أنه لما كان شكر المنعم على قدره وعلى قدر نعمه، ولا يقوم

=

حمار المجاشعي أن رسول الله ﷺ قال ذات يوم في خطبته: «**ألا إن ربي أمرني أن أعلمكم ما جهلتم مما علمني يومي هذا، كل مال نحلته عبدًا حلال، وإني خلقت عبادي حنفاء كلهم، وإنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، وحرمتْ عليهم ما أحللتُ لهم، وأمرَتْهم أن يشركوا بي ما لم أنزل به سلطانًا. وإن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم عربهم وعجمهم إلا بقايا من أهل الكتاب. وقال: إنما بعثتك لأبتليك وأبتلي بك، وأنزلت عليك كتابًا لا يغسله الماء، تقرؤه نائمًا ويقظان. وإن الله أمرني أن أحرق قريشًا، فقلت: رب إذا يثلغوا رأسي فيدعوه خبزة، قال: استخرجهم كما استخرجوك، واغزهم نُغْزِكَ، وأنفق فسننفق عليك، وابعث جيشًا نبعث خمسة مثله، وقاتل بمن أطاعك من عصاك.**

قال: وأهل الجنة ثلاثة: ذو سلطان مقسط متصدق موفق، ورجل رحيم رقيق القلب لكل ذي قربى ومسلم، وعفيف متعفف ذو عيال.

قال: وأهل النار خمسة: الضعيف الذي لا زَبْرَ له، الذين هم فيكم تبعًا لا يبتغون أهلًا ولا مالًا، والخائن الذي لا يخفى له طمع وإن دق إلا خانه، ورجل لا يصبح ولا يمسي إلا وهو يخادعك عن أهلك ومالك، وذكر البخل أو الكذب والشنظير الفحاش» وفي رواية: «**وإن الله أوحى إلي أن تواضعوا حتى لا يفخر أحدٌ على أحد، ولا يبغي أحدٌ على أحد**» وقال في حديثه: «**وهم فيكم تبعًا لا يبغون أهلًا ولا مالًا**» فقلت: وكيف يكون ذلك يا أبا عبد الله؟ قال: نعم، والله لقد أدركتهم في الجاهلية وإن الرجل ليرعى على الحي ما به إلا وليدتهم فيطؤها.



بذلك أحد، كان حقه سبحانه على كل أحد، وله المطالبة به وإن لم يغفر له ويرحمه وإلا عذبه، فحاجتهم إلى مغفرته ورحمته وعفوه كحاجتهم إلى حفظه وكلاءته ورزقه، فإن لم يحفظهم هلكوا، وإن لم يرزقهم هلكوا، وأن لم يغفر لهم ويرحمهم هلكوا وخسروا، ولهذا قال أبوهم آدم وأمهم حواء: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] وهذا شأن ولده من بعده، وقد قال موسى كليمه: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَٱغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦] وقال: ﴿سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقال: ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٥١] وقال: ﴿أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا ۖ وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٥] وقال خليله إبراهيم: ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي ۚ رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝٤٠ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ﴾ [إبراهيم: ٤٠، ٤١] وقال: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] إلى قوله: ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوْمَ ٱلدِّينِ﴾ [الشعراء: ٨٢] وقال أول رسله إلى أهل الأرض: ﴿رَبِّ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْـَٔلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِۦ عِلْمٌ ۖ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِي وَتَرْحَمْنِيٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [هود: ٤٧] وقال لأكرم خلقه عليه وأحبهم إليه: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ [محمد: ١٩] وقال: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: ١٠٥] إلى قوله: ﴿وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ١٠٦] وقال: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ١، ٢].

وقد تقدم حديث ابن عباس في دعائه صلى الله عليه وسلم: «**رب أعني ولا تعن عليَّ**» وفيه: «**رب تقبل توبتي واغسل حوبتي**» الحديث[١] وقد أخبر سبحانه عن أعبد البشر[٢] داود أنه استغفر ربه راكعًا وأناب، وقال تعالى:

(١) روى ابن ماجه في سننه بسند صحيح عن ابن عباس، أن النبي ﷺ كان يقول في دعائه: «**رب أعنّي ولا تعن عليَّ، وانصرني ولا تنصر علي، وامكر لي ولا تمكر علي، واهدني ويسر الهدى لي، وانصرني على من بغى علي، رب اجعلني لك شكّارًا، لك ذكّارًا، لك رهّابًا، لك مطيعًا، إليك مخبتًا، إليك أوّاهًا منيبًا، رب تقبل توبتي، واغسل حوبتي، وأجب دعوتي، واهد قلبي، وسدد لساني، وثبت حجّتي، واسلل سخيمة قلبي**» وأخرجه أبو داود (١٥٠١) و(١٥١١)، والترمذي (٣٨٦٥) و(٣٨٦٦)، والنسائي في الكبرى (١٠٣٦٨) وهو في مسند أحمد (١٩٩٧).

(٢) أي: من أعبدهم، إشارة لحديث أبي محمد عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: أُخبر النبي ﷺ أني أقول: والله لأصومنَّ النهار، ولأقومنّ الليل ما عشت. فقال رسول الله ﷺ: «**أنت الذي تقول ذلك؟**» فقلت له: قد قلته بأبي أنت وأمي يا رسول الله. قال: «**فإنك لا تستطيع ذلك، فصم وأفطر، ونم وقم، وصم من الشهر ثلاثة أيام، فإن الحسنة بعشر أمثالها وذلك مثل صيام الدهر**» قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فصم يومًا وأفطر يومين**» قلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، قال: «**فصم يومًا وأفطر يومًا، فذلك صيام داود ﷺ، وهو أعدل الصيام**» وفي رواية: «**هو أفضل الصيام**» فقلت: فإني أطيق أفضل من ذلك، فقال رسول الله ﷺ: «**لا أفضل من ذلك**» ولَأَن أكون قبلت الثلاثة الأيام التي قال رسول الله ﷺ أحب إلي من أهلي ومالي» أخرجه البخاري ٦٣/٢ (١١٣١) ومسلم ١٦٢/٣ (١١٥٩) وفي رواية: «**إن أحبّ الصيام إلى الله صيام داود، وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود،**
=

﴿فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ﴾ [ص: ٢٥] وقال عن نبيه سليمان: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا سُلَيْمَٰنَ وَأَلْقَيْنَا عَلَىٰ كُرْسِيِّهِۦ جَسَدًا ثُمَّ أَنَابَ ۝٣٤ قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ﴾ [ص: ٣٤، ٣٥] وقال عن نبيه يونس: ﴿فَنَادَىٰ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧] وقال صدّيق الأمة وخيرها وأبرها وأتقاها لله بعد رسوله: يا رسول الله، علمني دعاء أدعو به في صلاتي. فقال: «**قل: اللّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم**»[(١)].

فاستفتح الخبر عن نفسه بأداة التوكيد التي تقتضي تقرير ما بعدها، ثم ثنى بالإخبار عن ظلمه لنفسه، ثم وصف ذلك الظلم بكونه ظلمًا كثيرًا، ثم طلب من ربه أن يغفر له مغفرة من عنده، أي لا يبلغها علمه ولا سعيه، بل هي محض منّته وإحسانه وأكبر من عمله، فإذا كان هذا شأن من وزن بالأمة فرجح بهم فكيف بمن دونه؟!»[(٢)]. والله المستعان وعليه التكلان ولا حول ولا قوة إلا به.

❀❀❀❀

=

كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا».

(١) البخاري (٧٣٧٨) مسلم (٢٧٠٥).

(٢) شفاء العليل لابن قيم الجوزية (١/١١٨ - ١٢٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

الافتقار للهدى

إن أعظم الافتقار هو الافتقار للهدى إرشادًا وتوفيقًا وتثبيتًا، ومن رحمة الله تعالى ولطفه أن شرع لنا اللهج بها سبع عشرة مرّة في كل يوم وليلة على أقل تقدير، فكل مصلٍّ يتلو قول ربه داعيًا راغبًا راهبًا: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] وكان رسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه كثير اللهج بسؤال الله الهداية، فكان من دعائه بين السجدتين: «**اَللَّهُمَّ اِغْفِرْ لِي، وَارْحَمْنِي، وَاهْدِنِي، وَعَافِنِي، وَارْزُقْنِي**» من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا رواه الأربعة إلا النسائي واللفظ لابي داود[(١)].

وعند أبي داود والترمذي واللفظ له من حديث عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أَنَّ رسولَ الله ﷺ كان يقول في دعائه: «**رَبِّ أَعِنِّي، ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْني ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامكُرْ لي ولا تَمكُرْ عَلَيَّ، واهدِني ويَسِّرْ الْهُدَى لي، وانْصُرْني على مَن بَغَى عَلَيَّ، رَبِّ اجعلْني لك شَاكِرا، لك ذَاكِرا، لك رَاهِبا، لك مِطْوَاعا، لك مُخْبِتا، إِليك أَوَّاها مُنِيبا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبتي، واغْسِلْ حَوْبَتي، وأجِبْ دَعْوَتي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وسَدِّدْ لِسَاني، واهْدِ قلبي، واسْلُلْ سَخيمَةَ صَدْرِي**»[(٢)] وكان شيخ الإسلام يوصي باللهَج بهذا الدعاء العظيم.

---

(١) أبو داود (٨٥٠)، والترمذي (٢٨٤)، وابن ماجه (٨٩٨)، والحاكم (١/ ٢٦٢/ ٢٧١) والحديث صحيح.

(٢) أبو داود (١٥١٠) والترمذي (٣٥٥١) وأحمد (١/٢٢٧) (١٩٩٧) وابن ماجه =

وروى مسلم عن أبي سلمة بن عبد الرحمن قال: سألتُ عائشة بأي شيء كان النبي صلى الله عليه سلم يفتتح صلاته؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتتح صلاته قال: «**اللّٰهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اللّٰهم اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(١).

وكان ﷺ يهدي أصحابه ويرشدهم إليها لطلبها ممن لا يهدي هدى التوفيق سواه فمن ذلك:

ما رواه ابن أبي أوفى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إني لا أستطيع أن آخُذَ من القرآن شيئا، فَعلِّمني ما يُجْزِئُني؟ قال: «**قل: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حَولَ ولا قُوة إلا باللهِ**» قال: يا رسولَ الله، هذا لله، فماذا لي؟ قال: قُلْ: «**اللَّهمَّ ارْحَمني وعَافِني واهْدِني وارْزُقني**» فقال: هكذا بِيَدَيه - وقَبَضَهما - فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَمَّا هذا فقد ملأ يديْه من الخير**»(٢).

=
(٣٨٣٠) والحديث صحيح.

(١) مسلم (٧٧٠).

(٢) أخرجه أبو داود (٨٣٢) وسكت عنه، وما سكت عنه فهو صالح عنده، وحسنه الألباني، وأخرجه أحمد (٤/٣٨٢) والحميدي (٧١٧) والنسائي (٢/١٤٣).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ لِي رسولُ الله ﷺ: «**قُلْ: اللَّهُمَّ اهْدِنِي، وَسَدِّدْنِي**» وفي رواية: «**اللَّهم إني أسألك الهدى والسداد. واذكر بالهدى هدايتك الطريق، وبالسداد سداد السهم**»(١).

وروى أبوداود في سننه قول الحَسَن بن علِيٍّ رضى الله عنهما: عَلَّمَنِى رَسُولُ اللَّه ﷺ كَلِمَاتٍ أَقُولُهُنَّ فِي الْوِتْرِ قَال: «**اللَّهُمَّ اهْدِنِى فِيمَنْ هَدَيْتَ..**»(٢).

والهدى من جملة رزق الله تعالى لخاصّته وأوليائه، كما قال جل وعز: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥] وقال سبحانه: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٦] والمؤمن يلهج بسؤال الله تعالى الهدى في كل ركعة: ﴿ٱهْدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] أي أرشدنا إليه أوّلًا وبصّرنا به وفقهنا فيه، ثم وفقنا سلوكه والسير فيه دون سواه ثانيًا، ثم ثبّتنا عليه حتى الموافاة ثالثًا.

والذكاء ليس بمستقلّ للهُدى، فهو سبب محتاج لجملةِ أسباب، وحجْبِ موانع، وجامع ذلك توفيق الله لمن شاء هداه. «وقد يكون الرجل من أذكياء

(١) مسلم (٨/٨٣) (٢٧٢٥) (٧٨) قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «سددني: وفقني واجعلني منتصبًا في جميع أموري مستقيمًا» شرح صحيح مسلم (٩/٣٨).

(٢) سنن أبى داود (١/ ٥٣٦) وصححه الألباني.



الناس وأحدّهم نظرًا، ويعميه عن أظهر الأشياء! وقد يكون من أبلد الناس وأضعفهم نظرًا، ويهديه لما اختلف فيه من الحق بإذنه، فلا حول ولا قوة إلا به.

فمن اتّكل على نظره واستدلاله أو عقله ومعرفته خُذِل، ولهذا كان النبي صلى الله عليه وسلم في الأحاديث الصحيحة كثيرًا ما يقول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»(١) ويقول في يمينه: «**لا ومقلب القلوب**»(٢) ويقول: «**والذي نفسي بيده**»(٣) ويقول: «**ما من قلب من قلوب العباد إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، وإن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه**»(٤).

وكان إذا قام من الليل يقول: «**اللّٰهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**»(٥) وكان يقول هو وأصحابه في ارتجازهم:

---

(١) الترمذي (٣/٣٠٤).

(٢) البخاري (٨/١٢٨).

(٣) وهي كثيرة، ومنها ما جاء عند مسلم (٢٢٢).

(٤) المسند (٤/١٨٢) وسنن النسائي الكبرى (٧٧٣٨) وسنن ابن ماجه (١٩٩). ورواه ابن منده في الرد على الجهمية (٨٧) وقال: «ثابت رواه الأئمة المشاهير ممن لا يمكن الطعن على واحد منهم».

(٥) مسلم (٧٧٠).

اللّٰهم لــولا أنــت مــا اهتــدينا ولا تصــــدقنا ولا صــــلينا
فـــأنزلن ســـكينة علينـــا وثبـــت الأقـــدام إن لاقينـــا

وهذا في العلم كالإرادات في الأعمال، فإن العبد مفتقر إلى الله في أن يحبب إليه الإيمان ويبغّض إليه الكفر، وإلا فقد يعلم الحق وهو لا يحبه ولا يريده، فيكون من المعاندين الجاحدين، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] »(١).

«وحقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء بالحديث الصحيح: «**اللّٰهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم**» وكان شيخنا كثير الدعاء بذلك، وكان إذا أشكلت عليه المسائل يقول: «يا معلم إبراهيم علمني» ويكثر الاستعانة بذلك اقتداء بمعاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ حيث قال لمالك بن يخامر السكسكي عند موته وقد رآه يبكي، فقال: والله ما أبكي على دنيا كنت أصيبها منك، ولكن أبكي على العلم والإيمان اللذين كنت أتعلمهما منك، فقال معاذ بن جبل رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: إن العلم والإيمان مكانهما من ابتغاهما وجدهما.

اطلب العلم عند أربعة: عند عويمر أبي الدرداء، وعند عبد الله بن مسعود، وأبي موسى الأشعري، وذكر الرابع، فإن عجز عنه هؤلاء فسائر أهل

(١) درء تعارض العقل والنقل: (٩/ ٣٤-٣٥).

الأرض عنه أعجز، فعليك بمعلم إبراهيم»(١).

وقال ابن تيمية رحمه الله منبهًا لأهمية الافتقار التام لله وعظمة دعاء الفاتحة ومبيّنًا أن معنى ﴿ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦] هو الإرشاد والتوفيق للعمل والتثبيت عليه حتى الموافاة: «الإنسان وإن كان أقرّ بأن محمدًا رسول الله وأن القرآن حق على سبيل الإجمال، فأكثر ما يحتاج إليه من العلم بما ينفعه ويضره وما أمر به وما نهى عنه في تفاصيل الأمور وجزئياتها لم يعرفْه، وما عرفه فكثير منه لم يعمل بعلمه، ولو قدر أنه بلغه كل أمر ونهي في القرآن والسنة فالقرآن والسنة إنما تذكر فيهما الأمور العامة الكلية لا يمكن غير ذلك، لا تذكر ما يخص به كل عبد، ولهذا أمر الإنسان في مثل ذلك بسؤال الهدى إلى الصراط المستقيم. والهدى إلى الصراط المستقيم يتناول هذا كله، يتناول التعريف بما جاء به الرسول مفصلًا، ويتناول التعريف بما يدخل في أوامره الكليات، ويتناول إلهام العمل بعلمه، فإن مجرد العلم بالحق لا يحصل به الاهتداء إن لم يعمل بعلمه، ولهذا قال لنبيه بعد صلح الحديبية: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [الفتح: ١، ٢] وقال في حق موسى وهارون: ﴿وَءَاتَيۡنَٰهُمَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلۡمُسۡتَبِينَ ١١٧ وَهَدَيۡنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧، ١١٨].

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (٥/ ١٥٠) وانظر: إعلام الموقعين (٤/٢٥٧)، (٢/ ٤١٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمسلمون قد تنازعوا فيما شاء الله من الأمور الخبرية والعلمية الاعتقادية والعملية، مع أنهم كلهم متفقون على أن محمدًا حق والقرآن حق، فلو حصل لكل منهم الهدى إلى الصراط المستقيم فيما اختلفوا فيه لم يختلفوا، ثم الذين علموا ما أمر الله به أكثرهم يعصونه ولا يحتذون حذوه، فلو هدوا إلى الصراط المستقيم في تلك الأعمال لفعلوا ما أمروا به وتركوا ما نهوا عنه، والذين هداهم الله من هذه الأمة حتى صاروا من أولياء الله المتقين كان من أعظم أسباب ذلك دعاؤهم الله بهذا الدعاء في كل صلاة مع علمهم بحاجتهم وفاقتهم إلى الله دائمًا في أن يهديهم الصراط المستقيم. فبدوام هذا الدعاء والافتقار صاروا من أولياء الله المتقين. قال سهل بن عبد الله التستري: «ليس بين العبد وبين ربه طريق أقرب إليه من الافتقار».

وما حصل فيه الهدى في الماضي فهو محتاج إلى حصول الهدى فيه في المستقبل، وهذا حقيقة قول من يقول: ثبتنا واهدنا لزوم الصراط. وقول من قال: زدنا هدى يتناول ما تقدم؛ لكن هذا كله هدى منه في المستقبل إلى الصراط المستقيم؛ فإن العمل في المستقبل بالعلم لم يحصل بعد ولا يكون مهتديًا حتى يعمل في المستقبل بالعلم، وقد لا يحصل العلم في المستقبل بل يزول عن القلب، وإن حصل فقد لا يحصل العمل.

فالناس كلهم مضطرون إلى هذا الدعاء؛ ولهذا فرضه الله عليهم في كل صلاة فليسوا إلى شيء من الدعاء أحوج منهم إليه، وإذا حصل الهدى إلى الصراط المستقيم حصل النصر والرزق وسائر ما تطلب النفوس من



السعادة»[١].

هذا وإن من تصدّى لهداية الناس فهو محتاج لمزيد هدىً وتثبيت، فأفهامهم وبصائرهم ومواردهم تختلف، وحقيق بالمفتي أن يكثر الدعاء لنفسه بالتوفيق.

وكان بعض السلف يقول عند الافتاء: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

وكان مكحول يقول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» وكان مالك يقول: «ما شاء الله، لا قوة إلا بالله العلي العظيم» وكان بعضهم يقول: ﴿قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي﴾ [طه: ٢٥ - ٢٨] وكان بعضهم يقول: «اللّهم وفقني واهدني وسددني، واجمع لي بين الصواب والثواب، وأعذني من الخطأ»[٢].

«وينبغي للمفتي المُوفّق إذا نزلت به المسألة أن ينبعث من قلبه الافتقار الحقيقي الحاليّ لا العلمي المجرد، إلى مُلهِم الصواب ومعلم الخير وهادي القلوب؛ أن يُلهمه الصواب، ويفتح له طريق السداد، ويدلّه على حُكمه الذي شرعه لعباده في هذه المسألة. فمتى قرع هذا الباب فقد قرع باب التوفيق، وما

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٠٧-١١٠) وانظره في: أمراض القلوب (١/ ١٢) وما بعدها.

(٢) إعلام الموقعين للحافظ ابن القيم (٤/ ٢٥٧) الفائدة الحادية والستون.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

أجدر من أمّل فضل ربه أن لا يحرمه إيّاه، فإذا وجد من قلبه هذه الهمّة فهي طلائع بشرى التوفيق، فعليه أن يوجّه وَجْهه ويحدّق نظره إلى منبع الهدى ومعدن الصواب ومطلع الرشد وهو النصوص من القرآن والسنة وآثار الصحابة، فيستفرغ وسعه في تعرّف حكم تلك النازلة منها، فان ظفر بذلك أخبرَ به، وإن اشتبه عليه بادر إلى التوبة والاستغفار والاكثار من ذكر الله، فإن العلم نور الله يقذفه في قلب عبده، والهوى والمعصية رياح عاصفة تُطفئ ذلك النور أو تكاد، ولا بد أن تضعفه.

وشهدت شيخ الإسلام ـ قدس الله روحه ـ إذا أعيته المسائل واستصعبت عليه؛ فرّ منها إلى التوبة والاستغفار، والاستغاثة بالله، واللجأ اليه، واستنزال الصواب من عنده، والاستفتاح من خزائن رحمته، فقلّما يلبث المدد الإلهي أن يتتابع عليه مدًّا، وتزدلف الفتوحات الإلهية إليه بأيتهن يبدأ.

ولا ريب أن من وُفّق لهذا الافتقار علمًا وحالًا، وسار قلبُه في ميادينه بحقيقة وقصد؛ فقد أُعطى حظّه من التوفيق، ومن حُرمه فقد مُنع الطريق والرفيق. فمتى أُعين مع هذا الافتقار ببذل الجهد في درك الحق؛ فقد سُلِكَ به الصراط المستقيم، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم»(١).

وتأمّل قصة موسى عليه السلام مع الخضر، وما فيها من أبواب العلوم

---

(١) إعلام الموقعين (٤/ ١٧٣).



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ومن أخصها افتقار العالم ـ مهم علا شأنه وارتفع كعبه ـ إلى علم الله وتوفيقه وتسديده.

وقد بوّب البخاريّ رحمه الله في صحيحه(١): باب ما يُستحب للعالِم إذا سُئل أيُّ الناس أعلم، فيكل العلم إلى الله.

وأسندَ حديثَ أبي بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ قال: «**قام موسى النبيّ خطيبًا في بني إسرائيل، فسُئل: أي الناس أعلم؟ فقال: أنا أعلم. فعَتب الله عليه إذ لم يردّ العلم إليه، فأوحى الله إليه: أن عبدًا من عبادي بمجمع البحرين هو أعلم منك. قال: يا رب وكيف به. فقيل له: احمل حوتًا في مكتل، فإذا فقدته فهو ثمّ(٢) فانطلق، وانطلق بفتاه يوشع بن نون، وحملا حوتًا في مكتل، حتى كانا عند الصخرة، وضعا رؤوسهما وناما فانسل الحوت من المكتل فاتخذ سبيله في البحر سربًا، وكان لموسى وفتاه عجبًا. فانطلقا بقية ليلتهما ويومهما، فلمّا أصبح، قال موسى لفتاه: آتنا غداءنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصبًا، ولم يجد موسى مسًّا من النَّصَب حتى جاوز المكان الذي أُمر به،**

---

(١) ومن افتقار أبي عبد الله البخاري رَحِمَهُٱللَّهُ ما نقله الحافظ ابن حجر في مقدمة الفتح (ص:٧): عن الحافظ أبي ذر الهروي: «سمعت أبا الهيثم محمد بن مكي الكشميهني يقول: سمعت محمد بن يوسف الفربري يقول: قال البخاري: ما كتبت في كتاب (الصحيح) حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين» استعانة واستهداءً وافتقارًا.

(٢) أي: هناك.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقال له فتاه: أرأيت إذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، قال موسى: ذلك ما كنا نبغي، فارتدا على آثارهما قصصًا، فلما انتهيا إلى الصخرة، إذا رجل مُسجّى بثوب (أو قال: تسجّى بثوبه) فسلّم موسى، فقال الخضر: وأنّى بأرضك السلام[١] فقال: أنا موسى، فقال: موسى بني إسرائيل؟ قال: نعم، قال: هل أتبعك على أن تعلّمني مما عُلمت رشدًا؟ قال: إنك لن تستطيع معي صبرًا، يا موسى إني على علم من علم الله علّمنيه لا تعلمه أنت، وأنت على علم علمكه لا أعلمه. قال: ستجدني إن شاء الله صابرًا ولا أعصي لك أمرًا.

فانطلقا يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينةٌ فمرّت بهما سفينة، فكلّموهم أن يحملوهما، فعرف الخضر، فحملوهما بغير نَولٍ[٢] فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر، فقال الخضر: يا موسى ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا كنقرة هذا العصفور في البحر. فعمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فنزعه، فقال موسى: قومٌ حملونا بغير نَول، عمدتَ إلى سفينتهم فخرقتها لتغرق أهلها؟! قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبرًا؟ قال: لا تؤاخذني بما نسيتُ، فكانت الأولى من موسى نسيانًا.

فانطلقا، فإذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه من أعلاه فاقتلع رأسَه بيده، فقال موسى: أقتلتَ نفسًا زكيةً بغير نفس؟! قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبرًا؟!

---

(١) تعجّبًا من وجود من يُسلّم عليه في ذلك المكان.

(٢) أي: بلا أجرة.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها، فأبوا أن يضيّفوهما، فوجدا فيها جدارًا يُريد أن ينقض فأقامه، قال الخضر بيده فأقامه، فقال له موسى: لو شئتَ لاتّخذتَ عليه أجرًا. قال: هذا فراقُ بيني وبينك».

قال النبي ﷺ: **«يرحم الله موسى، لوددنا لو صبر حتى يقصّ علينا من أمرهما»**(١).

ومن لم يكن له من ربه عاصم توفيق وحارس هدى هجمت عليه عاديات الضلال ولا بدّ، واعتبر ذلك بفحول الأذكياء وأكابر أهل العلوم لما رفع الله عنهم توفيقه طاشت بهم الأحلام وضاعت بهم الفهوم ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ [الأحقاف: ٢٦] وكما قال الأول:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى ... فأول ما يجني عليه اجتهادُهُ

وقلّب أسفار ذوي الابتداع وقف عند نهاياتهم طرحى في مهامه الحيرة وصرعى على شواطئ الندم! كما قال ابن رشد الحفيد - وهو من أعلم الناس بمذاهب الفلاسفة ومقالاتهم - في كتابه «تهافت التهافت»: «ومن الذي قال في الإلهيات شيئا يُعتدّ به؟»، وكذلك الآمدي - وهو من أذكى أهل زمانه - وقف في المسائل الكبار حائرًا مضطربًا، وكذلك الغزالي حيث انتهى آخر أمره إلى الوقف والحيرة في المسائل الكلامية، ثم أعرض عنها للطرقية ودقائقهم

---

(١) أخرجه البخاري في كتاب العلم: باب ما يستحب للعالم إذا سئل أي الناس أعلم فيكل العلم إلى الله، ومسلم (٢٣٨٠).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وخيالاتهم، ثم أعرض عن تلك الطرق وأقبل على أحاديث الرسول ﷺ، فمات وصحيح البخاري على صدره. وكذلك محمد بن عمر الرازي، قال في كتابه الذي صنفه في أقسام اللذات:

نهايةُ إقدام العقول عقالُ ... وغايةُ سعيِ العالمين ضلالُ
وأرواحنا في وحشة من جسومنا ... وحاصل دنيانا أذى ووبالُ
ولم نستفد من بحثنا طول عمرنا ... سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا
فكم قد رأينا من رجال ودولة ... فبادوا جميعًا مسرعين وزالوا
وكم من جبال قد علت شرفاتها ... رجالٌ فزالوا والجبال جبالُ

ثم قال: «لقد تأملت الطرق الكلامية، والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عليلًا، ولا تروي غليلًا، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن، اقرأ في الإثبات: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾ [طه: ٥]، ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠]، واقرأ في النفي: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلۡمٗا﴾ [طه: ١١٠] ثم قال: ومن جرّب مثل تجربتي؛ عرف مثل معرفتي».

وكذلك قال محمد بن عبد الكريم الشهرستاني نادمًا على سلوكه طرائق المبتدعة من الفلاسفة وأهل الكلام، حائرًا:

لعمري لقد طفتُ المعاهد كلّها ... وسيّرت طرْفي بين تلك المعالمِ
فلم أر إلا واضعًا كفّ حائرٍ ... على ذقن أو قارعًا سنّ نادمِ

وكذلك قال أبو المعالي الجويني: «يا أصحابنا لا تشتغلوا بالكلام، فلو عرفتُ أن الكلام يبلغ بي إلى ما بلغ ما اشتغلت به». وقال عند موته: «لقد خُضت البحر الخضم، وخلّيت أهل الإسلام وعلومهم[١]، ودخلت في الذي نهوني عنه[٢]، والآن؛ فإن لم يتداركني ربي برحمته فالويل لابن الجويني، وها أنا ذا أموت على عقيدة أمي. أو قال: على عقيدة عجائز نيسابور». ويقصد الفطرة الأولى التي لم تلوثها تهوّكات المتكلمين وأغلوطات الفلاسفة.

وكذلك قال شمس الدين الخسرو شاهي ـ وكان من أجل تلامذة فخر الدين الرازي ـ لبعض الفضلاء، وقد دخل عليه يومًا، فقال: ما تعتقد؟ قال: ما يعتقده المسلمون. فقال: وأنت منشرح الصدر لذلك مستيقن به؟ فقال: نعم، فقال: «اشكرِ الله على هذه النعمة، لكنّي والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد، والله ما أدري ما أعتقد!» وبكى حتى أخضل لحيته.

ذلك أن الشبهات تضعف اليقين في المُعتَقَد، فالقلوب ضعيفة والشبه خطّافة، فإن أزالها الله بالعلم المتلقى عن نبيه ﷺ من الكتاب والسنة وإلا تقطّع القلب بين شُعب الضلال! ولابن أبي الحديد الفاضل المشهور بالعراق:

فيكِ يا أغلوطة الفكر حار أمري وانقضى عمري
سافرت فيك العقول فما ربحت إلا أذى السفر

(١) أي: القرآن والسنة وآثار السلف الصالح.

(٢) أي: من علم الكلام المذموم.

فلحـــــى الله الألى زعمـــــوا أنـــك المعـــروف بـــالنظر[1]
كـــذبوا إن الـــذي ذكـــروا خـــارج عـــن قـــوة البـــشر

وهو يصف حاله وحال أشباهه الحيارى، أما الموفقون المهتدون فقد أثلج برد اليقين صدورهم وسكّن نفوسهم وأروى عطش لهفهم، هم كما قال ربهم: ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهۡدِيَهُۥ يَشۡرَحۡ صَدۡرَهُۥ لِلۡإِسۡلَٰمِۖ وَمَن يُرِدۡ أَن يُضِلَّهُۥ يَجۡعَلۡ صَدۡرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجٗا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

وقال الخوفجي عند موته: «ما عرفت مما حصّلته شيئًا سوى أن الممكن يفتقر إلى المرجح. ثم قال: الافتقار وصف سلبي! أموتُ وما عرفت شيئًا!».

وقال آخر: «أضطجعُ على فراشي، وأضع الملحفة على وجهي، وأقابل بين حجج هؤلاء وهؤلاء حتى يطلع الفجر، ولم يترجح عندي منها شيء». ويقصد حجج المبتدعة في مقابل بعضها، فما من باطل لدى طائفة منهم إلا وقد شِيب ببعض الحق ليروج، حتى ينقسم الحق مِزَعًا بين الطوائف، فيرى هؤلاء طرفًا منه، ويرون معه باطلًا وغثاءً كثيرًا، فيضغطون على أنفسهم لقبوله جملة واحتمال ما أبَته فطرُهم ونبتْ عنه عقولهم، لكنهم بدلًا من الاشتغال بتكميل الحق لديهم شُغلوا بهدم ما لدى غيرهم من حق وباطل، حتى إذا ناداهم منادي الرحيل تأملّوا حينذاك صفقتهم فإذ هم لم يقبضوا سوى الريح!

(١) ينعى على المتكلمين الذين أوجبوا معرفة الله عن طريق مقدماتهم الطويلة العقيمة التي ما أنزل الله بها من سلطان.

شـــبه تهافـــت كالزجـــاج تخالهـــا حقًّـــا وكـــلٌّ كـــاسرٌ مكســـورُ

عياذًا واستغاثة بالله واستجارة به من مضلات الفتن.

ومن وصل لمثل هذا الحال إن لم يتداركه الله برحمته فقد يتزندق، كما قال أبو يوسف رحمه الله: «من طلب الدين بالكلام تزندق، ومن طلب المال بالكيمياء أفلس، ومن طلب غريب الحديث كذب». وقال الإمام الشافعي رحمه الله: «حُكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في القبائل والعشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأقبل على الكلام». وقال: «لقد اطّلعت من أهل الكلام على شيء ما ظننت مسلمًا يقوله، ولأن يبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه - ما خلا الشرك بالله - خير له من أن يبتلى بالكلام» لأن كثيرًا من اللوازم الكلامية مفضية عند الأخذ بها لمسبّة الله تعالى والقدح فيه وتعطيله من صفات كماله وهذا غاية الضلال والشناعة.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْأَيَٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الأنعام: ٥٥] وقال: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِۦ جَهَنَّمَ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥] والله تعالى قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصّلة وسبيل المجرمين مفصّلة، وعاقبة هؤلاء مفصّلة وعاقبة هؤلاء مفصّلة، وأعمال هؤلاء وأعمال هؤلاء، وأولياء هؤلاء وأولياء هؤلاء، وخذلانه لهؤلاء وتوفيقه لهؤلاء، والأسباب التي وَفَّقَ بها هؤلاء والأسباب التي خَذَل بها هؤلاء. وجلَّى سبحانه الأمرين في كتابه، وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما

www.alukah.net
شبكة الألوكة

البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

فالعالمون بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيليّة، وسبيلَ المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق، وأنفعهم للناس، وأنصحهم لهم، وهم الأدلاء الهداة.

برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الظلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصّلة، ثم جاءهم الرسول ﷺ فأخرجهم من تلك الظلمات الى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر. فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به ومقدار ما كانوا فيه، فإن الضدَّ يظهر حسنَه الضّدُّ، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونُفرةً وبغضًا لما انتقلوا عنه. وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والاسلام، وأبغض الناس في ضدّه، عالمين بالسبيل على التفصيل.

وأما من جاء بعد الصحابة فمنهم من نشأ في الإسلام غير عالم تفصيل ضده، فالتبست عليه بعض تفاصيل سبيل المؤمنين بسبيل المجرمين. فإن اللبس إنما يقع إذا ضعف العلم بالسبيلين أو أحدهما، كما قال عمر بن الخطاب: «إنما تُنقض عُرَى الإسلام عروة عروة؛ إذا نشأ في الإسلام من لم

يعرف الجاهلية». وهذا من كمال علم عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ، فإنه إذا لم يعرف الجاهلية وحكمها ـ وهو كل ما خالف ما جاء به الرسول ﷺ فإنه من الجاهلية، فإنها منسوبة إلى الجهل، وكل ما خالف الرسول ﷺ فهو من الجهل ـ فمن لم يعرف سبيل المجرمين ولم تستبن له؛ أوشَكَ أن يظن في بعض سبيلهم أنها من سبيل المؤمنين.

كما وقع في هذه الأمة من أمور كثيرة في باب الاعتقاد والعلم والعمل هي من سبيل المجرمين والكفار وأعداء الرسل، أدخلها من لم يَعرف أنها من سبيلهم في سبيل المؤمنين، ودعا إليها وكفّر من خالفها، واستحلّ منه ما حرمه الله ورسوله، كما وقع لأكثر أهل البدع من الجهمية والقدرية والخوارج والروافض وأشباههم ممن ابتدع بدعة ودعا إليها وكفّر من خالفها(١).

والناس في هذا الموضع أربع فرق:

الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علمًا وعملًا(٢)، وهؤلاء أعلم الخلق.

الفرقة الثانية: من عميت عن معرفة السبيلين من أشباه الأنعام، وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر، ولها أسلك.

---

(١) أما أهل السنة فهم أرحم الناس بالناس، وأعذرهم لهم، وأنصحهم وأرفقهم بهم.

(٢) فلم يكتفوا بالتنظير عن التطبيق، ولا بالتطبيق عن حسن الاتّباع، بل هم هدًى يمشي على رِجْلين.

شبكة الألوكة
www.alukah.net

الفرقة الثالثة: من صَرفَ عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدّها، فهو يعرف ضدّها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم يتصوّره على التفصيل، بل اذا سمع شيئًا مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه. وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى فانهم يعرفونها، وتميل إليها نفوسهم، ويجاهدونها على تركها لله(١).

(١) ثَمّ محددات لوزن المسألة:
أوّلًا: الحق كثير، والعلم غزير، ولو صرف المؤمن عمره في تحصيله لم يحط به.
ثانيًا: على قدر سيره في الباطل ـ ولو لأجل إحسان تصوّره لأجل دحضه ـ فلا بد أن يؤثر ذلك على حظ وقته من نفيس العلم الصحيح دون الدخيل الزائف. وهذا من جهة الوقت وصرف العمر.
ثالثًا: أن طرق الباطل للقلب مؤذن بقسوة ويجد هذا من عانى سبل أهل الضلال ولو للرد عليهم وكشف شبهاتهم، بخلاف من سبح بقلبه وفكره في بحور الحق الصافية.
رابعًا: أن شُعب الباطل لا تنتهي، ولا تقف عند حدّ مانع جامع، فهي قُلّبٌ خاتلة متجددة، ومهما تتبعها محاربها وأزهقها فلا بد لرأسها من طلوع في مكان وزمان آخر، فهذه من سنن الله تعالى التي لا تتبدل ولا تتحوّل، واعتبر ذلك بما جاءت به المرسلين وبأضداده.
خامسًا: السلامة لا يعدلها شيء، والعافية غاية كل ناصح لنفسه، ويخشى على القلب إن خاض الباطل ولو لقصد حسن من خذلان أو ضعف أو عجز، فماله وللمخاطرة =

وقد كتبوا الى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسالة: أيّما أفضل رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب

=

بيقينه وإيمانه وصفاء قلبه وزكاء نفسه؟!

فهذه مرجحات للاكتفاء بالحق والاشتغال به كمًّا وكيفًا، وللرأي الآخر مرجّحاته كذلك، فمنها:

أولًا: أن تتبع الباطل لحربه وكشفه وإزهاقه هو من أنفس الجهاد وأعلى رُتَبه ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢] فهو وظيفة المرسلين، وكيف يجاهد الباطلَ من لم يعرف مطاعن قلبه ومكامن هتكه ومغامز ضلاله ومقاتل باطله ومهادم بنيانه؟! فلا يكفي أن تقول لمخالف الحق: إن الحق في كذا، بل بيّن له مواطن زيف باطله وفساد رأيه ومعتقده حتى يكون باطله الساقط من عينيه بمنزلة المعين لك على بناء الحق في قلبه بإذن ربه. وتأمل طريقة القرآن في كشف زيوف المشركين وكيف أظهر عجز آلهتهم وبكمها وخرسها وموتها وفناءها وفقرها بتفصيل وبرهان وتكرار وتنويع.

ثانيًا: يعرف الشيء بضده، فمن عرف الباطل والضلال فهو له أبغضُ وبه أعلمُ، وهو للحق أحبّ وبحدوده أعلم، إذ الشعور يتبع العلم.

ولعل الصواب أن نقول: إن الجادّة القويمة هي الانشغال بالحق وتفاصيله، وعمارة العمر به دونما سواه، فمن احتاج لبيان باطل ومجاهدته فإنه يأخذ في تصوّره ودراسة مطاعنه على قدر الحاجة لكشفه دون ما زاد، كل ذلك إن غلب على ظنّه الأمن من دخول الشبهات على قلبه، وإلا فالنجاء والوحا. وكل ذلك مع تمام الافتقار واللجأ والانكسار والانطراح بين يدي من نواصي الخلائق بيده، ﴿يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [البقرة: ١٤٢] وبالله التوفيق.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

عمر: إن الذى تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عز وجل فهو من الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر عظيم.

وهكذا من عرف البدع والشرك والباطل وطرقه فأبغضها لله وحذرَها وحذّر منها، ودفعها عن نفسه ولم يدعها تخدش وجه إيمانه ولا تورثه شبهة ولا شكًّا، بل يزداد بمعرفتها بصيرة في الحق ومحبة له، وكراهة لها ونفرة عنها؛ أفضل ممن لا تخطر بباله ولا تمر بقلبه. فانه كلما مرّت بقلبه وتصوّرت له ازداد محبة للحق ومعرفة بقدره وسرورًا به، فيقوى إيمانُه به.

كما أن صاحب خواطر الشهوات والمعاصي كلّما مرّت به فرغب عنها إلى ضدّها ازداد محبةً لضدّها ورغبة فيه وطلبًا له وحرصًا عليه. فما ابتلى الله سبحانه عبدَه المؤمن بمحبة الشهوات والمعاصي وميل نفسه إليها إلا ليسوقه بها الى محبة ما هو أفضل منها، وأنفع له وأدوم، وليجاهد نفسه على تركها له سبحانه، فتورثه تلك المجاهدة الوصول الى المحبوب الأعلى، فكلما نازعته نفسه إلى تلك الشهوات واشتدت إرادته لها وشوقه إليها؛ صرَف ذلك الشوقَ والإرادة والمحبة إلى النوع العالي الدائم، فكان طلبه له أشدّ وحرصه عليه أتمّ. بخلاف النفس الباردة الخالية من ذلك، فإنها - وإن كانت طالبة للأعلى - لكن بين الطلبين فرق عظيم، ألا ترى أن من مشى الى محبوبة على الجمر والشوك أعظم ممن مشي إليه راكبًا على النجائب، فليس من آثر محبوبه مع منازعة نفسه كمن آثره مع عدم منازعتها إلى غيره.

فهو سبحانه يبتلي عبده بالشهوات إما حجابًا له عنه، أو حاجِبًا له يوصله



شبكة الألوكة - قسم الكتب

إلى رضاه وقربه وكرامته.

الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصّلة وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل، ولم يعرف ما جاء به الرسول ﷺ كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصّلت له في بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانًا. وكذلك من كان عارفًا بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكًا لها، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملًا غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود: ان الله سبحانه يحب أن تُعرَف سبيلُ أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يُحبّ أن تُعرفَ سبيلُ أوليائه لتحب وتسلك. وفى هذه المعرفة من الفوائد والأسرار مالا يعلمه الا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتضائها لآثارها وموجباتها، وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه»[(١)].

❊❊❊❊

(١) الفوائد (١/ ١٠٩- ١١١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

علامات الافتقار إلى الله تعالى

العطايا ليست بالدعاوى، فلكل دعوى صحيحة برهان صحيح، وما كلّ من ادّعى افتقارًا محمودًا صادق في دعواه، فعبادات القلوب هي محكّات البراهين ﴿بَلِ ٱلْإِنسَٰنُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ بَصِيرَةٌ﴾ [القيامة: ١٤] وللافتقار المحمود الصادق علامات(١)، منها:

الأولى: تحقيق العبودية لله سبحانه:

فالمؤمن يُسلم نفسه لربه منكسرًا بين يديه، متذللًا لعظمته، مقدمًا حبه سبحانه على كل حب. فالعبادة هي «الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة»(٢).

ومن كانت هذه حالُه؛ وجدته وقّافًا عند حدود الله، مقبلًا على طاعته، ملتزمًا بأمره ونهيه، فثمرة الذل أن لا يتقدم بين يدي الله وسوله مهتديًا بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزاب: ٣٦] وقوله: ﴿وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

---

(١) الافتقار إلى الله لُبُ العبودية، أحمد الصويان (٢١ - ٦٣) وبعض هذه العلامات ملخّصةٌ منه.

(٢) تفسير الطبري (١/ ١٥٥).

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ثانيًا: شكر الله وحمده:

فليقينه بأن لا رافع لفاقته إلا الله، ولا غنىً إلا من الله؛ فهو دائم الشكر له، متقلبًا في رياض الشكر، لا ينفك شاكرًا نِعَمَهُ وشاكرًا دفع نِقمه، وشاكرًا العافية في دينه ودنياه، وشاكرًا توفيقه للشكر الذي لولا فضل الشكور سبحانه لما وُفِّقَ عبده لشُكرانه. ممتثلًا مدائح الخليل الكريم ﷺ: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرًا لِّأَنْعُمِهِ﴾ [النحل: ١٢٠، ١٢١] سائلًا ربه المزيد من فضله والمزيد من توفيقه لشكره لعلمه بغنى ربه وسعة رحمته وعميم فضله ﴿مَّا يَفْعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنتُمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧] مازجًا شكره بصبره وصبره بشكره، قد أعدّ لكل نعمة شكرًا ولكل بليّة صبرًا كما قال ﷺ: «**عجبًا لأمر المؤمن أن أمره كله له خيرٌ، وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراءُ شكرَ فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراءُ صبر فكان خيرًا له**»[(١)].

ملازمًا الذكر بشكر وحمد وثناء، فعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال: «**من قال حين يصبح: اللّٰهم ما أصبح بي من نعمة أو بأحد من خلقك فمنك وحدك لا شريك لك، فلك الحمد ولك الشكر. فقد أدى شكر ذلك اليوم**»[(٢)].

---

(١) مسلم (٢٩٩٩).

(٢) موارد الظمآن إلى زوائد ابن حبان (٧/ ٣٨٩) وحسنه المحقق حسين أسد. وانظر: جامع الأصول (٤/ ٢٤٥، ٢٥٢).

حافظًا وصيّة رسول الله ﷺ وكنزه، فعن شداد بن أوس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت من رسول الله ﷺ يقول: «**إذا اكتنز الناس الدنانير والدراهم، فاكتنز هؤلاء الكلمات: اللّهم إني أسألك الثبات في الأمر، والعزيمة على الرشد، وأسألك شكر نعمتك، وحسن عبادتك. وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم، إنك أنت علام الغيوب**»(١).

وعن وهب بن منبه، قال: «قال داود: يا رب ابن آدم ليس منه شعرة إلا تحتها منك نعمة، وفوقها منك نعمة، فمن أين يكافيك بها أعطيته؟ قال: فأوحى الله إليه: «**يا داود إني أعطي الكثير وأرضى باليسير، وإن شكر ذلك لي أن يعلم أن ما به من نعمة مني**»(٢).

وعن طلحة، قال: «قيل من الذي يسمن في الخصب والجدب، ومن الذي يهزل في الخصب والجدب، ومن الذي هو أحلى من العسل ولا ينقطع؟ قال: أما الذي يسمن في الخصب والجدب، فالمؤمن الذي إن أعطي شكر، وإن ابتلي صبر، وأما الذي يهزل في الخصب والجدب، فالكافر أو الفاجر إن أعطي لم يشكر، وإن ابتلي لم يصبر، وأما الذي هو أحلى من العسل ولا ينقطع فهي ألفة الله التي ألف بين قلوب المؤمنين»(٣).

والمؤمن المفتقر لربه مسارع لشكر من أسداه معروفًا من الناس حتى لا

---

(١) رواه أحمد (٩٤٠٧) بسند حسن. وللحافظ ابن رجب رسالة لطيفة في شرحه.

(٢) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥١٧٢).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة (٣٥٥١١).



يبقى في قلبه لغير الله تعلق، ويعلم أن الله هو من يسر على أيديهم تلك النعمة والمعروف، وعن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «**لا يَشْكُرُ الله من لا يَشْكُرُ النَّاس**»(١).

ثالثًا: دوام ذكر ربه تعالى:

فلا يطمئن قلبه إلا بذكر ربه ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨] «ومن فُتح له فيه؛ فقد فتح له باب الدخول على الله عز وجل، فليتطهّر وليدخل على ربه عز وجل؛ يجد عنده كل ما يريد، فإن وجد ربه عز وجل؛ وجد كل شيء، وإن فاته ربه عز وجل؛ فاته كل شيء.

وفي القلب خلّة وفاقه لا يسدها شيء البته إلا ذكر الله عز وجل، فإذا صار شعار القلب بحيث يكون هو الذاكر بطريق الأصالة واللسان تبع له فهذا هو الذكر الذي يسدّ الخلّة ويغني الفاقة، فيكون صاحبه غنيًّا بلا مال، عزيزًا بلا عشيرة، مهيبًا بلا سلطان.

فإذا كان غافلا عن ذكر الله عز وجل؛ فهو بضد ذلك، فقير مع كثرة جِدَتِه، ذليل مع سلطانه، حقير مع كثرة عشيرته»(٢).

---

(١) سنن أبي داود (٤٨١١) وصححه الأرنؤوط.

(٢) الوابل الصيب لابن القيم (١٣٨ – ١٣٨).

رابعًا: التواضع للحق والخلق:

فلا يردُّ حقًّا استبان له ولا يبطره، ولا يحتقر مخلوقًا حتى وإن رأت نفسه القاصرة فضلًا لها عليه، فالعبرة بالمخابر أولًا لا المظاهر، ثم بالخواتيم، وما أدراك ما الخواتيم!

وكيف للمفتقر لربه أن يرى لنفسه علوًّا في الأرض وهو يُرتل قول الحق الكبير المتعال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣] ويسمع قول رسول الهدى ﷺ واصفًا عظمة ربه سبحانه: «**قال اللهُ تبارك وتعالى: الكبرياءُ ردائي، والعظمةُ إزاري، فمن نازعني واحدًا منهما قذفتُه في النَّارِ**»(١).

خامسًا: النزوع للتوبة والاستغفار، وعدم الإصرار على الخطايا:

المفتقر لربه تعالى يمتثل أمره إذ قال: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١] منتظرًا منشور البشارة ومرقوم الفرح في قول الرحيم التواب الغفور: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَى بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: ٨].

---

(١) رواه أبو داود أبي داود (٦/ ١٨٩) وصححه الأرنؤوط، ورواه أحمد (٧٣٨٢) وهو في «الزهد» لهناد (٨٢٥)، وأخرجه ابن ماجه (٤١٧٤).



والعبد الصالح إذا زلّت به القدم ـ ولا بد له من ذلك فكل بني آدم خطّاء ـ اتّصف بصفتين متلازمتين:

الأولى: سرعة الندم والرجوع إلى الله. كما قال الله تعالى في وصف عباده: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ١٣٥].

والثانية: عدم الاستهانة بالمعاصي. فلا يقترب من كبيرة ولا يصر على صغيرة مهما صغّرتها نفسه الأمّارة، بين عينيه قول رسوله ﷺ: **«إياكم ومحقرات الذنوب، فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا بعود، وجاء ذا بعود، حتى أنضجوا خبزتهم، وإن محقرات الذنوب متى يؤخذ بها صاحبُها تهلكه»**[(١)].

وقال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إن المؤمن يرى ذنوبه كأنه قاعد تحت جبل يخاف أن يقع عليه، وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب مرّ على أنفه فقال به هكذا»[(٢)] قال بن أبي جمرة: السبب في ذلك أن قلب المؤمن منوّر، فإذا رأى من نفسه ما يخالف ما ينوّر به قلبه عظم الأمر عليه. والحكمة في التمثيل بالجبل أن غيره من المهلكات قد يحصل التسبب إلى النجاة منه، بخلاف الجبل إذا سقط

(١) أحمد (٢٢٨٠٨) وصححه الأرنؤوط.

(٢) البخاري (٦٣٠٨).

على الشخص فلا ينجو منه عادة.

وحاصله أن المؤمن يغلب عليه الخوف لقوّة ما عنده من الإيمان، فلا يأمن العقوبة بسببها، وهذا شأن المسلم أنه دائم الخوف والمراقبة، يستصغر عمله الصالح، ويخشى من صغير عمله السيء.

وقوله: «وإن الفاجر يرى ذنوبه كذباب» أي ذنبه سهلٌ عنده، لا يعتقد أنه يحصل له بسببه كبير ضرر، كما أن ضرر الذباب عنده سهل، وكذا دفعه عنه.

قال المحب الطبري: «إنما كانت هذه صفة المؤمن لشدة خوفه من الله ومن عقوبته، لأنه على يقين من الذنب، وليس على يقين من المغفرة. والفاجر قليل المعرفة بالله، فلذلك قلّ خوفه واستهان بالمعصية». وقال بن أبي جمرة: السبب في ذلك: «أن قلب الفاجر مظلم، فوقوع الذنب خفيف عنده، ولهذا تجد من يقع في المعصية إذا وُعِظ يقول: هذا سهل»[(١)].

فالمؤمن يحذر الآخرة ويخشى ثمار ذنوبه إن لم يسبغ عليه ربه رحمته وغفرانه، «ففي قلبه نار تلتهب، وفي كبده صدع لا ينشعب»[(٢)] ينتقل من منزل توبة لمنزل أخرى، ومن توبة عامة لخاصة، ومن خاصة لعامة، فهو تواب مستغفر مسترحم، للتواب الغفور الرحيم.

---

(١) فتح الباري لابن حجر (١١/ ١٠٥).

(٢) إحياء علوم الدين (٤/٤).

سادسًا: الزهد في حطام الفانية، والمنافسة في نعيم الباقية:

فالمفتقر إلى ربه يعلم أن هناك دارًا قد ارتضاها الله لخُلّص عباده، وأن هذه الدنيا يعطيها من يحب ومن لا يحب، أما تلك النفيسة فلا يعطيها إلا أحبابه وأولياءه، فهو يمتثل بقلبه قول ربه تبارك وتعالى: ﴿ٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا لَعِبٞ وَلَهۡوٞ وَزِينَةٞ وَتَفَاخُرُۢ بَيۡنَكُمۡ وَتَكَاثُرٞ فِي ٱلۡأَمۡوَٰلِ وَٱلۡأَوۡلَٰدِۖ كَمَثَلِ غَيۡثٍ أَعۡجَبَ ٱلۡكُفَّارَ نَبَاتُهُۥ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَىٰهُ مُصۡفَرّٗا ثُمَّ يَكُونُ حُطَٰمٗاۖ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٞ شَدِيدٞ وَمَغۡفِرَةٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٞۚ وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَآ إِلَّا مَتَٰعُ ٱلۡغُرُورِ﴾ [الحديد: ٢٠].

فمن أوصاف المفتقر إلى الله: «أنه المتخلي من الدنيا تظرّفًا[(١)]، والمتجافي عنها تعفّفًا، لا يستغني بها تكثّرًا، ولا يستكثر منها تملّكًا. وإن كان مالكًا لها بهذا الشرط لم تضرّه، بل هو فقيرٌ غناه في فقره، وغنيٌّ فقره في غناه[(٢)].

وسئل الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هل يكون لدى الرجل مئة ألف ويكون زاهدًا في الدنيا؟ فقال: «نعم، إذا كانت في يده لا في قلبه».

سابعًا: محبة الخلوة بربة ونجواه والأنس به:

فهو بالله ولله وفي الله، يعلم أن الخلائق حُجبٌ عن ربه إلا ما كان لله وفي الله. فهو دائم اللهج بذكر ربه بقلبه قبل لسانه، لا يكاد ينفك عن مناجاته والأنس به والتلذذ بالتقرب إليه بالصالحات، يسابق عمره بعمله، وبذكره

---

(١) أي: ما زاد منها عن حاجته.

(٢) طريق الهجرتين (١/١٠٥).

أنفاسه، ويبادر أجله بالاستعداد لما بعده، ويملأ صدره بالسرور والفرح والغبطة بأن خصّه الله بمعرفته والأنس به، ويسأل الله المزيد من جوده وإحسانه.

ثامنًا: التعلّق بالله تعالى وبمحبوباته:

فلا ينقطع حبل صلته بربّة، فنياط فؤاده قد عُلّقت في الملأ الأعلى، فهو مع الناس بجسمه ومع الملائكة المسبحين بروحه، قد ارتفعت روحه من ثَقْلَةِ الطين وجذب الجسد لنور الملأ الأعلى، فروحه تجول بين السماوات مسبحة حامدة مصلية شاكرة. يعلم أنه في الدنيا للمهلة، وفي ساعاتها للابتلاء، موقن بوعد ربه للمتقين أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فهو في فرح بفضل الله ورجاء لما في يديه من فضله، وخوف وإشفاق من ذنوبه وسيئاته. ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٦٢﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَكَانُوا۟ يَتَّقُونَ ﴿٦٣﴾ لَهُمُ ٱلْبُشْرَىٰ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ [يونس: ٦٢ - ٦٤] نسأل الله الكريم من فضله[(١)].

قال بعض الصالحين: «مفاوز الدنيا تقطع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تقطع بالقلوب»[(٢)] والمؤمن لا تلهيه تجارة ولا بيع عن ذكر الله، وهو برٌّ متعلق بالبرّ الحق سبحانه يبحث عن البِرِّ في مظانّه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ

---

(١) وقد سبق الكلام عن الأنس بالله والتعلق به في كتب سابقة.

(٢) شذرات الذهب (٢/٣٢٦).

وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴾ [البقرة: ١٧٧].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «**سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله..** » وذكر منهم: «**رجل معلّق قلبه بالمساجد**»(١) قال الحافظ ابن حجر: «إشارة إلى طول الملازمة بقلبه وإن كان جسده خارجًا عنه»(٢).

تاسعًا: الوجل من عدم قبول العمل:

فهو مع اجتهاده مشفق من رد أعماله، فعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية: ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْتُونَ مَآ ءَاتَوا۟ وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ ﴾ [المؤمنون: ٦٠] أهُم الذين يشربون الخمر ويسرقون؟ قال: «**لا يا ابنة الصدّيق، ولكنهم الذين يصومون ويصلّون ويتصدّقون، وهم يخافون أن لا يُقبل منهم، أولئك الذين يسارعون في الخيرات**»(٣).

وحينما احتضرت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا عادها ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وبشّرها بصالح

---

(١) البخاري (٢/١٤٣) ومسلم (٦٦٠).

(٢) الفتح (٢/١٤٥).

(٣) أحمد (٢٥٢٦٣) والترمذي (٣١٧٥) وابن ماجه (٤١٩٨) وصححه الألباني في السلسلة (١٦٢).

أعمالها فقالت: «دعني منك يا ابن عباس، والذي نفسي بيده لوددتُ أني كنت نسيًا منسيّا»(١). وهذا لعظمة علمها بالله تعالى وخشيتها وورعها وتواضعها، وإلا فهي تعلم أنها زوجة رسول الله ﷺ في الجنة.

قال الحافظ ابن حجر معلّقًا على قولها: «هو على عادة أهل الورع في شدّة الخوف على أنفسهم»(٢).

وتتأكد حقيقة الوجل من رد الأعمال بأربعة أمور:

الأول: أن الله عز وجل غني عن طاعات العباد.

قال تعالى: ﴿وَمَن يَشۡكُرۡ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٞ﴾ [لقمان: ١٢] وقال سبحانه: ﴿إِن تَكۡفُرُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمۡۖ وَلَا يَرۡضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلۡكُفۡرَۖ وَإِن تَشۡكُرُواْ يَرۡضَهُ لَكُمۡ﴾ [الزمر: ٧] وقال سبحانه: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشۡكُرُ لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيّٞ كَرِيمٞ﴾ [النمل: ٤٠]

الثاني: أن القبول هو محض فضل الله ورحمته.

ولهذا قال رسول الله ﷺ: «**والله لا أدري وأنا رسول الله ما يُفعل بي ولا بكم**»(٣).

---

(١) أحمد (٢٤٩٦) وقوى إسناده المحقق، ورواه مختصرًا البخاري (٤٧٥٣).

(٢) فتح الباري (٨/ ٤٨٤).

(٣) البخاري (٧٠١٨) والمراد: أي على التفصيل له، أما الإجمال بالنجاة والسعادة فقطعي له، ولبعض من علِم من أمته.

فإذا كان هذا حال سيد ولد آدم ﷺ، فكيف بغيره من الناس؟!

وقال ﷺ: **«لن يُنجي أحدًا منكم عملُه»** قالوا: ولا انت يا رسول الله؟ قال: **«ولا أنا، إلا أن يتغمدني الله برحمته»**(١).

وقد كان الصحابة يخشون على أنفسهم النفاق. قال الجعد أبو عثمان: قلت لأبي رجاء العطاردي: هل أدركت من أدركت من أصحاب رسول الله ﷺ يخشون النفاق؟ قال: **«نعم، إني بحمد الله قد أدركت منهم صدرًا حسنًا، نعم شديدًا، نعم شديدًا»**(٢).

الثالث: أن المنّة لله جميعًا.

قال تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

وفي الحديث الربّاني قال الله تعالى: **«يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدِكم»**(٣).

وعن المسور بن مخرمة قال: لما طُعن عمرُ جعل يألم، فقال له ابن عباس ـ وكأنه يُجَزِّعُه ـ(٤): يا أمير المؤمنين، ولئن كان ذاك؛ لقد صحبتَ رسولَ الله

(١) البخاري (٦٤٦٣) ومسلم (٢٨١٦).
(٢) أبو نعيم في الحلية (٢/٣٠٧).
(٣) مسلم (٢٥٧٧).
(٤) أي: يُزيل جزعه. فهي من ألفاظ الأضداد.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

ﷺ فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت أبا بكر فأحسنت صحبته، ثم فارقته وهو عنك راض، ثم صحبت صحبتهم فأحسنت صحبتهم، ولئن فارقتهم لتفارقنهم وهم عنك راضون. قال: «أما ما ذكرتَ من صحبة رسول الله ﷺ ورضاه؛ فإنما ذاك مَنٌّ مِنَ الله تعالى منَّ به عليَّ، وأما ما ذكرت من صحبة أبي بكر ورضاه؛ فإنما ذاك مَنٌّ مِنَ الله جل ذكره منَّ به عليّ، وأما ما ترى من جزعي؛ فهو من أجلك وأجل أصحابك[١]، والله لو أن لي طِلاعَ الأرض ذهبًا؛ لافتديت به من عذاب الله عز وجل قبل أن أراه»[٢].

الرابع: أن العبد لا يأمن على نفسه الفتنة.

فقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «**إنَّ قلوب بني آدم كلها بين أصبعين من أصابع الرحمن كقلب رجل واحد يصرّفه حيث يشاء**»[٣] ومن دعائه ﷺ: «**اللّهم مصرّف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك**»[٤].

وعن جبير بن نفير قال: دخلت على أبي الدرداء منزله بحمص، فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد فجعل يتعوذ بالله عز وجل من النفاق. فلما انصرف قلت له: غفر الله لك يا أبا الدرداء، ما أنت والنفاق؟! ما

---

(١) لأنه تولّى الخلافة ويخشى أن يكون قد قصّر في حقّها. وهذا من عظيم ورعه وخشيته وعلمه بالله تعالى.

(٢) البخاري (٣٦٩٢).

(٣) مسلم (٢٦٥٤).

(٤) مسلم (٢٦٥٤).



شبكة الألوكة - قسم الكتب

شأنك وما شأن النفاق؟! فقال: «اللّهم غُفْرًا ـ ثلاثًا ـ لا يأمن البلاءَ من يأمن البلاء، والله إن الرجل ليُفتن في ساعة واحدة فينقلب عن دينه»(١).

وقال مطرف الشخّير: «لأن أبيت نائمًا وأصبح نادمًا؛ أحب إلي من أبيت قائمًا فأصبح مُعجبًا»(٢). فوجلُ المذنبين التائبين أحب إلى الله تعالى من زجل المسبحين المُدلّين.

عاشرًا: خشية الله في السر والعلانية:

وهو من أجلّ وأجلى صفات أهل الإيمان، قال جل ذكره: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وقال: ﴿وَبَشِّرِ ٱلْمُخْبِتِينَ ﴿٣٤﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٣٤، ٣٥].

وخشيته سبحانه من أعظم آيات الافتقار والفاقة إليه سبحانه، وحالُه: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَـٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ سَاجِدًا وَقَآئِمًا يَحْذَرُ ٱلْـَٔاخِرَةَ وَيَرْجُوا۟ رَحْمَةَ رَبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٩] وقال سبحانه: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ ٱلْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦] فهو بين خوف ورجاء وحب لله تعالى.

وشرط الخشية الصادقة أن تكون بالغيب لأن القلب لا يتعلق إلا بالله، ولا يلتفت إلى ما سواه، ويعلم أنه يعلم السر والنجوى، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ

---

(١) صفة النفاق وذم المنافقين للفريابي ص (٦٩) رقم (٧٤) وصحح المحقق إسناده.

(٢) الزهد لابن المبارك (١٥١).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ [الملك: ١٢] وقال: ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٩] وقال: ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ غَيۡرَ بَعِيدٍ ٣١ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٖ ٣٢ مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ وَجَآءَ بِقَلۡبٖ مُّنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣] فربط الخشية بالغيب تنبيه إلى شهود العبد مراقبة ربه جل وعلا، وأنه يخافه بالغيب كما يخشاه في الشهادة، وليس ممن إذا خلا بمحارم الله انتهكها!

وقال ﷺ: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله.. »** وذكر منهم: **«ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**(١).

وكان علي بن الحسين رحمه الله ورضي عن أبيه يُبَخَّلُ، فلما مات وجدوا أنه يعول أهلَ مئة بيت في المدينة، **«ورجل تصدّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه»**. فعلموا أنه من أهل الصدقات العظيمة في السرّ.

وفي حديث الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة قال العفيف عن الفاحشة وقد تمكن منها: «فإن كنت تعلم أني فعلت ذلك من خشيتك ففرّج

---

(١) البخاري (٦٦٠) ومسلم (١٠٣١) وهو بتمامه: **«سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله: الإمام العادل، وشاب نشأ في عبادة ربه، ورجل قلبه معلق في المساجد، ورجلان تحابّا في الله اجتمعا عليه وتفرّقا عليه، ورجل طلبته امرأة ذات منصب وجمال، فقال: إني أخاف الله، ورجل تصدّق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليًا ففاضت عيناه»**. والسياق للبخاري. وانقلبت جملة **«حتى لا تعلم.. »** عند مسلم، فوقعت هكذا: **«حتى لا تعلم يمينه ما تنفق شماله»**.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

عنّا»[١] فالخشية سوط يذود به المؤمن قلبه عن مواطن الهلكة وأودية الردى.

وقال عبيد الله بن جعفر: «ما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله»[٢].

الحادية عشرة: تعظيم الأمر والنهي:

فغاية العبودية: التسليم والانقياد للآمر الناهي محبة وتذلّلًا، قال سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ﴾ [الحج: ٣٠] وقال: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج: ٣٢].

قال ابن القيم رحمه الله: «استقامة القلب بشيئين:

أحدهما: أن تكون محبة الله تعالى تتقدم عنده على جميع المحاب، فإذا تعارض حب تعالى الله وحب غيره سبق حب الله تعالى حب ما سواه، فرتّب على ذلك مقتضاه.

وما أسهل هذا بالدعوى وما أصعبه بالفعل، فعند الامتحان يكرم المرء أو يهان. وما أكثر ما يُقدّم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره وأميره وشيخه وأهله على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحابّ، ولا كانت هي الملكة المؤمرة عليها.

---

(١) البخاري (٣٤٦٥).

(٢) سير أعلام النبلاء (٦/٩).

وسنّةُ الله تعالى فيمن هذا شأنه أن يُنكّد عليه محابّه(١)، وينغصها عليه، ولا ينال شيئًا منها إلا بنكد وتنغيص، جزاء له على إيثار هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى.

وقد قضى الله تعالى قضاء لا يرد ولا يدفع أن من أحب شيئًا سواه عُذِّب به ولا بدّ، وأن من خاف غيره سلُّط عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤمًا عليه، ومن آثر غيره عليه لم يبارك فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد.

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي، وهو ناشئ عن تعظيم الآمر الناهي، فإن الله تعالى ذمّ من لا يُعظم أمره ونهيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣] قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون لله تعالى عظمة. وما أحسن ما قال شيخ الاسلام في تعظيم الأمر والنهي: «هو أن لا يُعارَضا بترخّص جافٍ، ولا يُعرّضا لتشديد غالٍ، ولا يُحملا على علّة تُوهن الانقياد».

ومعنى كلامه: أن أول مراتب تعظيم الحق عز وجل تعظيم أمره ونهيه، فالمؤمن يعرف ربه عز وجل برسالته التي أرسل بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى كافة الناس، ومقتضاها الانقياد لأمره ونهيه. وإنما يكون ذلك بتعظيم أمر الله عز وجل واتّباعه، وتعظيم نهيه واجتنابه، فيكون تعظيم المؤمن

(١) ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: ٤]، فنعيم الدنيا منغص لأجل ألا يركن إليها المؤمن. ومن عصى الله تعالى لأجل مخلوق نغّص الله تعالى عليه ذلك المخلوق وأفسده عليه جزاءً وفاقًا. ومن أحب غير الله عُذب به.



لأمر الله تعالى ونهيه دالًّا على تعظيمه لصاحب الأمر والنهي، ويكون بحسب هذا التعظيم من الأبرار المشهود لهم بالإيمان والصدق وصحة العقيدة والبراءة من النفاق الأكبر، فإن الرجل قد يتعاطى فعل الأمر لنظر الخلق وطلب المنزلة والجاه عندهم، ويتقي المناهي خشية سقوطه من أعينهم وخشية العقوبات الدنيوية من الحدود التي رتبها الشارع ﷺ على المناهي، فهذا ليس فعله وتركه صادرًا عن تعظيم الأمر والنهي ولا تعظيم الآمر والناهي.

فعلامة التعظيم للأوامر رعاية أوقاتها وحدودها، والتفتيش على أركانها وواجباتها وكمالها، والحرص على تحيّنها في أوقاتها والمسارعة إليها عند وجوبها، والحزن والكآبة والأسف عند فوت حق من حقوقها، كمن يحزن على فوت الجماعة ويعلم أنه إن تُقُبّلت منه صلاته منفردًا فإنه قد فاته سبعة وعشرون ضعفًا، ولو أن رجلًا يعاني البيع والشراء تفوته صفقة واحدة في بلده من غير سفر ولا مشقة قيمتها سبعة وعشرون دينارًا لأكل يديه ندمًا وأسفًا؛ فكيف وكُلُّ ضعف مما تضاعف به صلاة الجماعة خير من ألف وألف ألف وما شاء الله تعالى؟!

فإذا فوّت العبد عليه هذا الربح قطعًا، وهو باردُ القلب، فارغٌ من هذه المصيبة، غيرُ مرتاع لها؛ فهذا من ضعف تعظيم أمر الله تعالى في قلبه، وكذلك إذا فاته أول وقتها الذي هو رضوان الله تعالى، أو فاته الصفّ الأول الذي يصلي الله وملائكته على ميامنه، ولو يعلم العبد فضيلته لجالد عليه ولكانت قُرعةً، وكذلك فوّت الجمع الكثير الذي تضاعف الصلاة بكثرته وقلته، فكلما

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كثر الجمع كان أحب إلى الله عز وجل، وكلما بعدت الخُطا كانت خطوة تحط خطيئة وأخرى ترفع درجة، وكذلك فوّت الخشوع في الصلاة وحضور القلب فيها بين يدي الرب تبارك وتعالى الذي هو روحها ولبّها، فصلاة بلا خشوع ولا حضور كبدن ميت لا روح فيه، أفلا يستحي العبد أن يُهدي إلى مخلوق مثله عبدًا ميتًا أو جارية ميتة؟! فما ظنُّ هذا العبد أن تقع تلك الهدية ممن قصده بها من ملك أو من أمير أو غيره؟! فهكذا سواء الصلاة الخالية عن الخشوع والحضور وجمع الهمة على الله تعالى فيها بمنزلة هذا العبد. أو الأمة. الميت الذي يريد إهداءه إلى بعض الملوك، ولهذا لا يقبلها الله تعالى منه وإن أسقطت الفرض في أحكام الدنيا، ولا يثيبه عليها، فإنه ليس للعبد من صلاته إلا ما عقل منها كما في السنن ومسند الإمام أحمد وغيره عن النبي ﷺ إنه قال: «**إن العبد ليصلي الصلاة وما كتب له إلا نصفها إلا ثلثها إلا ربعها إلا خمسها حتى بلغ عشرها**»(١).

وينبغي أن يعلم أن سائر الأعمال تجري هذا المجرى، فتفاضل الأعمال عند الله تعالى بتفاضل ما في القلوب من الإيمان والإخلاص والمحبة وتوابعها، وهذا العمل الكامل هو الذي يكفر السيئات تكفيرًا كاملًا، والناقص بحسبه. وبهاتين القاعدتين تزول إشكالات كثيرة، وهما تفاضل الأعمال بتفاضل ما في القلوب من حقائق الإيمان وتكفير العمل للسيئات بحسب كماله ونقصانه.

وأما علامات تعظيم المناهي: فالحرص على التباعد من مظانّها وأسبابها

(١) مسند أبي يعلى (١٦٢٨) وحسنه الألباني في تخريج الإيمان لابن تيمية (١/ ٢٩).



وما يدعو إليها، ومجانبة كل وسيلة تقرب منها، كمن يهرب من الأماكن التي فيها الصور التي تقع بها الفتنة خشية الافتتان بها، وأن يدع ما لا بأس به حذرًا مما به بأس، وأن يجانب الفضول من المباحات خشية الوقوع في المكروه، ومجانبة من يجاهر بارتكابها ويحسّنها ويدعو إليها ويتهاون بها ولا يبالي ما ركب منها، فإن مخالطة مثل هذا داعية إلى سخط الله تعالى وغضبه، ولا يخالطه إلا من سقط من قلبه تعظيم الله تعالى وحرماته.

ومن علامات تعظيم النهي: أن يغضبَ للهِ عز وجل إذا انتُهكت محارمُه، وأن يجد في قلبه حزنًا وكسرة إذا عُصى اللهُ تعالى في أرضه.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يسترسل مع الرخصة إلى حد يكون صاحبه جافيًا غير مستقيم على المنهج الوسط. مثال ذلك: أن السنّة وردت بالإبراد بالظهر في شدة الحر، فالترخص الجافي أن يُبرِدَ إلى فوات الوقت أو مقاربة خروجه، فيكون مترخّصًا جافيًا، وحِكمة هذه الرخصة أنّ الصلاة في شدة الحر تمنع صاحبها من الخشوع والحضور، ويفعل العبادة بتكره وضجر، فمن حكمة الشارع ﷺ أن أمرهم بتأخيرها حتى ينكسر الحر، فيصلي العبد بقلب حاضر، ويحصل له مقصود الصلاة من الخشوع والإقبال على الله تعالى.

ومن هذا نهيه ﷺ أن يصليَ بحضرة الطعام أو عند مدافعة البول والغائط لتعلّق قلبه من ذلك بما يشوّش عليه مقصود الصلاة، ولا يحصل المراد منها. فمن فقه الرجل في عبادته أن يُقبل على شغله فيعمله، ثم يفرغ قلبه للصلاة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فيقوم فيها وقد فرغ قلبه لله تعالى ونصب وجهه له وأقبل بكليته عليه، فركعتان من هذه الصلاة يغفر للمصلي بهما ما تقدم من ذنبه.

والمقصود: أن لا يترخص ترخّصًا جافيًا، ومن ذلك أنه أرخص للمسافر في الجمع بين الصلاتين عند العذر، وتعذّر فعل كل صلاة في وقتها لمواصلة السير وتعذر النزول أو تعسيره عليه، فإذا قام في المنزل اليومين والثلاثة أو أقام اليوم فجمعُه بين الصلاتين لا مُوجب له لتمكّنه من فعل كل صلاة في وقتها من غير مشقة، فالجمع ليس سنّة راتبة كما يعتقد أكثر المسافرين أن سنة السفر الجمع سواء وجد عذر أو لم يوجد، بل الجمع رخصةٌ والقصر سنة راتبة، فسنة المسافر قصر الرباعية، سواء كان له عذر أو لم يكن، وأما جمعه بين الصلاتين فحاجة ورخصة، فهذا لونٌ وهذا لونٌ.

ومن هذا أن الشّبع في الأكل رخصة غير محرمة، فلا ينبغي أن يجفوَ العبدُ فيها حتى يصل به الشبع إلى حد التخمة والامتلاء، فيتطلب ما يصرف به الطعام، فيكون همّه بطنه قبل الأكل وبعده! بل ينبغي للعبد أن يجوع ويشبع، ويدع الطعام وهو يشتهيه، وميزان ذلك قول النبي صلى الله عليه وسلم: «**ثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**»(١) ولا يجعل الثلاثة الأثلاث

(١) خرّجه ابن ماجه بسنده عن المقدام بن معدي كرب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن، حسب الآدمي لقيمات يقمن صلبه، فإن غلبت الآدمي نفسه، فثلث للطعام، وثلث للشراب، وثلث للنفس**» سنن ابن ماجه (٣٣٤٩) وصححه الأرنؤوط بطرقه.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

كلها للطعام وحده.

وأما تعريض الأمر والنهي للتشديد الغالي فهو كمن يتوسوس في الوضوء متغاليًا فيه حتى يفوت الوقت. أو يُردّد تكبيرة الإحرام إلى أن تفوته مع الإمام قراءة الفاتحة، أو يكاد تفوته الركعة. أو يتشدد في الورع الغالي حتى لا يأكل شيئًا من طعام عامة المسلمين خشية دخول الشبهات عليه. ولقد دخل هذا الورع الفاسد على بعض العبّاد الذين نقص حظهم من العلم حتى امتنع أن يأكل شيئًا من بلاد الإسلام، وكان يتقوّت بما يحمل إليه من بلاد النصارى، ويبعث بالقصد لتحصيل ذلك! فأوقعه الجهل المفرط والغلو الزائد في إساءة الظن بالمسلمين وحسن الظن بالنصارى، نعوذ بالله من الخذلان.

فحقيقة التعظيم للأمر والنهي أن لا يُعارضا بترخّص جافٍ، ولا يعرّضا لتشديد غالٍ، فإن المقصود هو الصراط المستقيم الموصل إلى الله عز وجل بسالكه.

وما أمر الله عز وجل بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما تقصير وتفريط، وإما افراط وغلو، فلا يبالي بما ظفر من العبد من الخطيئتين، فإنه يأتي إلى قلب العبد، فإن وجد فيه فتورًا وتوانيًا وترخيصًا؛ أخذه من هذه الخطة فثبّطه وأقعده وضربه بالكسل والتواني والفتور، وفتح له باب التأويلات والرجاء وغير ذلك، حتى ربما ترك العبد المأمور جملة.

وإن وجد عنده حذرًا وجدًّا وتشميرًا ونهضة وأيس أن يأخذه من هذا الباب؛ أمره بالاجتهاد الزائد، وسوّل له أن هذا لا يكفيك، وهمّتك فوق هذا،

وينبغي لك أن تزيد على العامِلين، وأن لا ترقد إذا رقدوا، ولا تفطر إذا أفطروا، وأن لا تفتر إذا فتروا، وإذا غسل أحدهم يديه ووجهه ثلاث مرات فاغسل أنت سبعًا، وإذا توضؤوا للصلاة فاغتسل أنت لها، ونحو ذلك من الإفراط والتعدّي. فيحمله على الغلوّ والمجاوزة وتعدي الصراط المستقيم، كما يحمل الأول على التقصير دونه.

ومقصوده من الرجلين إخراجهما عن الصراط المسقيم: هذا بأن لا يقربه ولا يدنو منه، وهذا بأن يجاوزه ويتعداه. وقد فُتن بهذا أكثر الخلق، ولا ينجي من ذلك إلا علم راسخ، وإيمان، وقوة على محاربته، ولزوم الوسط. والله المستعان.

ومن علامات تعظيم الأمر والنهي: أن لا يحمل الأمر على علة تضعف الانقياد والتسليم لأمر الله عز وجل، بل يسلّم لأمر الله تعالى وحُكمه ممتثلًا ما أمر به، سواء ظهرت له حكمته أو لم تظهر. فإن ظهرت له حكمة الشرع في أمره ونهيه حمله ذلك على مزيد الانقياد والتسليم، ولا يحمله ذلك على الانسلاخ منه وتركه، كما حمل ذلك كثيرًا من زنادقة الفقراء والمنتسبين إلى التصوف، فإن الله عز وجل شرع الصلوات الخمس إقامة لذكره، واستعمالًا للقلب والجوارح واللسان في العبودية، وإعطاء كل منها قسطه من العبودية التي هي المقصود بخلق العبد، فوضعت الصلاة على أكمل مراتب العبودية.

فإن الله سبحانه وتعالى خلق هذا الآدمي واختاره من بين سائر البرية، وجعل قلبه محلّ كنوزه من الإيمان والتوحيد والاخلاص والمحبة والحياء



والتعظيم والمراقبة، وجعل ثوابه إذا قدم عليه أكمل الثواب وأفضله، وهو النظر إلى وجهه والفوز برضوانه ومجاورته في جنته.

وكان مع ذلك قد ابتلاه بالشهوة والغضب والغفلة، وابتلاه بعدوه إبليس لا يفتر عنه، فهو يدخل عليه من الأبواب التي هي من نفسه وطبعه، فتميل نفسه معه لأنه يدخل عليها بما تحب.

فاقتضت رحمة ربه العزيز الرحيم به أن أعانه بجند آخر، وأمدّه بمدد آخر يقاوم به هذا الجند الذي يريد هلاكه، فأرسل إليه رسوله، وأنزل عليه كتابه، وأيده بملك كريم يقابل عدوه الشيطان، فإذا أمره الشيطان بأمر أمره الملك بأمر ربه، وبيّن له ما في طاعة العدو من الهلاك. فهذا يلمّ به مرّة، وهذا مرّة، والمنصورُ من نصره الله عز وجل، والمحفوظ من حفظه الله تعالى.

وجعل له مقابل نفسه الأمارة نفسًا مطمئنة، إذا أمرته النفس الأمارة بالسوء نهته عنه النفس المطمئنة، وإذا نهته الأمارة عن الخير أمرته به النفس المطمئنة، فهو يطيع هذه مرّة، وهذه مرّة، وهو للغالب منهما، وربما انقهرت إحداهما بالكليّة قهرًا لا تقوم معه أبدًا.

وجعل له مقابل الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة نورًا وبصيرة وعقلًا يردّه عن الذهاب مع الهوى الحامل له على طاعة الشيطان والنفس الأمارة. فكلما أراد أن يذهب مع الهوى ناداه العقل والبصيرة والنور: الحذرَ الحذر، فإن المهالك والمتالف بين يديك، وأنت صيد الحرامية وقطاع الطريق إن سرت خلف هذا الدليل.

فهو يطيع الناصح مرّة فيبن له رشده ونصحه، ويمشي خلف دليل الهوى مرّة فيقطع عليه الطريق ويؤخذ ماله ويسلب ثيابه، فيقول: تُرى من أين أُتيت؟!

والعجب أنه يعلم من أين أُتيَ، ويعرف الطريق التي قطعت عليه وأُخذ فيها، ويأبى إلا سلوكها، لأن دليلها قد تمكّن منه، وتحكم فيه، وقويَ عليه، ولو أضعفه بالمخالفة له، وزجره إذا دعاه، وحاربه إذا أراد أخذه؛ لم يتمكن منه، ولكن هو مكنه من نفسه، وهو أعطاه يده، فهو بمنزلة الرجل يضع يده في يد عدوه فيباشره، ثم يسومه سوء العذاب، فهو يستغيث فلا يُغاث.

فهكذا يستأسرُ للشيطان والهوى ولنفسه الأمارة، ثم يطلب الخلاص فيعجز عنه، فلمّا أن بُلي العبدُ بما بلي به؛ أعين بالعساكر والعُدد والحصون وقيل له: قاتل عدوّك وجاهده، فهذه الجنود خُذْ منها ما شئت، وهذه الحصون تحصن بأي حصن شئت منها، ورابط إلى الموت فالأمر قريب، ومدة المرابطة يسيرة جدًّا. فكأنك بالملك الأعظم وقد أرسل إليك رسله فنقلوك إلى داره، واسترحت من هذا الجهاد، وفُرِّق بينك وبين عدوك، وأُطلقت في دار الكرامة تتقلب فيها كيف شئت، وسُجِن عدوُّك في أصعب الحبوس وأنت تراه. فالسجن الذي كان يريد أن يودعك فيه قد أُدخله وأغلقت عليه أبوابه، وأيس من الرَّوح والفرج، وأنت فيما اشتهت نفسك وقرت عينك، جزاء على صبرك في تلك المدة اليسيرة، ولزومك الثغر للرباط، وما كانت إلا ساعة ثم انقضت، وكأن الشدة لم تكن.



فإن ضعفت النفس عن ملاحظة قصر الوقت وسرعة انقضائه؛ فليتدبر قوله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً﴾ [الأحقاف: ٣٥] وقوله عز وجل: ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَهَا لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوْ ضُحَىٰهَا﴾ [النازعات: ٤٦] وقوله عز وجل: ﴿قَٰلَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُواْ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَسْـَٔلِ ٱلْعَآدِّينَ ﴿١١٣﴾ قَٰلَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَّوْ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٢ - ١١٤] وقوله عز وجل: ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي ٱلصُّورِ وَنَحْشُرُ ٱلْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا ﴿١٠٢﴾ يَتَخَٰفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا ﴿١٠٣﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِن لَّبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا﴾ [طه: ١٠٢ - ١٠٤].

وخطب النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه يومًا فلما كانت الشمس على رؤوس الجبال وذلك عند الغروب قال: «**إنه لم يبق من الدنيا فيما مضى إلا كما بقي من يومكم هذا فيما مضى منه**»(١).

فليتأمل العاقل الناصح لنفسه هذا الحديث، وليعلم أي شيء حصل له من هذا الوقت الذي قد بقي في الدنيا بأسرها؛ ليعلم أنه في غرور وأضغاث أحلام، وأنه قد باع سعادة الأبد والنعيم المقيم بحظ خسيس لا يساوي شيئًا، ولو طلب الله تعالى والدار الآخرة لأعطاه ذلك الحظ موفورًا وأكمل منه. كما في بعض الآثار: «ابن آدم بعِ الدنيا بالآخرة تربحْهما جميعًا، ولا تبع الآخرة

---

(١) أحمد (٢١/٢٤٠). وقال ابن حجر في الأمالي المطلقة (١٩٩): «حسن، رجاله موثقون، وله شاهد».

بالدنيا تخسرْهما جميعًا». وقال بعض السلف: «ابن آدم أنت محتاج إلى نصيبك من الدنيا، وإنك لنصيبك من الآخرة أحوج، فإن بدأت بنصيبك من الدنيا؛ أضعت نصيبك من الآخرة، وكنت من نصيب الدنيا على خطر، وإن بدأت بنصيبك من الآخرة؛ فزت بنصيبك من الدنيا فانتظمته انتظامًا»»(١).

الثانية عشرة من علامات الافتقار إلى الله تعالى: أن يعمل على موافقة الله في الصبر والرضى والتوكل والإنابة.

«فهو عاملٌ على مراد الله منه، لا على موافقة هواه، وهو تحصيل مراده من الله. فالفقيرُ خالصٌ بكليته لله سبحانه، ليس لنفسه ولا لهواه في أحواله حظّ ونصيب، منشغل بالله عما سواه، وبأمره عن هواه، وبحُسن اختياره له عن اختياره لنفسه، فهو في واد والناس في واد.

خاضع، متواضع، سليم القلب، سلس القياد للحق، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوى لا يدّعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله. زاهدٌ في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إلى الله، قريب من الناس، أبعدُ شيء منهم، يأنسُ بما يستوحشون منه، ويستوحش مما يأنسون به، متفرّد في طريق طلبه، لا تقيده الرسوم، ولا تملكه العوائد، ولا يفرح بموجود، لا يأسف على مفقود.

من جالسه قرت عينه به، ومن رآه ذكّرته رؤيتُه بالله سبحانه. قد حَمَل كَلَّهُ

(١) الوابل الصيب (٢٤ - ٣٩) باختصار.



ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم، وكفّ أذاه عنهم، وبذل لهم نصيحته، وسبَّل لهم عِرضه ونفسه، لا لمعاوضة ولا لذلة وعجز. لا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه.

وصفُهُ الصدق والعفة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والاحتمال. لا يتوقّع لما يبذله للناس عوضًا منهم ولا مدحة. لا يعاتِب ولا يخاصم ولا يطالب، ولا يرى له على أحد حقًّا، ولا يرى له على أحد فضلًا.

مقبلٌ على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافر في ليله ونهاره ويقظته ومنامه، لا يضع عصا السير عن عاتقه حتى يصل إلى مطلبه.

قد رُفع له عَلَمُ الحب فشمّر إليه، وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكليته عليه. أجاب منادي المحبة إذ دعاه: حي على الفلاح، ووصل السُّرى في بيداء الطلب، فحمد عند الوصول سُرَاه، وإنما يحمد القوم السرى عند الصباح.

فحيّ على جنّات عدن فإنها ... منازلُكَ الأولى وفيها المخيمُ
ولكننا سبيٌ العدو فهل ترى ... نعود إلى أوطاننا ونسلّمُ
وحي على روضاتها وخيامها ... وحيّ على عيش بها ليس يُسأمُ
وحي على يوم المزيد وموعد الـ ... مُحبّين طوبى للذي هو منهمُ
وحي على واد بها هو أفيَحٌ ... وتربته من أذفرِ المسك أعظمُ
منابرُ من نور هناك وفضة ... ومن خالص العِقيانِ لا يتفصّمُ
ومن حولها كثبان مسك مقاعدٌ ... لمن دونهم هذا الفخار المعظَّمُ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

يـرون بـه الـرحمنَ جـل جلالُـه ... كرؤيـة بـدرِ الـتَّمِّ(١)(٢) لا يُتَـوَهَّمُ

أو الشمس صحوًا ليس من دون أفْقها ... ضـباب ولا غـيم هنـاك يغـيّمُ

وبينـا هـمُ في عيشـهم وسرورهـم ... وأرزاقهـم تجري علـيهم وتقسـمُ

إذا هـم بنـور سـاطع قـد بـدا لهـم ... فقيـل ارفعـوا أبصـاركم فـإذا هـمُ

بـربهم مـن فـوقهم وهـو قائـل ... سـلام علـيكم طبـتم وسـلِمْتمُ

فيا عجبًا ما عـذرُ من هـو مـؤمنٌ ... بهـذا ولا يسـعى لـه ويقـدمُ

فبـادرْ إذا مـا دام في العمـر فسـحةٌ ... وعَـدْلُك مقبـول وصرفُـك قـيِّمُ

فـما فرحـتْ بالوصـل نفـسٌ مَهينـةٌ ... ولا فـاز قلـب بالبطالـة يـنعمُ

فجدَّ وسارع واغتنم ساعة السُّرى ... ففـي زمـن الإمكـان يُسعى ويُغنمُ

وسرّ مسرعًا فالسير خلفك مسرعٌ ... وهيهـات مـا منـه مفـرٌّ ومهـزَمُ

فهـنَّ المنايـا أي وادٍ نزلتَـه ... عليهـا قـدومٌ أو عليـك سـتقدَمُ

وإن تك قد عاقتك سعدى فقلبك الـ ... مُعَنَّـى رهـين في يـديها مسـلَّمُ

---

(١) هل تعلم أن في الجنة نعيم ليس من جنس نعيم الدنيا، وليس في الدنيا له شبيه أو نظير أو حتى مثل يقارب المعنى، فالجنة فيها فاكهة ونخل ورمان وأنهار وخمر ولبن وقصور وحور... إلخ. ولكنها حوت نعيمًا لا يمكن تخيله ولا مقاربته ولو بالخيال فهو جنس ليس له مسمّى ولا شبيه في الدنيا والدليل على ذلك قوله تعالى في الحديث القدسي: «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» قال أبو هريرة: اقرؤوا إن شئتم: ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّآ أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ﴾ البخاري (٤٧٧٩) وأعلى نعيم الجنة رؤية الله تبارك وتعالى.

(٢) أي بدر التمام.

وقد ساعدت بالوصل غيرَك فالهوى ... لها منكَ والواشي بها يتنعّمُ
فدعها وسلِّ النفسَ عنها بجنةٍ ... من الخير في روضاتها الدُّر يَبسُمُ
ومن تحتها الأنهار تخفق دائمًا ... وطيرُ الأماني فوقها يترنَّمُ
وقد ذُلّلتْ منها القطوفُ فمن يُرِدْ ... جناها ينلْهُ كيف شاء وينعمُ
وقد فُتِحتْ أبوابُها وتزينت ... لخُطّابها فالحسن فيها مُقَسَّمُ
أقام على أبوابها داعي الهدى ... هلمّوا إلى دار السعادة تغنموا
وقد طاب منها نُزْلُها ومقيلُها ... فطوبى لمن حلّوا بها وتنعموا
وقد غرس الرحمنُ فيها غِراسه ... من الناس، والرحمن بالغرس أعلمُ
فمن كان من غرس الإله فإنه ... سعيد وإلا فالشقا متحتمُ[(١)]
فيا مسرعين السير بالله ربكم ... قفوا بي على تلك الربوع وسلّموا
وقولوا محبٌّ قاده الشوق نحوكم ... قضى نحبه فيكم تعيشوا وتسلموا
قضى الله رب العالمين قضيةً ... بأنّ الهوى يُعمي القلوب ويُبكمُ
وحبكم أصل الهدى ومداره ... عليه وفوز للمحب ومغنمُ
وتفنى عظامُ الصَّبِّ بعد مماته ... وأشواقُه وقفٌ عليه محرَّمُ
فيا أيها القلب الذي ملك الهوى ... أعِنّتَهُ، حتّامَ هذا التلوُّمُ
وحتّامَ لا تصحو وقد قرُبَ المدى ... ودُقّت كؤوس السير والناس نُوّمُ
بلى سوف تصحو حين ينكشف الغطا ... ويبدو لك الأمر الذي كنت تكتمُ
ويا موقدا نارًا لغيرك ضوؤها ... وحرُّ لظاها بين جنبيك يضرَمُ

(١) لو قال: فالشقاء مُحتَّمُ.

أهذا جنى العلم الذي قد غرسته ... وهذا الذي قد كنت ترجوه تُطعَمُ
وهذا هو الحظ الذي قد رضيتَه ... لنفسك في الدارين لو كنت تفهمُ
وهذا هو الربح الذي قد كسبته ... لعمرُك لا ربح ولا الأصلُ يسلمُ
بخلت بشيء لا يضرك بذلُه ... وجُدت بشيء مثله لا يُقوَّمُ(١)
وبعت نعيمًا لا انقضاء له ولا ... نظيرَ ببخسٍ عن قليل سيُعدمُ
فهلا عكست الأمر إن كنت حازمًا ... ولكن أضعت الحزم إن كنت تعلمُ
وتهدم ما تبني بكفك جاهدًا ... فأنت مدى الأيام تبني وتهدمُ
وعند مراد الحق تفنى كميّت ... وعند مراد النفس تُسْدِي وتُلحِمُ
وعند خلاف الأمر تحتجُّ بالقضا ... ظهير على الرحمن للجبر يزعمُ
تُنزّه تلك النفسَ عن سوء فعلها ... وتعتِبُ أقدارَ الإله وتظلِمُ
وتزعم معْ هذا بأنكَ عارفٌ ... كذبتَ يقينًا في الذي أنت تزعمُ
وما أنت إلا جاهلٌ ثم ظالمٌ ... وإنك بين الجاهلين مقدَّمُ
إذا كان هذا نُصْحُ عبدٍ لنفسه ... فمن ذا الذي منه الهدى يُتَعَلَّمُ
وفي مثل هذي الحال قد قال من مضى ... وأحسنَ فيما قاله المتكلِّمُ:
فإن كنت لا تدري فتلك مصيبةٌ ... وإن كنت تدري فالمصيبةُ أعظمُ
ولو تبصِرُ الدنيا وراء ستورها ... رأيت خيالًا في منام سيصرَمُ
كحلم بطيف زار في النوم وانقضى الـ ... منام وراح الطيفُ والصَّبُّ مغرمُ
وظِلٍّ أرتْهُ الشمسُ عند طلوعها ... سيقلِصُ في وقت الزوال ويُفصَمُ

(١) أي بخلت على نفسك بعمارة الآخرة، وجُدتَ بها للدنيا!

ومُزنـةِ صـيف طـاب منهـا مقيلُهـا ... فولّــتْ سريعًــا والحَــرورُ تــضرَّمُ
فجُزْهَــا ممَــرًّا لا مقــرًّا وكــن بهــا ... غريبًــا تعِــشْ فيهــا حميـدًا وتسـلمُ
أو ابـنَ سـبيل قـالَ في ظـل دوحـةٍ ... وراحَ وخــــلَّى ظلهـــا يتقسَّـــمُ
أخـــا ســـفرٍ لا يَســـتقرُّ قـــرارُه ... إلى أن يــــرى أوطانَـــه ويُسَـــلَّمُ
فيـا عجبًـا كـم مصـرعِ عطَبـوا بـه ... بنُوهـا ولكـن عـن مصارعها عموا
سقتهم بكأس الحب حتى إذا انتشوا ... سقتهم كؤوس السُّمِّ والقومُ قد ظَمُوا
وأعجبُ ما في العبد رؤيـةُ هـذه الـ ... عظـائمِ منهـا وهـو فيهـا متـيَّمُ
وأعجـب مـن ذا أنَّ أحبابهـا الأُلى ... تُهـينُ ولِلأعـدا تُراعـي وتُكـرِمُ
وذلـك برهـانٌ عـلى أن قـدرَها ... جنــاحُ بعــوضٍ أو أدقُّ وألأَمُ
وحسبُك مـا قـال الرسـول ممثّلًا ... لهـا ولـدار الخلـد والحـقُّ يُفهَـمُ
كما يُدخِل الإنسانُ في اليم إصبعًا ... وينزعهـــا منـــه فـــما ذاك يغـــنمُ
ألا ليـت شـعري هـل أبيـتن ليلـة ... عـلى حـذر منهـا وأمـريَ محكـمُ
وهـل أَرِدَنْ مـاءَ الحيـاة وأرتـوي ... على ظمأٍ من حوضه وهو مُفْعَمُ
وهل تبدوَنْ أعلامُهم بعدما سَفَت ... عليهـا السـوافي تسـتبينُ وتُعلَـمُ
وهـل أفرشـنْ خـدِّي ثَـرى عتباتهم ... خضـوعًا لهـم كيما يرِقُّـوا ويرحمـوا
وهـل أريَـنْ نفسـي طريحًـا ببـابهم ... وطـيرُ أمـاني الحـبِّ فـوقي تُحـوِّمُ
فـوا أسـفا تفنـى الحيـاةُ وتنقـضي ... وعتــبُكُم بــاقٍ، بقيــتُم وعِشــتمُ
فـما مـنكمُ بـدٌّ ولا عـنكمُ غنًـى ... ومـاليَ مـن صـبر فأَسـلوَ عـنكمُ
فمن شاء فليغضب سواكم فلا إذًا ... إذا كنـتمُ عـن عبـدكمْ قـد رضـيتمُ
وعُقبى اصطباري في رضاكم حميدةٌ ... ولكنهــا عــنكم عقــابٌ ومغــرمُ

ومـا أنـا بالشـاكي لمـا ترتضـونه ... ولكنّنـــي أرضى بـــه وأســـلِّمُ

وحسـبي انتسـابي مـن بعيـد إلـيكم ... وذلـــك حـــظٌّ مثلُـــه يُتَـــيَمَّمُ

إذا قيـــل هـــذا عبـــدُهم ومُحـــبّهمْ ... تهلّـــلَ بِـــشرًا ضـــاحكًا يتبسَّـــمُ

وهـا هـو قـد أبدى الضـراعة قـائلًا ... لكـم بلسـان الحـال والحـالُ يُعلـمُ

أَحِبّتَنـــا عطفًـــا علينـــا فإننـــا ... بنـا ظمـأٌ والمـورد العـذب أنـتمُ

فيا ساهيًا في غمرة الجهل والهوى ... صريـعَ الأمـاني عـن قليـل سـتندمُ

أَفِقْ قد دنا الوقت الذي ليس بعده ... سـوى جنـة أو حـرّ نـار تـضرَّمُ

وبالسُّـــنَّةِ الغـــرّاء كـــن متمســـكًا ... هي العروة الوثقى التي ليس تُفصمُ

تمسّـك بهـا مسـك البخيـل بمالـه ... وعَـضَّ عليهـا بالنواجـذ تسـلمُ

وإيّـاك ممـا أحـدث النـاس بعـدها ... فمرتـعُ هاتيـكَ الحـوادث أوخَـمُ

وهـيِّءْ جوابًـا عنـدما تسـمع النـدا ... مـن الله يـوم العـرض مـاذا أجبـتمُ

بـه رُسُـلي لمـا أتـوكم فمـن يجـب ... سـواهم سـيخزى عنـد ذاك ويندمُ

وخـذ مـن تقـى الـرحمن أسبغَ جُنَّةٍ ... ليـــومٍ بـــه تبـــدو عيانًـــا جهـــنمُ

ويُنصب ذاك الجسرُ من فوق متنها ... فهـــاوٍ ومخـــدوشٌ ونـــاجٍ مســـلَّمُ

ويـــأتي إله العــــالمين لوعــــده ... فيفصِـلُ مـا بـين العبـاد ويَحكُـمُ

ويأخــذ للمظلــوم إذ ذاك حقَّـــه ... فيا ويح من قد كان للخلق يظلمُ

ويُنشر ديوان الحساب وتوضع الـ ... ـموازينُ بالقسط الذي ليس يَظلمُ

فـلا مجـرمٌ يخشـى هنـاك ظلامـةً ... ولا محسـنٌ مـن أجـره الـذرَّ يُهضَـمُ

وتشـهدُ أعضـاء المسـيء بـما جنـى ... لـذاك عـلى فيـه المهـيمن يختـمُ

ويا ليت شعري كيف حالُك عندما ... تَطـــايرُ كُتْـــبَ العـــالمين وتُقسَـــمُ

أتأخذ باليمنى كتابك أم ترى ... بيسراك خلف الظهر منك يُسلَّمُ
وتقرأ فيه كل شيء عملتَه ... فيُشرق منك الوجه أو هو يُظلِمُ
تقول كتابي هاؤم اقرؤوه لي ... يُبشِّرُ بالجنات حقًّا ويُعلِمُ
وإن تكن الأخرى فإنك قائلٌ ... ألا ليتني لم أوتَهُ فهو مُغرِمُ
فلا والذي شقَّ القلوب وأودع الـ ... محبةَ فيها حيثُ لا تتصرَّمُ
وحَمَّلها قلبَ المحبِّ وإنه ... ليضعفُ عن حمل القميص ويألمُ
وذلَّلها حتى استكانت لصولة الـ ... محبة لا تلوي ولا تتلعثمُ
وذلّل فيها أنفسًا دون ذُلِّها ... حياضُ المنايا فوقها هي حُوَّمُ
فقد فاز أقوامٌ وحازوا مرابحًا ... بتركهمُ الدنيا وَالاقبالِ منهمُ
على ربِّهمْ طولَ الحياة وحبِّهم ... على نهجِ ما قد سَنَّهُ فهُمُ هُمُ(١)

❁❁❁❁

---

(١) طريق الهجرتين: (١/١٠٥ - ١١٥) مختصرًا.

ثمرات الافتقار إلى الله تعالى

لكل عمل قلب ثماره، ولما كان الافتقار من أوسع الأعمال كانت ثماره كثيرة جليلة، فمنها:

أولًا: تحقيق العبودية لله تعالى، وتجريد التوحيد له، وصدق التوجه إليه، والإخلاص له، فالافتقار كنز من كنوز التوحيد، بل هو مادّته التي قامت فروعه على ساقها. «فبالتوحيد يَقوى ويستغني، ومن سَرَّهُ أن يكون أقوى الناس، فليتوكل على الله؛ وبالاستغفار يُغفَر له. فلا يزول فقرُه وفاقتُه إلا بالتوحيد، لابدَّ له منه، وإلاّ فإذا لم يحصل له لم يزل فقيرًا محتاجًا لا يحصل مطلوبه معذَّبًا، والله تعالى لا يغفر أن يُشرَك به. وإذا حَصَل مع التوحيد الاستغفار حَصَل غناه وسعادته، وزال عنه ما يُعذَّب به، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وهو مفتقر دائمًا إلى التوكل عليه والاستعانة به، كما هو مفتقر إلى عبادته، فلابدَّ أن يشهد دائمًا فقرَه إليه وحاجته في أن يكون معبودًا له وأن يكون معينًا له، فلا حول ولا قوة إلا بالله، ولا ملجأ منه إلا إليه. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوۡلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥] أي يخوفكم أولياءه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمۡ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. هذا هو الصواب الذي علمِه جمهور

المفسرين[١] كابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة والنخعي، وأهل اللغة كالفراء[٢] وابن قتيبة[٣] والزجاج[٤] وابن الأنباري. وعبارة الفراء: يخوِّفكم بأوليائه، كما قال: ﴿لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] أي ببأسٍ، وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥] أي: بيوم التلاق. وعبارة الزجاج: يُخوِّفكم من أوليائه. قال أبو بكر الأنباري[٥]: والذي نختاره في الآية أن المعنى يخوفكم أولياءه، يقول العرب: أعطيتُ الأموال، أي أعطيتُ القومَ الأموالَ، فيحذفون المفعول الأول، ويقتصرون على ذكر الثاني»[٦].

«وبحسب تحقيق التوحيد تكمل طاعة الله، قال تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤] فمن جعل ما يألهه هو ما يهواه فقد اتخذ إلهه هواه، أي جعل معبوده هو ما يهواه، وهذا حال المشركين الذين يعبد أحدهم ما يستحسنه. فهم يتخذون أندادًا من دون الله يحبونهم كحب الله.

---

(١) انظر تفسير الطبري (٤/١٢٢) وزاد المسير (١/٥٠٦).

(٢) معاني القرآن (١/٢٤٨).

(٣) تفسير غريب القرآن (١١٦).

(٤) معاني القرآن (١/٤٩٠).

(٥) زاد المسير (١/٥٠٧).

(٦) جامع المسائل لابن تيمية (٣/ ٥٥).

ولهذا قال الخليل: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦] فإن قومه لم يكونوا منكرين للصانع، ولكن كان أحدهم يعبد ما يستحسنه ويظنه نافعًا له كالشمس والقمر والكواكب، والخليل بيّن أن الآفل يغيب عن عابده، وتحجبه عنه الحواجب، فلا يَرى عابدَه، ولا يسمع كلامه، ولا يعلم حاله، ولا ينفعه ولا يضره بسبب ولا غيره. فأي وجه لعبادة من يأفل؟!

وكلما حقق العبد الإخلاص في قول: لا إله إلا الله؛ خرج من قلبه تألّهُ ما يهواه، وتُصرف عنه المعاصي والذنوبُ، كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فعلّل صرف السوء والفحشاء عنه بأنه من عباد الله المخلصين. وهؤلاء هم الذين قال فيهم: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقال الشيطان: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣].

وقد ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«من قال لا إله إلا الله مخلصًا من قلبه؛ حرمه الله على النار»**(١) فإن الإخلاص ينفي أسباب دخول النار، فمن دخل النار من القائلين: لا إله إلا الله لم يحقق إخلاصها المُحرِّم له على النار، بل كان في قلبه نوع من الشرك الذي أوقعه فيما أدخله النار.

والشرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النمل، ولهذا كان العبد مأمورًا في كل صلاة أن يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] والشيطان يأمر

(١) البخاري (١٢٨).



بالشرك، والنفس تطيعه في ذلك فلا تزال النفس تلتفت إلى غير الله، إما خوفًا منه، وإما رجاءً له، فلا يزال العبد مفتقرًا إلى تخليص توحيده من شوائب الشرك»[١].

ثانيًا: القرب من الله تعالى عبر باب الانكسار والخشوع. «فالافتقار يورث العبد ذلًّا لمولاه الحق، وخشوعًا وعبوديّة ورقًّا ورقّة وانكسارًا، فإن هذه الكسرة الخاصة لها تأثير عجيب في المحبة لا يعبر عنه، ويحكى عن بعضهم أنه قال: «دخلتُ على الله من أبواب الطاعات كلها فما دخلت من باب إلا رأيت عليه الزحام فلم أتمكن من الدخول[٢] حتى جئت باب الذل والافتقار، فإذا هو أقرب باب إليه وأوسعه ولا مزاحم فيه ولا معوق، فما هو إلا أن وضعت قدمي في عتبته؛ فإذا هو سبحانه قد أخذ بيدي وأدخلني عليه».

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقول: «من أراد السعادة الأبدية؛ فليلزم عتبة العبودية».

---

(١) مجموع الفتاوى (١٠/ ٢٦٢) وانظرها في: (الفتاوى العراقية: ٢/٥٨٢-٥٨٥).

(٢) وهذا من شطحاتهم، فالله واسع عليم محيط لا يشغله شأن عن شأن، ولا مخلوق عن سواه وهو على كل شيء قدير، وإنما أُتي بعضهم مما يسمّونه الغيرة عليه وهذا لا يصح ولا يجوز، فلا يقاس بخلقه سبحانه، وشأن محبّته أعظم من ذلك كثيرًا ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١] وكأن مقصود ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ في إيراد هذا الكلام التنبيهُ إلى أن باب الذل والمسكنة قد غفل عنه الكثير مع أنه أقرب باب لتحصيل العبودية لرب العالمين، وهذا مقصد شريف ومرمى حسن.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والقصد: أن هذه الذلة والكسرة الخاصة تُدخله على الله، وترميه على طريق المحبة، فيفتح له منها باب لا يفتح له من غير هذه الطريق. وإن كانت طرق سائر الأعمال والطاعات تفتح للعبد أبوابًا من المحبة، لكن الذي يفتح منها من طريق الذل والانكسار والافتقار، وازدراء النفس ورؤيتها بعين الضعف والعجز والعيب والنقص والذم، بحيث يشاهدها ضيعة وعجزًا وتفريطًا وذنبًا وخطيئة نوع آخر وفتح آخر(١).

والسالك بهذه الطريق غريب في الناس، هم في واد وهو في واد، وهي تسمى طريق الطير، يسبق النائم فيها على فراشه السُّعاة(٢)، فيصبح وقد قطع الطريق وسبق الركب، بينا هو يحدثك وإذا به قد سبق الطرف وفات السعاة، والله المستعان وهو خير الغافرين»(٣).

ثالثًا: تحصيل الغنى، فعلى قدر افتقار العبد الفقير لمولاه الغني يكون لطفه ومدده ورحمته. فمن أراد الغنى فليزم عتبة الغني، وليقرع بابه بيد الافتقار والانكسار والمسكنة، وليبشر بالعطاء الجزيل والمنائح الجسيمة، فليعظم الرغبة فالكريم سبحانه لا يتعاظمه شيء أعطاه.

رابعًا: ـ وهو ومن كبريات ثمراته ـ سعادة العبد التامة وسروره العظيم

(١) وتأمل لفظ العبد الذي هو سمة أفضل الخلائق وأكمل الرسل، وانظر الكلام على ذلك في باب العبودية من هذا الكتاب.

(٢) أي: المجدّون السير المسرعون به.

(٣) مدارج السالكين (١/٤٣١، ٤٤٢ – ٤٤٤) بتصرف واختصار.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وفلاحه المؤكد، وذلك إنّما يكون بكمال افتقاره إلى الله.

ولما كان كل طريق فلاح موصدٌ سوى طريق الافتقار للإله الحق فلا سعادة على الحقيقة إلا به، فلا سرور ولا فرح ولا نعيم ولا فرَج ولا توفيق إلا بتحقيق الافتقار إلى الله الذي هو لُباب العبودية وقلبُها. «والعبد كلما كان أذلَّ لله وأعظم افتقارًا إليه وخضوعًا له كان أقرب إليه، وأعزّ له، وأعظم لقدره. فأسعد الخلق أعظمهم عبودية لله.

وأما المخلوق فكما قيل: احتج إلى من شئت تكن أسيره، واستغن عمن شئت تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ولقد صدق القائل:

بين التذلل والتدلل نقطة ... في رفعها تتحير الأفهامُ[1]

فأعظم ما يكون العبد قدرًا وحرمة عند الخلق إذا لم يحتج إليهم بوجه من الوجوه. فإن أحسنت إليهم مع الاستغناء عنهم؛ كنت أعظم ما يكون عندهم، ومتى احتجت إليهم ـ ولو في شربة ماء ـ نقص قدرك عندهم بقدر حاجتك إليهم. وهذا من حكمة الله ورحمته، ليكون الدين كله لله، ولا يشرك به شيء.

ولهذا قال حاتم الأصم، لما سئل: فيم السلامة من الناس؟ قال: أن يكون شيئُك لهم مبذولًا، وتكون من شيئهم آيسًا، لكن إن كنت معوضًا لهم عن ذلك وكانوا محتاجين، فإن تعادلت الحاجتان؛ تساويتم، كالمتبايعين ليس لأحدهما فضل على الآخر، وإن كانوا إليك أحوج خضعوا لك.

---

(١) فالتذلل محمود محبوب، أما الإذلال فبخلافه.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فالرب سبحانه: أكرمُ ما تكون عليه أحوج ما تكون إليه وأفقر ما تكون إليه. والخلق: أهونُ ما يكون عليهم أحوج ما يكون إليهم. لأنهم كلهم محتاجون في أنفسهم، فهم لا يعلمون حوائجك، ولا يهتدون إلى مصلحتك، بل هم جهلة بمصالح أنفسهم، فكيف يهتدون إلى مصلحة غيرهم فإنهم لا يقدرون عليها، ولا يريدون من جهة أنفسهم، فلا علم ولا قدرة ولا إرادة.

والرب تعالى يعلم مصالحك ويقدر عليها، ويريدها رحمة منه وفضلًا. وذلك صفته من جهة نفسه، لا شيء آخر جعله مريدًا راحمًا، بل رحمته من لوازم نفسه، فإنه كتب على نفسه الرحمة، ورحمته وسعت كل شيء. والخلق كلهم محتاجون، لا يفعلون شيئًا إلا لحاجتهم ومصلحتهم. وهذا هو الواجب عليهم والحكمة، ولا ينبغي لهم إلا ذلك، لكن السعيد منهم الذي يعمل لمصلحته التي هي مصلحة، لا لما يظنه مصلحة وليس كذلك.

فهم ثلاثة أصناف: ظالم، وعادل، ومحسن.

فالظالم: الذي يأخذ منك مالًا أو نفعًا ولا يعطيك عوضَه، أو ينفع نفسَه بضررك.

والعادل: المكافئُ، كالبائع لا لك ولا عليك، كل به يقوم الوجود، وكل منهما محتاج إلى صاحبه، كالزوجين والمتبايعين والشريكين.

والمحسن الذي يُحسن لا لعوض يناله منك، فهذا إنما عمل لحاجته ومصلحته، وهو انتفاعه بالإحسان، وما يحصل له بذلك مما تحبه نفسه من الأجر، أو طلب مدح الخلق وتعظيمهم، أو التقرب إليك، إلى غير ذلك.



وبكل حال ما أحسنَ إليك إلا لما يرجو من الانتفاع. وسائر الخلق إنما يكرمونك ويعظمونك لحاجتهم إليك، وانتفاعهم بك، إما بطريق المعاوضة؛ لأن كل واحد من المتبايعين والمتشاركين والزوجين محتاج إلى الآخر، والسيّد محتاج إلى مماليكه وهم محتاجون إليه، والملوك محتاجون إلى الجند والجند محتاجون إليهم. وعلى هذا بُني أمر العالم.

وأما بطريق الإحسان منك إليهم. فأقرباؤك وأصدقاؤك وغيرهم إذا أكرموك لنفسك، فهم إنما يحبونك ويكرمونك لما يحصل لهم بنفسك من الكرامة، فلو قد ولّيْتَ ولّوا عنك وتركوك، فهم في الحقيقة إنما يحبون أنفسهم وأغراضهم.

فهؤلاء كلهم من الملوك إلى من دونهم تجدُ أحدَهم سيدًا مطاعًا، وهو في الحقيقة عبد مطيع. وإذا أوذي أحدهم بسبب سيده أو من يطيعه تغيّر الأمر بحسب الأحوال.

ومتى كنت محتاجًا إليهم؛ نقص الحب والإكرام والتعظيم بحسب ذلك وإن قضوا حاجتك. والرب تعالى يمتنع أن يكون المخلوق مكافيًا له أو متفضلًا عليه؛ ولهذا كان النبي ﷺ يقول إذا رُفعت مائدته: «**الحمد لله حمدًا كثيرًا طيّبًا مباركًا فيه، غير مَكْفِيٍّ ولا مكفور ولا مودَّع ولا مستغنى عنه ربّنا**» رواه البخاري من حديث أبي أمامة[١] بل ولا يزال الله هو المنعم المتفضل على

---

(١) البخاري (٥٤٥٨).

العبد، وحده لا شريك له في ذلك؛ بل ما بالخلق كلهم من نعمة فمن الله.

وسعادة العبد في كمال افتقاره إلى الله، واحتياجه إليه، وأن يشهد ذلك ويعرفه ويتصف معه بموجبه، أي بموجب علمه ذلك. فإن الإنسان قد يفتقر ولا يعلم، مثل أن يذهب ماله ولا يعلم، بل يظنه باقيًا، فإذا علم بذهابه صار له حال آخر. فكذلك الخلق كلهم فقراء إلى الله، لكن أهل الكفر والنفاق في جهلٍ بهذا وغفلة عنه وإعراض عن تذكره والعمل به. والمؤمن يقرّ بذلك ويعمل بموجب إقراره، وهؤلاء هم عباد الله.

فالإنسان وكل مخلوق فقير إلى الله بالذات، وفقره من لوازم ذاته، يمتنع أن يكون إلا فقيرًا إلى خالقه. وليس أحدٌ غنيًّا بنفسه إلا الله وحده، فهو الصمد الغنيُّ عما سواه، وكل ما سواه فقير إليه. فالعبد فقير إلى الله من جهة ربوبيته ومن جهة إلهيته.

والإنسان يذنب دائمًا فهو فقير مذنب، وربُّه تعالى يرحمه ويغفر له، وهو الغفور الرحيم، فلولا رحمته وإحسانه؛ لما وُجِد خير أصلًا، لا في الدنيا ولا في الآخرة. ولولا مغفرته لما وُقيَ العبد شرّ ذنوبه. وهو محتاج دائمًا إلى حصول النعمة ودفع الضر والشر، ولا تحصل النعمة إلا برحمته، ولا يندفع الشر إلا بمغفرته، فإنه لا سبب للشر إلا ذنوب العباد، كما قال تعالى: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنۡ حَسَنَةٖ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٖ فَمِن نَّفۡسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] والمراد بالسيئات: ما يسوء العبد من المصائب. وبالحسنات: ما يسرّه من النعم، كما قال: ﴿وَبَلَوۡنَٰهُم بِٱلۡحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ﴾ [الأعراف: ١٦٨].

فالنعم والرحمة والخير كله من الله فضلًا وجودًا من غير أن يكون لأحد من جهة نفسه عليه حق. وإن كان تعالى عليه حق لعباده، فذلك الحق هو أحقَّه على نفسه، وليس ذلك من جهة المخلوق، بل من جهة الله، كما قد بسط هذا في مواضع.

والمصائب بسبب ذنوب العباد وكسبهم، كما قال: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى: ٣٠].

والنعم وإن كانت بسبب طاعات يفعلها العبد فيثيبه عليها فهو سبحانه المنعم بالعبد وبطاعته وثوابه عليها، فإنه سبحانه هو الذي خلق العبدَ وجعله مسلمًا طائعًا، كما قال الخليل: ﴿ٱلَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهۡدِينِ﴾ [الشعراء: ٧٨] وقال: ﴿وَٱجۡعَلۡنَا مُسۡلِمَيۡنِ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] وقال: ﴿ٱجۡعَلۡنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ [إبراهيم: ٤٠] وقال: ﴿وَجَعَلۡنَا مِنۡهُمۡ أَئِمَّةً يَهۡدُونَ بِأَمۡرِنَا لَمَّا صَبَرُواْۖ وَكَانُواْ بِـَٔايَٰتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤] فسأل ربه أن يجعله مسلمًا وأن يجعله مقيم الصلاة. وقال: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ الآية، قال في آخرها: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗ﴾ [الحجرات: ٧-٨].

وعند أبي داود وابن حبان: «**اهدنا سبل السلام، ونجّنا من الظلمات إلى النور، واجعلنا شاكرين لنعمتك مُثنين بها عليك، قابليها، وأتممها علينا**»(١)

---

(١) أبو داود (٩٦٩) وسكت عنه فهو صالح على طريقته، ابن حبان (٩٩٦) وجوَّد إسناده الهيثمي في المجمع (١٠/١٨٢) وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد =

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وفي الفاتحة: ﴿ ٱهۡدِنَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ﴾ [الفاتحة: ٦] وفي الدعاء الذي رواه الطبراني عن ابن عباس قال: مما دعا به رسول الله ﷺ عشية عرفة: «**اللّٰهم إنك تسمع كلامي، وترى مكاني، وتعلم سري وعلانيتي، ولا يخفى عليك شيء من أمري، أنا البائس الفقير المستغيث المستجير الوجل المشفق، المقرّ بذنبه، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال المذنب الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، من خضعت لك رقبتُه، وذل لك جسده، ورغم لك أنفه. اللّٰهم لا تجعلني بدعائك رب شقيًّا، وكن بي رؤوفًا رحيمًا، يا خير المسئولين، ويا خير المعطين**»(١).

ولفظ العبد في القرآن يتناول من عَبَدَ الله، فأما عبدٌ لا يعبده فلا يطلق عليه لفظ عبدِه(٢)، كما قال: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] وأما قوله: ﴿إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢] فالاستثناء فيه منقطع(٣)، كما قاله أكثر المفسرين والعلماء. وقوله: ﴿عَيۡنًا يَشۡرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦]، ﴿ وَعِبَادُ

=

(٤٩٠) بنحوه.

(١) أورده الهيثمي في مجمع الزوائد (٣/ ٢٥٥) وقال: «رواه الطبراني في الصغير والكبير وزاد: «**الوجل المشفق**» وفيه يحيى بن صالح الأبلي، قال العقيلي: روى عنه يحيى بن بكير مناكير. وبقية رجاله رجال الصحيح».

(٢) أي: العبودية الاختيارية التي يُحمد ويُثاب عليها وليست الاضطرارية، فكل من سوى الله فهو عبدٌ لله.

(٣) أي ليس من عباد الله.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

ﭐلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُۥدَ﴾ [ص: ١٧] و﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾ [ص: ٣٠]، ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ﴾ [ص: ٤١]، ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ﴾ [ص: ٤٥] ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ﴾ [الكهف: ٦٥]، ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿إِنَّهُۥ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾ [الإسراء: ٣]، ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ١]، ونحو هذا كثير.

وقد يطلق لفظ العبد على المخلوقات كلها، كقوله: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]. وفي الحديث الصحيح الذي رواه مسلم في الدجال: «**فيوحي الله إلى المسيح أن لي عبادًا لا يَدَان**[١] **لأحد بقتالهم**» وهذا كقوله: ﴿بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَّنَآ﴾ [الإسراء: ٥] فهؤلاء لم يكونوا مطيعين لله، لكنهم مُعَبَّدون مذلّلون مقهورون يجري عليهم قدره.

وأما فقر المخلوقات إلى الله، بمعنى: حاجتها كلها إليه، وأنه لا وجود لها ولا شيء من صفاتها وأفعالها إلا به؛ فهذا أول درجات الافتقار، وهو افتقارها إلى ربوبيته لها، وخلقه وإتقانه، وبهذا الاعتبار كانت مملوكة له، وله سبحانه

---

(١) أي: لا قوة ولا طاقة لأحد بقتالهم.



الملك والحمد(١).

والمقصود: أن سعادة العبد في كمال افتقاره إلى ربه واحتياجه إليه، أي في أن يشهد ذلك ويعرفه، ويتصف معه بموجب ذلك من الذل والخضوع والخشوع، وإلا فالخلق كلهم محتاجون، لكن يظن أحدهم نوع استغناء فيطغى، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ٦ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] وقال: ﴿وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ أَعْرَضَ وَنَـَٔا بِجَانِبِهِۦ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَآءٍ عَرِيضٍ﴾ [فصلت: ٥١] وفي الآية الأخرى: ﴿كَانَ يَـُٔوسًا﴾ [الإسراء: ٨٣](٢).

ومما ينبغي أن يُعلم أنه «لا سعادة للقلب ولا لذة ولا نعيم ولا صلاح إلا بأن يكون الله هو إلهه وفاطره وحده، وهو معبوده وغاية مطلوبه، وأحب إليه من كل ما سواه.

ومعلوم أن كل حيٍّ سوى الله سبحانه من ملك أو إنس أو جن أو حيوان فهو فقير إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره، ولا يتم ذلك إلا بتصوّره للنافع والضار، والمنفعة من جنس النعيم واللذة، والمضرة من جنس الألم والعذاب.

فلابد له من أمرين: أحدهما: معرفة ما هو المحبوب المطلوب الذي ينتفع به ويلتذ بإدراكه.

---

(١) فالفقر إلى الربوبية اضطراري، أما الفقر إلى الألوهية والعبودية فاختياري، وهو محكّ دعوة المرسلين لأنه تحقيق «لا إله إلا الله».

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٩ – ٥٠) مختصرًا.



والثاني: معرفة المعين الموصل المحصل لذلك المقصود. وبإزاء ذلك أمران آخران، أحدهما: مكروه بغيض ضار. والثاني: مُعينٌ دافع له عنه. فهذه أربعة أشياء:

أحدهما: أمر هو محبوب مطلوب الوجود. الثاني: أمر مكروه مطلوب العدم. الثالث: الوسيلة إلى حصول المطلوب المحبوب. الرابع: الوسيلة إلى دفع المكروه.

فهذه الأمور الأربعة ضرورية للعبد، بل ولكل حيوان لا يقوم وجوده وصلاحه إلا بها.

فإذا تقرر ذلك، فالله تعالى هو الذي يجب أن يكون هو المقصود المدعو المطلوب، الذي يراد وجهه، ويُبتغَى قربه، ويُطلب رضاه. وهو المعين على حصول ذلك. وعبودية ما سواه والالتفات إليه والتعلق به هو المكروه الضار، والله هو المعين على دفعه. فهو سبحانه الجامع لهذه الأمور الأربعة دون ما سواه، فهو المعبود المحبوب المراد، وهو المعين لعبده على وصوله إليه وعبادته له.

والمكروه البغيض إنما يكون بمشيئته وقدرته، وهو المعين لعبده على دفعه عنه، كما قال أعرفُ الخلق به: «**أعوذ برضاك من سخطك، وأعوذ بمعافاتك من عقوبتك، وأعوذ بك منك**»[(١)] وقال: «**اللّٰهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة**

---

(١) مسلم (٤٨٦).



ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك»[١] فمنه المنجَى، وإليه الملجأ، وبه الاستعاذة من شر ما هو كائن بمشيئته وقدرته. فالإعاذة فعلُه، والمستعاذ منه فعله أو مفعوله الذي خلقه بمشيئته.

فالأمر كله له، والحمد كله له، والملك كله له، والخير كله في يديه، لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثني على نفسه، وفوق ما يثني عليه كل أحد من خلقه.

ولهذا كان صلاح العبد وسعادته في تحقيق معنى قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] فإن العبودية تتضمن المقصود المطلوب، لكن على أكمل الوجوه. والمستعان هو الذي يُستعان به على المطلوب. فالأول[٢]: من معنى ألوهيته، والثاني[٣] من معنى ربوبيته. فإن الإله هو الذي تأله القلوب محبةً وإنابة وإجلالًا وإكرامًا وتعظيمًا وذلًّا وخضوعًا وخوفًا ورجاءً وتوكُّلًا. والرب هو الذي يُربى عبده، فيعطيه خلقَهُ ثم يهديه إلى مصالحه. فلا إله إلا هو، ولا رب إلا هو، فكما أن ربوبية ما سواه أبطل الباطل، فكذلك إلهية ما سواه.

وقد جمع الله سبحانه بين هذين الأصلين في مواضع من كتابه كقوله:

---

(١) متفق عليه، البخاري (٦٣١١) ومسلم (٢٧١٠).

(٢) أي: عبادته وحده.

(٣) أي: الاستعانة به وحده.



﴿فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣] وقوله عن نبيه شعيب: ﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الفرقان: ٥٨] وقوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا﴾ [المزمل: ٨، ٩] وقوله: ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠] وقوله عن الحنفاء أتباع إبراهيم عليه السلام: ﴿رَّبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤] »[(١)].

وقال ابن القيم في رسالته لبعض إخوته في الإيمان موضّحًا محاور استجلاب السعادة واستثباتها وزيادتها وهي ثلاث: شكر النعمة، والصبر على البلاء، والتوبة من الذنب: «بسم الله الرحمن الرحيم، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم، اللهُ سبحانه وتعالى المسؤول المرجوّ الإجابة أن يتولاكم في الدنيا والآخرة، وأن يسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة، وأن يجعلكم ممن إذا أنعم عليه شكر، وإذا ابتلي صبر، وإذا أذنب استغفر. فإن هذه الأمور الثلاثة عنوان سعادة العبد[(٢)]، وعلامة فلاحه في دنياه وأخراه، ولا ينفك عبد عنها أبدًا. فإن العبد دائم التقلب بين هذه الأطباق الثلاث:

الأول: نعم من الله تعالى تترادف عليه فقيدُها الشكر، وهو مبني على ثلاثة أركان: الاعتراف بها باطنًا، والتحدث بها ظاهرًا، وتصريفها في مرضاة

(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٠-٧١).

(٢) وجعلها الإمام المجدد في مقدمة القواعد الأربع.


www.alukah.net

وليها ومسديها ومعطيها. فإذا فعل ذلك فقد شكرها مع تقصيره في شكرها.

الثاني: محنٌ من الله تعالى يبتليه بها ففرضُه فيها الصبر والتسلّي. والصبر: حبس النفس عن التسخط بالمقدور، وحبس اللسان عن الشكوى، وحبس الجوارح عن المعصية كاللطم وشق الثياب ونتف الشعر ونحوه. فمدار الصبر على هذه الأركان الثلاثة.

فإذا قام به العبد كما ينبغي؛ انقلبت المحنة في حقه منحة، واستحالت البليّة عطيّة، وصار المكروه محبوبًا، فإن الله سبحانه وتعالى لم يبتله ليهلكه، وإنما ابتلاه ليمتحن صبره وعبوديته. فإن لله تعالى على العبد عبودية الضراء، وله عبودية عليه فيما يكره كما له عبودية فيما يحب. وأكثر الخلق يعطون العبودية فيما يحبون، والشأن في إعطاء العبودية في المكاره. ففيه تفاوت مراتب العباد، وبحسبه كانت منازلهم عند الله تعالى. فالوضوء بالماء البارد في شدة الحر عبودية، ومباشرة زوجته الحسناء التي يحبها عبودية، ونفقته عليها وعلى عياله ونفسه عبودية.

هذا والوضوء بالماء البارد في شدة البرد عبودية، وتركه المعصية التي اشتدت دواعي نفسه إليها من غير خوف من الناس عبودية، ونفقته في الضراء عبودية. ولكن فرق عظيم بين العبودتين، فمن كان عبدًا لله في الحالتين، قائمًا بحقه في المكروه والمحبوب فذلك الذي تناوله قوله تعالى: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦] وفي القراءة الأخرى ﴿عِبَادِهِۦ﴾ وهما سواء لأن المفرد مضاف، فيعمّ الجميع. فالكفاية التامة مع العبودية التامة والناقصة بحسَبها،


شبكة الألوكة - قسم الكتب

فمن وجد خيرًا فليحمد الله، ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه.

وهؤلاء هم عباده الذين ليس لعدوه عليهم سلطان قال تعالى: ﴿ إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ ﴾ [الحجر: ٤٢] ولما علم عدو الله إبليس أن الله تعالى لا يُسلم عباده إليه ولا يسلطه عليهم قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢ - ٨٣] وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُۥ فَٱتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُۥ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَـٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْـَٔاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ ﴾ [سبأ: ٢٠ - ٢١].

فلم يجعل لعدوه سلطانًا على عباده المؤمنين، فإنهم في حرزه وكلاءته وحفظه وتحت كنفه، وإن اغتال عدوُّه أحدَهم كما يغتال اللصُّ الرجلَ الغافل؛ فهذا لا بد منه. لأن العبد قد بُلي بالغفلة والشهوة والغضب، ودخوله على العبد من هذه الأبواب الثلاثة ولو احترز العبد ما احترز فلا بد له من غفلة، ولا بد له من شهوة، ولا بد له من غضب.

وقد كان آدم أبو البشر ﷺ من أحلم الخلق وأرجحهم عقلًا وأثبتهم، ومع هذا فلم يزل به عدو الله حتى أوقعه فيه، فما الظنّ بفراشة الحلم، ومن عقله في جنب عقل أبيه كتفلة في بحر؟! ولكن عدو الله لا يَخلُص إلى المؤمن إلا غِيلةً على غرة وغفلة، فيوقعه، ويظن أنه لا يستقبل ربه عز وجل بعدها، وأن تلك الوقعة قد اجتاحته وأهلكته. وفضل الله تعالى ورحمته وعفوه ومغفرته وراء ذلك كله.

فإذا أراد الله بعبده خيرا فتح له من أبواب التوبة والندم والانكسار


www.alukah.net

والذل والافتقار والاستعانة به وصدق اللجأ إليه ودوام التضرع والدعاء، والتقرب إليه بما أمكن من الحسنات ما تكون تلك السيئة به رحمه، حتى يقول عدو الله: يا ليتني تركته ولم أوقعه!

وهذا معنى قول بعض السلف(١): إن العبد ليعمل الذنب يدخل به الجنة، ويعمل الحسنة يدخل بها النار. قالوا: كيف؟! قال: «يعمل الذنب فلا يزال نصب عينيه منه مشفقًا وجلًا باكيًا نادمًا مستحييًا من ربه تعالى، ناكس الرأس بين يديه، منكسر القلب له؛ فيكون ذلك الذنب أنفعُ له من طاعات كثيرة، بما ترتب عليه من هذه الأمور التي بها سعادة العبد وفلاحه، حتى يكون ذلك الذنب سبب دخوله الجنة.

ويفعل الحسنة، فلا يزال يمنُّ بها على ربه، ويتكبّر بها، ويرى نفسه، ويعجب بها، ويستطيل بها، ويقول: فعلتُ وفعلتُ، فيورثه من العجب والكبر والفخر والاستطالة؛ ما يكون سبب هلاكه.

فإذا أراد الله تعالى بهذا المسكين خيرًا ابتلاه بأمر يكسره به، ويذلّ به عنقه، ويصغّر به نفسه عنده. وإن أراد به غير ذلك خلّاه وعجبه وكبره، وهذا هو الخذلان الموجب لهلاكه.

فإن العارفين كلهم مجمعون على أن التوفيق: أن لا يكلك الله تعالى إلى نفسك، والخذلان: أن يكلك الله تعالى إلى نفسك. فمن أراد الله به خيرًا فتح

---

(١) وهو الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



له باب الذل والانكسار ودوام اللجأ إلى الله تعالى والافتقار إليه، ورؤية عيوب نفسه وجهلها وعدوانها، ومشاهدة فضل ربه وإحسانه ورحمته وجوده وبرِّه وغناه وحمده.

فالعارفُ سائر إلى الله تعالى بين هذين الجناحين، لا يمكنه أن يسير إلا بهما، فمتى فاته واحد منهما فهو كالطير الذي فقد أحد جناحيه.

قال شيخ الإسلام: «العارف يسير إلى الله بين مشاهدة المنّة ومطالعة عيب النفس والعمل» وهذا معنى قوله ﷺ في الحديث الصحيح من حديث بريدة رضي الله تعالى عنه: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللّهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعتُ، أبوء بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب إلا أنت**»(١) فجمع في قوله صلي الله عليه وسلم «**أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي**» مشاهدة المنة ومطالعة عيب النفس والعمل.

فمشاهدة المنة توجب له المحبة والحمد والشكر لولي النعم والإحسان، ومطالعة عيب النفس والعمل توجب له الذل والانكسار والافتقار والتوبة في كل وقت، وأن لا يرى نفسه إلا مفلسًا.

---

(١) رواه البخاري (٦٣٠٦) وليس عنده لفظ:« العبد» وإن كان عند غيره، وزاد: «**من قالها من النهار موقنًا بها، فمات من يومه قبل أن يمسي، فهو من أهل الجنة، ومن قالها من الليل وهو موقن بها، فمات قبل أن يصبح، فهو من أهل الجنة**»، و«**أبوء**»: أعترف.

وأقرب باب دخل منه العبد على الله تعالى هو الإفلاس، فلا يرى لنفسه حالًا ولا مقامًا ولا سببًا يتعلق به، ولا وسيلة منه يمنّ بها، بل يدخل على الله تعالى من باب الافتقار الصِّرْف والإفلاس المحض، دخول من كَسَر الفقر والمسكنة قلبَه، حتى وصلت تلك الكسرة إلى سويدائه فانصدع. وشملته الكسرة من كل جهاته، وشهد ضرورته إلى ربه عز وجل، وكمال فاقته وفقره إليه، وأن في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فاقةٌ تامة وضرورة كاملة إلى ربه تبارك وتعالى، وأنه إن تخلى عنه طرفة عين؛ هلك وخسر خسارة لا تجبر إلا أن يعود الله تعالى عليه ويتداركه برحمته.

ولا طريق إلى الله أقرب من العبودية، ولا حجاب أغلظ من الدعوى. والعبودية مدارها على قاعدتين هما أصلها: حب كامل، وذل تام.

ومنشأ هذين الأصلين عن ذينك الأصلين المتقدمين: وهما مشاهدة المنة التي تورث المحبة، ومطالعة عيب النفس والعمل التي تورث الذل التام. وإذا كان العبد قد بنى سلوكه إلى الله تعالى على هذين الأصلين؛ لم يظفر عدوُّه به إلا على غرّه وغيلة، وما أسرع ما ينعشه الله عز وجل ويجبره ويتداركه برحمته»(١).

خامسًا: من ثمار الافتقار: الانكفاف عن العصيان، خشية الخذلان وحياء من الرحمن.

---

(١) الوابل الصيب (١/ ١١- ١٧).

فالمؤمن يخشى الله ويتقيه، ويزع نفسه ما اسطاع عن معاصيه، ويعلم أنه مهما احتجب عن أعين الناس فعين الله لا تُخطيه، ويعلم أنه كادح إلى ربه كدحًا فملاقيه.

قال شيخ الإسلام رحمه الله في شأن الرجل الذي يريد أن يظلم أو يهم بمعصية فينزع عنها: «هذا كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١] وقوله: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦] قال مجاهد وغيره من المفسرين: «هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه بين يدي الله؛ فيتركها خوفًا من الله»[(١)].

وإذا كان وجلُ القلب من ذكره، يتضمن خشيته ومخافته؛ فذلك يدعو صاحبه إلى فعل المأمور وترك المحظور. قال سهل بن عبد الله: «ليس بين العبد وبين الله حجاب أغلظ من الدعوى، ولا طريق إليه أقرب من الافتقار، وأصل كل خير في الدنيا والآخرة الخوف من الله»[(٢)] ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُّوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ ۖ وَفِى نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٤] فأخبر أن الهدى والرحمة للذين يرهبون الله. قال مجاهد وإبراهيم: «هو الرجل يريد أن يذنب الذنب فيذكر

---

(١) نقل البغوي في تفسيره (٨/ ٣٣٠) عن مقاتل قال في الآية: «هو الرجل يهم بالمعصية فيذكر مقامه للحساب فيتركها».

(٢) صفة الصفوة (٤/ ٦٥).

مقام الله فيدع الذنب» وهؤلاء هم أهل الفلاح المذكورون في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدٗى مِّن رَّبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [البقرة: ٥] وهم المؤمنون، وهم المتقون المذكورون في قوله تعالى ﴿الٓمٓ ١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدٗى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢] كما قال في آية البر: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧] وهؤلاء هم المتبعون للكتاب كما في قوله تعالى: ﴿فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشۡقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣] وإذا لم يضل فهو متبع مهتد، وإذا لم يشق فهو مرحوم.

وهؤلاء هم أهل الصراط المستقيم الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين غير المغضوب عليهم ولا الضالين. فإن أهل الرحمة ليسوا مغضوبًا عليهم، وأهل الهدى ليسوا ضالين، فتبين أن أهل رهْبةِ الله يكونون متقين لله، مستحقين لجنته بلا عذاب. وهؤلاء هم الذين أتوا بالإيمان الواجب.

ومما يدل على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨] والمعنى: أنه لا يخشاه إلا عالم؛ فقد أخبر الله أن كل من خشي الله فهو عالم، كما قال في الآية الأخرى: ﴿أَمَّنۡ هُوَ قَٰنِتٌ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ سَاجِدٗا وَقَآئِمٗا يَحۡذَرُ ٱلۡأٓخِرَةَ وَيَرۡجُواْ رَحۡمَةَ رَبِّهِۦۗ قُلۡ هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلَّذِينَ يَعۡلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩] والخشية أبدا متضمنةٌ للرجاء، ولولا ذلك لكانت قنوطًا، كما أن الرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنًا. فأهل الخوف لله والرجاء له هم أهل العلم الذين مدحهم الله.

وقد روي عن أبي حيان التيمي أنه قال: «العلماء ثلاثة، فعالم بالله ليس عالما بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس عالمًا بالله، وعالم بالله عالم بأمر الله»(١) فالعالم بالله هو الذي يخافه، والعالم بأمر الله هو الذي يعلم أمره ونهيه. وفي الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: **«والله إني لأرجو أن أكون أخشاكم لله، وأعلمكم بحدوده»**(٢) وإذا كان أهل الخشية هم العلماء الممدوحون في الكتاب والسنة لم يكونوا مستحقين للذم، وذلك لا يكون إلا مع فعل الواجبات»(٣).

سادسًا: ومن ثمرات صدق الافتقار إلى الله: سكينة القلب وزهادته في الدنيا.

فلا تقلقله زعازع الدنيا فهو لا يراها مستحقة لذلك الهم والغم إذ هو مُعرِضٌ بقلبه عنها وإن كانت يديه فيها، بل حاله سكوتُ اللسان عن حديث

---

(١) ذكر ابن أبي حاتم في تفسيره (١٠/ ٣١٨٠) من طريق سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: «كان يقال: العلماء ثلاثة: عالم بالله، وعالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله. فالعالم بالله وبأمر الله الذي يخشى الله ويعلم الحدود والفرائض، والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض، والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله».

(٢) مسلم (١١١٠) بلفظ: **«وأعلمكم بما أتقي»**.

(٣) مجموع الفتاوى: (٧/ ٢١-٢٢).

الدنيا ذمًّا أومدحًا، فمن اهتم بأمر وكان له في قلبه موقع؛ اشتغل لسانه بما فاض على قلبه من أمره مدحًا أو ذمًّا، فإنه إن حصلت له مدَحَها، وإن فاتته ذَّمها. ومدحُها وذمُّها علامة موضعها من القلب وخطرها، فحيث اشتغل اللسان بذمها كان بذلك لخطرها في القلب، لأن الشيء إنما يُذم على قدر الاهتمام به والاعتناء بشفاء الغيظ منه بالذم(١).

«وكذلك تعظيم الزهد فيها إنما هو على قدر خطرها في القلب، إذ لولا خطرها وقدرها لما صار للزهد فيها خطر، وكذلك مدحها دليل على خطرها وموقعها من قلبه، فإن من أحب شيئًا أكثر من ذكره.

وصاحب هذه الدرجة لا يضبطها مع وجودها ولا يطلبها مع عدمها، ولا يفيض من قلبه على لسانه مدح لها يدل على محبتها، ولا يفيض من القلب على اللسان ذم يدل على موقعها وخطرها. فإن الشيء إذا صغر أعرض القلب عنه مدحًا أو ذمًّا.

وكذلك صاحب هذه الدرجة سالم عن النظر إلى تركها، وهو الذي تقدم من ذكر خطر الزهد فيها، لأن نظر العبد إلى كونه تاركًا لها زاهدًا فيها تتشرف نفسه بالترك وتتلذذ به؛ دليل على شغله بها، ولو على وجه الترك، وذلك من خطرها وقدرها(٢). ولو صغرت في القلب لصغر تركها والزهد فيها، ولو

---

(١) وينظر ما سبق من الكلام على الزهد في بيان علامات الافتقار لله تعالى.

(٢) فالمدح إنما هو بالذهول والإعراض عن ملاحظة فتنتها وعن ملاحظة ترك فتنتها كذلك لأنه باب للعُجب.



اهتم القلب بمهم من المهمات المطلوبة التي هي فاقات أهل القلوب الأرواح لذهل عن النظر إلى نفسه بالزهد والترك.

فصاحب هذه الدرجة معافى من هذه الأمراض كلها من مرض الضبط والطلب والذم والمدح والترك، فهي بأسرها وإن كان بعضها ممدوحًا في العلم مقصودًا يستحق المتحقق به الثواب والمدح، لكنها آثار وأشكال مشعرة بأن صاحبها لم يذق حال الخلوِّ والتجريد الباطن، فضلًا عن أن يتحقق من الحقائق المتوقعة المتنافس فيها.

فصاحب هذه الدرجة متوسط بين درجتي الداخل بكليّته في الدنيا قد ركن إليها واطمأن إليها واتخذها وطنًا وجعلها له سكنًا، وبين من نفضها بالكلية من قلبه ولسانه، وتخلّص من قيودها ورعونتها وآثارها، وارتقى إلى ما يسرّ القلب ويحييه ويفرحه ويبهجه من جذَبات العزَّة. فهو في البرزخ كالحامل المُقْرِب[١]، ينتظر ولادة الروح والقلب صباحًا ومساءً، فإن من لم تولد روحه وقلبه ويخرج من مشيمة نفسه، ويتخلّص من ظلمات طبعه وهواه وإرادته، فهو كالجنين في بطن أمه الذي لم ير الدنيا وما فيها؛ فهكذا هذا الذي بَعْدُ في مشيمة النفس والظلمات الثلاث التي هي ظلمة النفس وظلمة الطبع وظلمة الهوى، فلا بد من الولادة مرتين، كما قال المسيح للحواريين: «إنكم لن تلجوا ملكوت السماء حتى تولدوا مرتين»[٢].

---

(١) أي على وشك الولادة.

(٢) والملكوت في لغة أهل الكتاب هو الجنة.

والمقصود: أن القلوب في هذه الولادة ثلاثة:

قلب لم يولد ولم يأنِ له، بل هو جنين في بطن الشهوات والغي والجهل والضلال.

وقلب قد وُلد وخرج إلى فضاء التوحيد والمعرفة، وتخلّص من مشيمة الطباع وظلمات النفس والهوى، فقرّت عينه بالله، وقرت عيونٌ به وقلوب، وأنست بقربه الأرواح، وذكّرت رؤيته بالله، فاطمأن بالله وسكن إليه وعكف بهمته عليه، وسافرت هممه وعزائمه إلى الرفيق الأعلى. لا يقر بشيء غير الله، ولا يسكن إلى شيء سواه، ولا يطمئن بغيره، يجد من كل شيء سوى الله عوضًا، لا يجد من الله عوضًا أبدًا. فذكره حياة قلبه ورضاه غاية مطلبه، ومحبتُه قُوتُه، ومعرفتُه أنيسُه. عدوُّه من جذب قلبه عن الله وإن كان القريب المصافيا، ووليُّه من ردّه إلى الله وجمع قلبه عليه وإن كان البعيد المناويا. فهذان قلبان متباينان غاية التباين.

وقلب ثالث في البرزخ، ينتظر الولادة صباحًا ومساءً، قد أصبح على فضاء التجريد، وآنس من خلال الديار أشعة التوحيد. تأبى غلَبات الحب والشوق إلا تقربًا إلى مَنِ السعادةُ كلُّها بقربه، والحظُّ كل الحظّ في طاعته وحبه. وتأبى غلَبات الطباع إلا جذبه وإيقافه وتعويقه. فهو بين الداعيَين تارة وتارة، قد قطع عقبات وآفات، وبقي عليه مفاوز وفلوات(١).

---

(١) وهذا حال أكثر المؤمنين وهي النفس اللوامة، والله المستعان.

والمقصود: أن صاحب هذا المقام إذا تحقق به ظاهرًا وباطنًا، وسلِم عن نظر نفسه إلى مقامه واشتغاله به ووقوفه عنده؛ فهو فقير حقيقي، ليس فيه قادح من القوادح التي تحطه عن درجة الفقر.

واعلم أنه يحسن إعمال اللسان في ذم الدنيا في موضعين:

أحدهما: موضع التزهيد فيها للراغب. والثاني: عندما يرجع به داعي الطبع والنفس إلى طلبها، ولا يأمن من إجابة الداعي. فيستحضرُ في نفسه قلّة وفائها وكثرة جفائها وخسة شركائها، فإنه إن تمَّ عقلُه وحضر رشدُه زهد فيها ولا بد.

وهناك درجة أرفع من الأولى وأعلى، والأُولى كالوسيلة إليها، لأن في الدرجة الأولى يتخلى بفقره عن أن يتألَّه غير مولاه الحق، وأن يُضيع أنفاسه في غير مرضاته، وأن يفرّق همومه في غير محابّه، وأن يؤثر عليه في حال من الأحوال. فيوجبُ له هذا الخلوُّ وهذه المعاملة صفاءَ العبودية، وعِمارة السرِّ بينه وبين الله، وخلوص الوداد والمحبة، فيصبح ويمسي ولا هم له غير ربه، قد قطع همُّه بربِّه عنه جميع الهموم، وعطّلت إرادتُه جميع الإرادات، ونسخت محبتُه له من قلبه كلَّ محبة لسواه، كما قيل:

لقد كان يسبي القلبَ في كل ليلة ... ثمانون بل تسعون نفسًا وأرجحُ
يهيمُ بهذا ثم يألفُ غيرَه ... ويسلوهُمُ من فوره حين يصبحُ
وقد كان قلبي ضائعًا قبل حبكم ... فكان بحبِّ الخلق يلهو ويمرحُ
فلما دعا قلبي هواكَ أجابه ... فلستُ أُراهُ عن خبائك يبرحُ

حُرِمْتُ الأماني منك إن كنتُ كاذبًا ... وإن كنتُ في الدنيا بغيرك أفرحُ
وإن كان شيء في الوجود سواكمُ ... يقرُّ به القلبُ الجريح ويفرحُ
إذا لعبتْ أيدي الهوى بمُحبِّكم ... فليس له عن بابكم متزَحزحُ
فإن أدركتْه غربةٌ عن دياركم ... فحبُّكمُ بين الحشا ليس يبرحُ
وكم مشترٍ في الخلق قد سامَ قلبَه ... فلم يره إلا لحبِّك يصلُحُ
هوى غيرِكم نارٌ تلظَّى ومحبسٌ ... وحبُّكمُ الفردوسُ أو هو أفسَحُ
فيا ضيمَ قلبٍ قد تعلَّق غيرَكم ... ويا رحمتا ممّا يجولُ ويكدحُ(١)

والله سبحانه لم يجعل لرجل من قلبين في جوفه، فبقدر ما يدخل القلبَ من همّ وإرادة وحب؛ يخرج منه همٌّ وإرادةٌ وحبٌّ يقابله، فهو إناء واحد والأشربة متعددة، فأي شراب ملأه لم يبق فيه موضع لغيره، وإنما يمتلئ الإناء بأعلى الأشربة إذا صادفه خاليًا، فأما إذا صادفه ممتلئًا من غيره لم يساكنه حتى يَخرج ما فيه ثم يسكن موضعه، كما قال بعضهم:

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى ... فصادف قلبًا خاليًا فتمكّنا(٢)

ففقرُ صاحب هذه الدرجة تفريغُه إنائه من كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة، لأن كل شراب غير شراب المحبة والمعرفة فمسكرٌ ولا بدّ، «**وما**

---

(١) الأبيات لسمنون بن حمزة، وانظر: صفة الصفوة: (١/٤٨٥) مع التنبيه لحُرمة وصف محبة الله تعالى بالهوى، فهو من سوء الأدب مع جلاله سبحانه.
(٢) لمجنون بني عامر، ونسب ليزيد بن الطثرية، ونازعهما ديوان ديك الجن عليه، والأشبه أنها للمجنون.



أسكر كثيره فقليله حرام»[١] وأين سكرُ الهوى والدنيا من سكر الخمر؟! وكيف يوضع شراب التسنيم الذي هو أعلى أشربة المحبين في إناء ملآن بخمرِ الدنيا والهوى، ولا يفيق من سكره ولا يستفيق؟!

ولو فارق هذا السكرُ القلبَ لطار بأجنحة الشوق إلى الله والدار الآخرة، ولكن رضي المسكينُ بالدون، وباع حظه من قرب الله ومعرفته وكرامته بأخسِّ الثمن صفقةَ خاسرٍ مغبون، فسيعلمُ أيَّ حظ أضاع إذا فاز المحبون، وخسر المبطلون! »[٢]. وبالله التوفيق والاعتصام والاستغناء والاستعانة.

❁❁❁❁

---

(١) أحمد (٦٦٧٤) والنسائي (٨/ ٣٠٠) بسند حسن، وعليه العمل عند أهل العلم.

(٢) طريق الهجرتين: (١/ ٢٦-٣٤) باختصار.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

كيف يحقق المؤمن عبودية الافتقار؟

إن شأن الافتقار إلى الله عظيم، فهو سحابة الغيث، وينبوع الإمداد، ومستمنَحُ الفوائد، ومستَدفَعُ الشرور، والمُوَفّقُ من وفّقه الله لطرق بابه، والولوجِ لرحابه. وعلى قدر اعتراف العبد بفقره لربه وحاجته وضرورته إليه يكون فَرَجُهُ وفتحُ بابِ رزقِه وغناه، فلا بد من الاعتراف والإقرار بالضرورة التامة للخلاق العليم والرحيم الكريم. وإن أمرًا هذا شأنه وفضله ومكانته وعظمته لحقيق بنفيس العناية ووفير الهمّة وشديد الاجتهاد. وبحمد الله فقد يسر الله للخير سبله وهيأ طرائقه، فمن ذلك:

أولًا: العلم بكمال الربوبية والألوهية لله دون سواه.

قال تقي الدين رحمه الله: «فليس لشيء وجود من نفسه، وإنما وجوده من ربه، والأشياء باعتبار أنفسها لا تستحق سوى العدم، وإنما حصل لها الوجود من خالقها وبارئها فهي دائمة الافتقار إليه، لا تستغني عنه لحظة لا في الدنيا ولا في الآخرة»(١).

فالافتقار شعور والشعور لا بد أن يسبقه العلم، ولا علم إلا ما جاء به الرسول ﷺ. فإذا كان العلم صحيحًا كان الشعور حقًّا، وعلى قدر العلم والشعور تتحرك الإرادة ويزكو الإيمان وتثمر شجرة الإحسان.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/ ٣٤٥).


شبكة الألوكة - قسم الكتب

وطريقة تحصيل الافتقار المحمود هنا: أن يشهد المؤمن بقلبه أن الله وحده هو الغني المطلق وكل ما سواه فقير محتاج إليه.

فلله سبحانه كمال صفات الجلال والجمال، فله الكمال المطلق بكل وجه من الوجوه، وله الغنى التام، فهو الغني لا منتهى لغناه، الملك لا حدود لملكه وسلطانه، الحميد في كل صفاته وأفعاله، الحي الذي لا يموت، القيوم الذي لا ينام، الصمد الذي تصمد إليه الخلائق في حوائجها اضطرارًا لفضله وجوده وإحسانه.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال الله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥] فبين سبحانه في هذه الآية أن فقر العباد إليه أمر ذاتي لهم لا ينفك عنهم، كما أن كونه غنيًّا حميدًا فغناه ذاتي له، وحمده ثابت له لذاته لا لأمر أوجبه، وفقر من سواه إليه ثابت لذاته لا لأمر أوجبه.

فالخلق فقير محتاج إلى ربه بالذات(١) لا بعلة، وكل ما يذكر ويقدر من أسباب الفقر والحاجة فهي أدلة على الفقر والحاجة، لا علل لذلك، إذا ما بالذات لا يعلل، فالفقير بذاته محتاج إلى الغني بذاته.

والمقصود أنه سبحانه أخبر عن حقيقة العباد وذواتهم بأنها فقيرة إليه سبحانه، كما أخبر عن ذاته المقدسة وحقيقته أنه غني حميد. فالفقر المطلق من كل وجه ثابت لذواتهم وحقائقهم من حيث هي، والغنى المطلق من كل وجه

(١) أي أن ذاته فقيرة بنفسها وخِلْقتها وليس بسببٍ خارج عنها.

ثابت لذاته تعالى وحقيقته من حيث هي[١]، فيستحيل أن يكون العبد إلا فقيرًا، ويستحيل أن يكون الرب سبحانه إلا غنيًّا، كما أنه يستحيل أن يكون العبدُ إلا عبدًا والربُّ إلا ربًّا.

إذا عرف هذا فالفقر فقران:

فقر اضطراري: وهو فقر عام لا خروج لبرٍّ ولا فاجر عنه، وهذا الفقر لا يقتضي مدحًا ولا ذمًّا ولا ثوابًا ولا عقابًا، بل هو بمنزلة كون المخلوق مخلوقًا ومصنوعًا.

والفقر الثاني: فقر اختياري، هو نتيجة عِلْمين شريفين:

أحدهما: معرفة العبد بربه، والثاني معرفته بنفسه. فمتى حصلت له هاتان المعرفتان أنتجتا فقرًا هو عين غناه وعنوان فلاحه وسعادته.

وتفاوت الناس في هذا الفقر[٢] بحسب تفاوتهم في هاتين المعرفتين، فمن عرف ربه بالغنى المطلق؛ عرف نفسه بالفقر المطلق، ومن عرف ربه بالقدرة

---

(١) قال شيخ الإسلام: «لما كانت شواهد الافتقار في أعيان العالم واحتياجها إلى الصانع بينة ظاهرة، بل معلومة بالبديهة؛ كان معلومًا مع ذلك أن كلًّا منها مُحدَثٌ مخلوق كائن بعد أن لم يكن في فطر العامة. فإن الأمر مبني على مقدمتين:
إحداهما: أن هذا المعين مفتقر إلى فاعل، إذ هو ليس بواجب بنفسه.
والثانية: أن ما افتقر إلى فاعل لم يكن إلا مُحدَثًا، فإذا كل شيء من العالم تثبت فيه هاتان المقدمتان» الصفدية (٢/ ١٦٠).

(٢) أي: الاختياري الذي ترتب عليه المدح والثناء والجزاء الحسن.

التامة؛ عرف نفسه بالعجز التام، ومن عرف ربه بالعزّ التام؛ عرف نفسه بالمسكنة التامة، ومن عرف ربه بالعلم التام والحكمة؛ عرف نفسه بالجهل.

فالله سبحانه أخرج العبد من بطن أمه لا يعلم شيئًا، ولا يقدر على شيء، ولا يملك شيئًا، ولا يقدر على عطاء ولا منع ولا ضر ولا نفع ولا شيء البتة، فكان فقره في تلك الحال إلى ما به كماله أمرًا مشهودًا محسوسًا لكل أحد. ومعلوم أن هذا له من لوازم ذاته، وما بالذات دائم بدوامها.

وهو لم ينتقل من هذه الرتبة إلى رتبة الربوبية والغنى، بل لم يزل عبدًا فقيرًا بذاته إلى بارئه وفاطره، فلما أسبغ عليه نعمته، وأفاض عليه رحمته، وساق إليه أسباب كمال وجوده ظاهرًا وباطنًا، وخلع عليه ملابس إنعامه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد، وعلّمه وأقدره وصرفه وحرّكه، ومكّنه من استخدام بني جنسه، وسخّر له الخيل والإبل، وسلّطه على دواب الماء، واستنزال الطير من الهواء، وقهر الوحوش العادية، وحفر الأنهار، وغرس الأشجار، وشق الأرض، وتعلية البناء، والتحيّل على مصالحه، والتحرز والتحفظ مما يؤذيه؛ ظن المسكين أن له نصيبًا من الملك، وادّعى لنفسه ملكًا مع الله سبحانه، ورأى نفسَه بغير تلك العين الأولى، ونسي ما كان فيه من حالة الإعدام والفقر والحاجة، حتى كأنه لم يكن هو ذلك الفقير المحتاج، بل كأن ذلك شخصًا آخر غيره، كما روى الإمام أحمد في مسنده من حديث بُسْر بن جِحَاش القرشي أن رسول الله ﷺ بصق يومًا في كفّه فوضع عليها إصبعه ثم قال: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم، أنّى تعجزني وقد خلقتك من مثل هذه، حتى إذا سويتُك وعدلتُك**

مشيت بين بردين وللأرض منك وئيد[١]**، فجمعتَ ومنعتَ، حتى إذا بلغت التراقي قلتَ: أتصدّقُ، وأنّى أوان الصدقة»**[٢].

ومن ههنا خُذل مَن خُذل، ووُفّق من وفّق، فحُجب المخذول عن حقيقته، ونسي نفسه، فنسي فقره وحاجته وضرورته إلى ربه، فطغى وعتا، فحقّت عليه الشقوة، قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] وقال: ﴿فَأَمَّا مَنۡ أَعۡطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡيُسۡرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسۡتَغۡنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِٱلۡحُسۡنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلۡعُسۡرَىٰ﴾ [الليل: ٥ – ١٠].

فأكمل الخلق أكملهم عبودية، وأعظمهم شهودًا لفقره وضرورته وحاجته إلى ربه، وعدم استغنائه عنه طرفة عين، ولهذا كان من دعائه ﷺ: **«أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين، ولا إلى أحد من خلقك»**[٣].

وكان يدعو: **«يا مقلب القلوب، ثبت قلبي على دينك»**[٤] يعلم أن قلبه بيد الرحمن عز وجل، لا يملك منه شيئًا، وأن الله سبحانه يصرفه كما يشاء،

---

(١) وئيد: أي صوت شدة صوت الوطء على الأرض.

(٢) أحمد (١٧٨٤٢) وابن ماجه (٢٧٠٧) والحاكم (٣٨٥٥) وصححه، وصححه كذلك البوصيري وابن حجر. والألباني في صحيح الجامع (٨١٤٤).

(٣) أحمد (٢٠٤٣٠) مطولًا، وأبو داود (٥٠٩٠) وحسّنه ابن حجر.

(٤) أحمد (١٧٦٣٠) وابن ماجه (١٩٩) وغيرهما.

كيف وهو يتلو قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾ [الإسراء: ٧٤] فضرورته إلى ربه وفاقته إليه بحسب معرفته به وحسب قربه منه ومنزلته عنده.

وهذا أمر إنما لمن بعده منه ما يرشح من ظاهر الوعاء، ولهذا كان أقرب الخلق إلى الله وسيلة، وأعظمهم عنده جاهًا، وأرفعهم عنده منزلة؛ لتكميله مقام العبودية والفقر إلى ربه.

وكان يقول: «**لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا: عبدالله ورسوله**»[1].

وذكره الله سبحانه بسِمة العبودية في أشرف مقاماته: مقام الإسراء، ومقام الدعوة، ومقام التحدي. فقال: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا ﴾ [الإسراء: ١] وقال: ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ ﴾ [الجن: ١٩] وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣] وفي حديث الشفاعة: إن المسيح يقول لهم: «**اذهبوا إلى محمد عبد غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر**»[2] فنال ذلك المقام بكمال عبوديته لله، وبكمال مغفرة الله له.

فتأمل قوله تعالى في الآية: ﴿أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [فاطر: ١٥] باسم الله دون اسم الربوبية؛ ليؤذن بنوعي الفقر، فإنه كما تقدم نوعان: فقر إلى ربوبيته،

---

(١) البخاري (٣٤٤٥).

(٢) البخاري (٤٤٧٦).

وهو فقر المخلوقات بأسرها، وفقر إلى ألوهيته، وهو فقر أنبيائه ورسله وعباده الصالحين، وهذا هو الفقر النافع، والذي يشير إليه القوم ويتكلمون عليه ويشيرون إليه هو الفقر الخاص لا العام. وقد اختلفت عباراتهم عنه ووصفهم له وكل أخبر عنه بقدر ذوقه وقدرته على التعبير.

هذا والعبد إنما هو مملوك ممتحن في صورة ملك متصرف، كما قال تعالى: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلَائِفَ فِي الْأَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴾ [يونس: ١٤] ومن ادعى لنفسه حالةً مع الله سبحانه وُكِل إليها، ومن وُكِل إلى شيء غير الله فقد فتح له باب الهلاك والعطب، وأغلق عنه باب الفوز والسعادة، فإن كل شيء ما سوى الله باطل، ومن وكل إلى الباطل بطل عمله وضل سعيه ولم يحصل إلا على الحرمان، فكل من تعلق بغير الله انقطع به أحوج ما كان إليه، كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ ﴾ [البقرة: ١٦٦].

فالأسباب التي تقطعت بهم هي العلائق التي بغير الله ولغير الله، تقطعت بهم أحوج ما كانوا إليها، وذلك لأن تلك الغايات لما اضمحلت وبطلت اضمحلت أسبابها وبطلت، فإن الأسباب تبطل ببطلان غاياتها وتضمحل باضمحلالها، وكل شيء هالك إلا وجهه سبحانه، وكل عمل باطل إلا ما أريد به وجهه، وكل سعي لغيره باطل ومضمحل.

وهذا كما يشاهده الناس في الدنيا من اضمحلال السعي والعمل والكد والخدمة التي يفعلها العبد لمتول أو أمير أو صاحب منصب أو مال، فإذا زال

ذلك الذي عمل له؛ عُدِم ذلك العمل، وبطل ذلك السعي، ولم يبق في يده سوى الحرمان.

ولهذا كان المشرك من أخسر الناس صفقة، وأغبنهم يوم معاده، فإنه يُحال على مفلس كل الإفلاس، بل على عدم، والموحِّد حوالتُه على المليء الكريم، فيا بُعْدَ ما بين الحوالتين!

والمُوفّقون لا يرون لأنفسهم ملكًا حقيقيًّا، بل يرون ما في أيديهم لله عاريّةً ووديعة في أيديهم، ابتلاهم به لينظر هل يتصرفون فيه تصرف العبد أو تصرف الملاك الذين يعطون لهواهم ويمنعون لهواهم. فوجود المال في يد الفقير لا يقدح في فقره، إنما يقدح في فقره رؤيته لملكته، فمن عوفي من رؤية الملكة لم يتلوّث باطنه بأوساخ المال وتعبه وتدبيره واختياره، وكان كالخازن لسيده الذي ينفذ أوامره في ماله، فهذا لو كان بيده من المال أمثال جبال الدنيا لم يضرّه.

ومن لم يُعافَ من ذلك ادعت نفسه المَلَكَة، وتعلقت به النفس تعلقها بالشيء المحبوب المعشوق، فهو أكبر همه ومبلغ علمه، إن أعطي رضي وإن منع سخط، فهو عبد الدينار والدرهم، يصبح مهمومًا ويمسي كذلك، يبيت مضاجعًا له، تفرح نفسه إذا ازداد، وتحزن وتأسف إذا فات منه شيء، بل يكاد يتلف إذا توهمت نفسه الفقر، وقد يؤثر الموت على الفقر.

والأول مستغن بمولاه المالك الحق الذي بيده خزائن السموات والأرض، وإذا أصاب المال الذي في يده نائبة؛ رأى أن المالك الحق هو الذي



أصاب مال نفسه، فما للعبد وما للجزع والهلع؟ وإنما تصرف مالك المال في ملكه الذي هو وديعة في يد مملوكه، فله الحكم في ماله، إن شاء أبقاه وإن شاء ذهب به وأفناه، فلا يتهم مولاه في تصرفه في ملكه، ويرى تدبيره هو موجب الحكمة، فليس لقلبه بالمال تعلق ولا له به اكتراث، لصعوده عنه وارتفاع همته إلى المالك الحق، فهو غني به وبحبه ومعرفته وقربه منه عن كل ما سواه، وهو فقير إليه دون ما سواه، فهذا هو البريء عن رؤية الملكة الموجبة للطغيان، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧] ولم يقل إن استغنى، بل جعل الطغيان ناشئًا عن رؤيته غنى نفسه[(١)].

ولم يذكر هذه الرؤية في سورة الليل، بل قال: ﴿وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٨ - ١٠] وهذا والله أعلم لأنه ذكر في سورة العلق موجب طغيانه وهو رؤية غنى نفسه، وذكر في سورة الليل موجب هلاكه وعدم تيسيره لليسرى وهو استغناؤه عن ربه بترك طاعته وعبوديته، فإنه لو افتقر إليه لتقرب إليه بما أمره من طاعته فعل المملوك الذي لا غنى له عن مولاه طرفة عين، ولا يجد بدًّا من امتثال أوامره، ولذلك ذكر معه بخله وهو تركه إعطاء ما وجب عليه من الأقوال والأعمال وأداء المال، وجمع إلى ذلك تكذيبه بالحسنى، وهي التي وعد بها أهل الإحسان بقوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦].

(١) فالمال ليس مطغيًا بذاته بل بظنّ صاحبه أنه استغنى به.



ومن فسرها بشهادة أن لا إله إلا الله فلأنها أصل الإحسان وبها تنال الحسنى، ومن فسرها بالخلف في الإنفاق فقد هضم المعنى حقه، وهو أكبر من ذلك، وإن كان الخلف جزءًا من أجزاء الحسنى.

والمقصود: أن الاستغناء عن الله سبب هلاك العبد وتيسيره للعُسرى، ورؤيته غنى نفسه سبب طغيانه، وكلاهما مناف للفقر والعبودية»[١].

ثانيًا: الإقرار بالافتقار إلى الله تعالى.

«والإقرار بالافتقار من أجلى الأدلة على التوحيد وحقيقة الإيمان، والخلاف فيه بين الكافر والمؤمن من أعظم ما يميز كلًّا منهما عن الآخر، ثم هو مما يميز الذاكرين الصابرين عن الغافلين الهلعين من المؤمنين.

فالمؤمن مقر بافتقاره إلى الله في كل لحظة عين، شاكرًا لأنعُمِهِ، ذاكرًا لآلائه في حال الرخاء والشدة معًا، يأكل الأكلة فيحمده عليها ويشرب الشربة فيحمده عليها، ولا يمل دعاءه ولو لأدنى حاجاته.

وبالجملة هو مشاهد لحقيقة افتقاره إلى مولاه يدعوه صباحًا ومساءً بما أوصى به النبي ﷺ ابنته فاطمة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا: **«يا حيّ يا قيوم برحمتك استغيث، أصلح لي شأني كله ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين»**[٢].

بل إن المؤمن ليستشعر ذلك في أعزّ ساعات الانتصار والتمكين. وقد

---

(١) طريق الهجرتين (١/ ١٢- ٣٤) باختصار.

(٢) البخاري في الأدب المفرد (٧٠١) وأبو داود (٥٠٩٠) وهو حسن بشواهده.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قصّ الله تعالى من حال أنبيائه في القرآن ما فيه بيان وقدوة؛ فهذا يوسف عليه السلام في اللحظة التي تمّ فيها تحقيق رؤياه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيۡهِ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدٗاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ﴾ [يوسف: ١٠٠].

في هذه اللحظة نزع يوسف عليه السلام نفسه من اللقاء والعناق والفرحة والابتهاج ليتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر، كل دعوته وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام: ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١].

وكذلك نبي الله سليمان عليه السلام وقد رأى عرش ملكة سبأ حاضرًا بين يديه، من وراء آلاف الأميال، من قبل أن يرتد إليه طرفه: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَٰذَا مِن فَضۡلِ رَبِّي لِيَبۡلُوَنِيٓ ءَأَشۡكُرُ أَمۡ أَكۡفُرُ﴾ [النمل: ٤٠].

وهكذا فعل النبي ﷺ حين دخل مكة فاتحًا منصورًا؛ فإنه دخلها وهو يقرأ سورة الفتح يُرجّع(١)، ونزل بيت أم هانئ فصلى فيه ثماني

(١) خرّجه البخاري في الصحيح (٤٢٨١) ومسلم (٧٩٤) من حديث عبد الله بن مغفّل قال: «رأيت رسول الله ﷺ يوم فتح مكة على ناقته وهو يقرأ سورة الفتح يُرِجِّعُ. وقال: لولا أن يجتمع الناس حولي لرجّعت كما رجّع» والترجيع هو ترديد =



شبكة الألوكة - قسم الكتب

ركعات[1]، وظلّ مكثرًا من التسبيح والاستغفار إلى أن توفاه الله تأويلًا لقوله تعالى: ﴿إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا﴾ [النصر: ١ - ٣].

ولهذا قال أشياخ بدر لعمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «أُمرنا أن نحمد ربنا ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا»[2]، وهكذا فعل سعد بي أبي وقاص يوم فتح المدائن، وجعلها بعض العلماء سنّة فقالوا: يستحب لأمير الجيش إذا فتح بلدًا أن يصليَ فيه أول ما يدخله ثماني ركعات[3].

فهذا حال المؤمنين في حال النعمة وذروة الطمأنينة.

وأما الكافر فإنه مستكبر على ربّه، متمرّد عليه حال الرخاء والنعمة، يكفره ولا يشكره، يستخدم آلاءه في معاصيه، يطغى إذا استغنى ويفسق إذا أترف. حتى إذا ما نزلت به نازلة وأحدقت به كربة وأحاطت به مصيبة سقط من عرش كبريائه الوهمي، وانهار الزيف أمام الواقع، وانكشف الغيم عن الفطرة المكبوتة، فأيقن حينئذ أنه لا يملك حولًا ولا طولًا، وضلّت عنه

=
المدّ بلطف في التلاوة بلا تكلّف لغرض تحسين الصوت بها.

(١) النسائي في الكبرى (٣٢٩٥).

(٢) البخاري (٨/٧٣٥) وذلك ضمن قصتهم معه بشأن تقديم ابن عباس، ولا خلاف في الحقيقة بين قولهم وقوله في تفسير السورة، فإنهم نظروا إلى ظاهر دلالتها ومنطوقها، وهو نظر إلى مضمونها وفحواها. وهو ما أراده عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بالسؤال.

(٣) انظر ابن كثير (٨/٥٣٢).


www.alukah.net

الأرباب المزعومة التي كان يتعلق بها من قبل، وأخلص لله الدعاء وأظهر له من الافتقار والضراعة مالم يكن ليخطر له ببال حال الأمن والعافية»(١).

ثالثًا: مشاهدة حرج النفس واضطرابها وقلقها حال الكربة والشدة.

فلربما يغفل المؤمن فينبهه الله تعالى ببعض الشدائد حتى يثوب لافتقاره وعبوديته لربه وإلهه.

ورُوى أن نبيًّا من الأنبياء عليهم السلام رأى مبتلى، فقال: «**اللّٰهم ارحمه**» فقال الله تعالى: «**كيف أرحمه مما به أرحمه**»(٢).

وفي أثر إلهي يقول الله تعالى: «**أهلُ ذكري أهل مُجالستي، وأهل طاعتي أهل كرامتي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم، وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب؛ لأطهرهم من المعايب**»(٣).

رابعًا: عبودية الله تعالى بأسمائه الحسنى ومنها: الأول والآخر والظاهر والباطن والمحيط.

الفقه في كل ما ورد من الأسماء الحسنى والصفات العلى مؤثّرٌ حقًّا ونافع جدًّا للمؤمن الحريص على تحصيل عبودية الافتقار واستشعارها والعيش بها

---

(١) ظاهرة الإرجاء في الفكر الإسلامي (١/ ١٧٩-١٨٠).

(٢) قوت القلوب (٢/٣٩).

(٣) تفسير المنار (٨/ ٧٨).


شبكة الألوكة - قسم الكتب

ولها ومعها، والعالم بها هو العالم بالله حقًّا، وهو أحق الناس بالشرف والأجر والمحمدة والثواب، فالأسماء الحسنى ومعانيها كالنَّفَس للعبد المؤمن تريحه وتعينه، وهذا أنفس علمٌ وأزكاه، فشرف العلم وأهميته بشرف متعلقه، فلا أشرف وأعلى وأعظم من علم يهدي صاحبه للتعرف على ربه تعالى من أوسع الأبواب وأجلها وأجملها وهو علم أسماء الله وصفاته تبارك وتعالى.

فالعلم النافع للقلب كالغيث العميم للأرض الطيبة، فلا يستغني المؤمن عن تعلّم ما يرفع جهله حتى يوارى ثرى رمسه «قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢] فهذا وصف المؤمن كان ميتًا في ظلمة الجهل فأحياه الله بروح الرسالة ونور الإيمان، وجعل له نورًا يمشي به في الناس. وأما الكافر فميت القلب في الظلمات.

وسمى الله تعالى رسالته رُوحًا، والرُّوحُ إذا عدم فقد فُقدت الحياة، قال الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورى: ٥٢] فذكر هنا الأصلين وهما: الروح والنور، فالروح الحياة، والنور النور[١].

وكذلك يضرب الله الأمثال للوحى الذي أنزله حياةً للقلوب ونورًا لها بالماء الذى ينزله من السماء حياة للأرض وبالنار التي يحصل بها النور، وهذا

---

(١) والنور هو العلم والبصيرة.

كما في قوله تعالى: ﴿ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾ [الرعد: ١٧].

فشبّه العلم بالماء المنزل من السماء، لأن به حياة القلوب، كما أن بالماء تكون حياة الأبدان، وشبه القلوب بالأودية، لأنها محل العلم كما أن الأودية محل الماء، فقلب يسع علمًا كثيرًا وواد يسع ماءً كثيرًا، وقلب يسع علمًا قليلًا وواد يسع ماء قليلًا.

وأخبر تعالى أنه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنه يذهب جفاء، أي يُرمى به ويخفى، والذى ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، فإذا ترابى فيها الحق ثارت فيها تلك الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاءً ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذى ينفع صاحبه والناس.

وقال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ [الرعد: ١٧] فهذا المثل الآخر وهو الناري، فالأول للحياة والثاني للضياء.

ونظير هذين المثالين المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا ﴾ [البقرة: ١٧] إلى قوله ﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ﴾ [البقرة: ١٩] إلى آخر الآية، وأما الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حي،

وإن كانت حياته حياة بهيمية فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها سبب الإيمان، وبها يحصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإن الله سبحانه جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبُعثوا جميعًا بالدعوة إلى الله، وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه»(١).

واعلم أنه متى صح الذهن وسلمت الفطرة واهتدى القلب والعقل بنور الوحي فإنه لا شك سيُفتح له من العلوم والمعارف مالم يكن يتصورها ويعرفها، فهو في كل يوم بل ساعة يضيف لعلومه علومًا ولإيمانه يقينًا ولإسلامه تصديقًا حتى يكون من الذين نعتهم ربهم بقوله الأجل مادحًا مشيدًا: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩] فالعلم يقرب الغيب للشهادة حتى كأنه رأي عين، ويرسخ اليقين في القلب حتى كأنه ما خلق لقبول سواه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وسمعت شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية قدس الله روحه يقول: كيف يُطلب الدليل على من هو دليل على كل شيء؟!

وكان كثيرًا ما يتمثل بهذا البيت:

وليس يصح في الأذهان شيء ... إذا احتاج النهار إلى دليلِ

---

(١) مجموع الفتاوى (١٩/ ٩٤-٩٦) وانظر: (١٨/ ٣١٠) ولأمثلة أخرى: جامع المسائل لابن تيمية (٦/ ٨٠ – ٨١).

ولا ريب أن المؤمنين يعرفون ربهم في الدنيا، ويتفاوتون في درجات العرفان»(١).

ومن أمثلة تحصيل ثمرة الافتقار بالفقه في الأسماء والصفات مشاهدة معاني أسماء الله تعالى التي في سورة الحديد ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] ويجمعها اسم المحيط أي: محيط بكل زمان ومكان. وهذه الأسماء إشارة إلى غيرها ومثال لها، وإلا فلكل اسم وصفة أثرهما المباشر على حياة القلب وسكينته وأنسه وافتقاره لربه وغناه به.

«فعلى قدر افتقار العبد لمولاه وإحساسه بحاجته واضطراره لسيده ومالكه يكون تحقيق العبودية، فإذا انضاف لذلك زيادة علمه بأسمائه الحسنى وصفاته العلى ودعاه بها وتضرع إليه بذكرها فإن التحقيق يكون أتمّ وأكمل، فالله تعالى قد تعرف إلى عباده بأسمائه وصفاته وأمرهم أن يدعوه ويتعبدوا إليه بها فقال سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

ومن أسمائه سبحانه المتعلقة بإحاطته بالعبد قدرة وعلمًا وربوبيةً وزمانًا ومكانًا الأسماء الأربعة التي صدّر بها أوائل سورة الحديد بقوله الكريم: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّاهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ [الحديد: ٣] وقد فسرها رسول الهدى صلوات الله

(١) المستدرك على مجموع الفتاوى (١/ ٣٣).

عليه وسلامه وبركاته[١] «**اللّٰهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[٢].

فعبوديته باسمه الأول تقتضي التجرد من مطالعة الأسباب والوقوف أو الالتفات إليها، وتجريد النظر إلى مجرد سبق فضله ورحمته، وأنه هو المبتدئ بالإحسان من غير وسيلة من العبد، إذ لا وسيلة له في العدم قبل وجوده، وإنما هو عدم محض، وقد أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئًا مذكورًا.

فمنه سبحانه الإعداد ومنه الإمداد، وفضله سابق على الوسائل، والوسائل من مجرد فضله وجوده، لم تكن بوسائل أخرى، فمن نزّل اسمه الأول على هذا المعنى أوجب له فقرًا خاصًّا وعبوديةً خاصةً.

وعبوديته باسمه الآخِر تقتضي أيضًا عدم ركونه ووثوقه بالأسباب

---

(١) ولا يجوز تفسيرها بغير ذلك كما فعل المتكلمون المتهوكون!

(٢) روى مسلم (٢٧١٣) بسنده عن سُهَيل قال: كان أبو صالح يأمرنا إذا أراد أحدنا أن ينام: أن يضطجع على شقه الأيمن، ثم يقول: «**اللّٰهم ربّ السموات وربّ الأرض وربّ العرش العظيم، رَبَّنَا وربّ كل شيء، فالق الحب والنوى، ومنزل التوراة والإنجيل والفرقان، أعوذ بك من شر كل ذي شر أنت آخذ بناصيته، اللّٰهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عنا الدين، وأغننا من الفقر**» وكان يروي ذلك، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ.

والوقوف معها، فإنها تنعدم لا محالة وتنقضي بالآخريّة، ويبقى الدائم الباقي بعدها. فالتعلق بها تعلقٌ بعدم وينقضي، والتعلق بالآخر سبحانه تعلق بالحي الذي لا يموت ولا يزول، فالمتعلق به حقيق أن لا يزول ولا ينقطع، بخلاف التعلق بغيره مما له آخر يفنى به.

وكما نظر العارف إليه بسبق الأولية حيث كان قبل الأسباب كلها، فكذلك نظره إليه ببقاء الآخرية حيث يبقى بعد الأسباب كلها، فكان الله ولم يكن شيء غيره، وكل شيء هالك إلا وجهه.

فتأمل عبودية هذين الاسمين، وما يوجبانه من صحة الاضطرار إلى الله وحده، ودوام الفقر إليه دون كل شيء سواه، وأن الأمر ابتدأ منه وإليه يرجع، فهو المبتدئُ بالفضل حيث لا سبب ولا وسيلة، وإليه تنتهي الأسباب والوسائل، فهو أول كل شيء وآخره، وكما أنه رب كل شيء وفاعله وخالقه وبارئه؛ فهو إلهه وغايته التي لا صلاح له ولا فلاح ولا كمال إلا بأن يكون وحده غايته ونهايته ومقصوده.

فهو الأول الذي ابتدأت منه المخلوقات، والآخر الذي انتهت إليه عبوديتها وإرادتها ومحبتها، فليس وراء الله شيء يقصد ويعبد ويتأله، كما أنه ليس قبله شيء يخلق ويبرأ، فكما كان واحدًا في إيجادك؛ فاجعله واحدًا في تألّهك إليه لتصح عبوديتك. وكما ابتدأ وجودك وخلْقك منه؛ فاجعله نهاية حبك وإرادتك وتألهك إليه، لتصح لك عبوديته باسمه الأول والآخر.

وأكثر الخلق تعبدوا له باسمه الأول، وإنما الشأن في التعبد له باسمه

الآخر، فهذه عبودية الرسل وأتباعهم، فهو رب العالمين وإله المرسلين سبحانه وبحمده.

وأما عبوديته باسمه الظاهر، فكما فسره النبي ﷺ بقوله: «**وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»(١) فإذا تحقق العبد علّوه المطلق على كل شيء بذاته، وأنه ليس فوقه شيء البتة، وأنه قاهر فوق عباده، يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ثم يعرج إليه ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠] صار لقلبه أَمَمًا(٢) يقصده، وربًّا يعبده، وإلها يتوجه إليه، بخلاف من لا يدري أين ربه(٣) فإنه ضائع مشتت القلب، ليس لقلبه قبلة يتوجه نحوها، ولا معبود يتوجه إليه قصده. وصاحب هذه الحال إذا سلك وتأله وتعبّد؛ طلب قلبه إلها يسكن إليه ويتوجه إليه، وقد اعتقد أنه ليس فوق العرش شيء إلا العدم، وأنه ليس فوق العالم إله يعبد ويصلى له ويسجد، وأنه ليس على العرش من يصعد إليه الكلم الطيب، ولا يرفع إليه العمل الصالح؛ جال قلبه في الوجود جميعه فوقع في الاتحاد ولا بد، وتعلق قلبه بالوجود المطلق الساري في المعينات فاتخذه إلهه من دون إله الحق، وظن أنه قد وصل إلى عين الحقيقة، وإنما تأله وتعبد لمخلوق مثله، ولخيال نحته بفكره،

---

(١) صحيح مسلم (٢٧١٣).

(٢) أي جهة، يمَّمَ وجهه لكذا أي توجّه بوجهه إلى جهته.

(٣) لما ضلّ المتكلمون فقالوا: إن الله لا داخل العالم ولا خارجه...إلخ، قالت الحلولية والاتحادية: إذن فهو حال في العالم أو هو ذات العالم! ﴿ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ﴾.

واتخذه إلهًا من دون الله سبحانه. وإلهُ الرسل وراءَ ذلك كله: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٣﴾ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا ۖ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقًّا ۚ إِنَّهُۥ يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ﴾ [يونس: ٣ - ٤]

وقال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٤﴾ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ إِلَى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِى يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُۥٓ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٥﴾ ذَٰلِكَ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٦﴾ ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ كُلَّ شَىْءٍ خَلَقَهُۥ ۖ وَبَدَأَ خَلْقَ ٱلْإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ﴿٧﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُۥ مِن سُلَٰلَةٍ مِّن مَّآءٍ مَّهِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ سَوَّىٰهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِۦ ۖ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ [السجدة: ٤ - ٩].

فقد تعرف سبحانه إلى عباده بكلامه معرفة لا يجحدها إلا من أنكره سبحانه، وإن زعم أنه مقرٌّ به.

والمقصود أن التعبد باسمه الظاهر يجمع القلبَ على المعبود، ويجعل له ربًّا يقصده، وصَمَدًا يَصمُدُ إليه في حوائجه، وملجأ يلجأ إليه، فإذا استقر ذلك في قلبه وعرف ربه باسمه الظاهر؛ استقامت له عبوديته، وصار له معقل وموئل يلجأ إليه، ويهرب إليه، ويفر كل وقت إليه.

وأما تعبده باسمه الباطن فأمر يضيق نطاق التعبير عن حقيقته، ويكلّ اللسان عن وصفه، وتصطلم الإشارة إليه، وتجفو العبارة عنه، فإنه يستلزم



معرفة بريئة من شوائب التعطيل، مخلصة من فرث التشبيه، منزهة عن رجس الحلول والاتحاد، وعبارة مؤدية للمعنى كاشفة عنه، وذوقًا صحيحًا سليمًا من أذواق أهل الانحراف. فمن رزق هذا فهم معنى اسمه الباطن، وصحَّ له التعبد به.

وسبحان الله كم زلت في هذا المقام أقدام، وضلّت فيه أفهام، وتكلم فيه الزنديق بلسان الصديق، واشتبه فيه إخوان النصارى بالحنفاء المخلصين، لنبوّ الأفهام عنه، وعزّة تخلّص الحقِّ من الباطل فيه، والتباس ما في الذهن بما في الخارج[1]، إلا على من رزقه الله بصيرة في الحقّ، ونورًا يميز به بين الهدى والضلال، وفرقانا يفرق به بين الحق والباطل، ورزق مع ذلك اطّلاعًا على أسباب الخطأ وتفرُّقِ الطرق ومثار الغلط، وكان له بصيرةٌ في الحق والباطل، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم[2].

وباب هذه المعرفة والتعبد هو معرفة إحاطة الرب سبحانه بالعالم

---

(١) ما في الذهن: أي الأفكار داخل الذهن، أما الخارج فمرادهم ما كان في الواقع أي خارج الذهن، فالفكرة في الذهن، وهذه الأحرف التي تقرأها الآن هي خارج الذهن حتى أنك تستطيع الإحساس بها، فهي موجودة وجودًا حقيقيّا لا ذهنيًّا.

(٢) وقد أطال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الردود على أولئك، وأزال اللبس عنهم وكشف شبههم في عدة رسائل وكتب، كالصواعق المرسلة، واجتماع الجيوش الإسلامية، والنونية، وغيرها، كما كان لشيخه كتب محررة في هذا الباب كبيان تلبيس الجهمية، والعقل والنقل، وغيرها.



وعظمته، وأن العوالم كلها في قبضته، وأن السموات السبع والأرضين السبع في يده كخردلة في يد العبد[(١)]، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِٱلنَّاسِ﴾ [الإسراء: ٦٠] وقال: ﴿وَٱللَّهُ مِن وَرَآئِهِم مُّحِيطٌۢ﴾ [البروج: ٢٠] ولهذا يقرن سبحانه بين هذين الاسمين الدالين على هذين المعنيين: اسم العلو الدال على أنه الظاهر وأنه لا شيء فوقه، واسم العظمة الدال على الإحاطة وأنه لا شيء دونه، كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْعَظِيمُ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلْعَلِيُّ ٱلْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣] وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُۚ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ١١٥] وهو تبارك وتعالى كما أنه العالي على خلقه بذاته فليس فوقه شيء، فهو الباطن بذاته فليس دونه شيء، بل ظَهَرَ على كل شيء فكان فوقه، وَبَطَنَ فكان أقرب إلى كل شيء من نفسه، وهو محيط به حيث لا يحيط الشيء بنفسه، وكل شيء في قبضته، وليس شيء في قبضة نفسه، فهذا أقرب لإحاطة العامة.

وأما القرب المذكور في القرآن والسنة فقرب خاص من عابديه وسائليه وداعيه، وهو من ثمرة التعبد باسمه الباطن، قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦] فهذا قربه من

---

(١) ذكر ابن بطة الإبانة الكبرى (٧/ ٣٠٨) عن ابن عباس قال: «**السماوات السبع، والأرضون السبع وما فيهن في يد الرحمن كخردلة في يد أحدكم**» وأخرجه الطبري في تفسيره (٢٠/ ٢٤٠). قال شيخ الإسلام عنه: «هذه الآثار معروفة في كتب الحديث» الفتاوى (٦/ ٥٦١).



داعيه.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] فذكَّر الخبر وهو قريب عن لفظ الرحمة وهي مؤنثة، إيذانًا بقربه تعالى من المحسنين[١]، فكأنه قال: إن الله برحمته قريب من المحسنين. وفي الصحيح عن النبي قال: «**أقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد**»[٢] و«**أقرب ما يكون الرب من عبده في جوف الليل**»[٣] فهذا قرب خاصّ غير قرب الإحاطة وقرب البطون.

وفي الصحيح من حديث أبي موسى أنهم كانوا مع النبي ﷺ في سفر فارتفعت أصواتهم بالتكبير فقال: «**أيها الناس، اربعوا على أنفسكم**[٤]**، فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، إن الذي تدعونه سميع قريبٌ، أقرب الى أحدكم من عُنُق راحلته**»[٥] فهذا قربه من داعيه وذاكره، يعني: فأي حاجة بكم إلى رفع الأصوات، وهو لقربه يسمعها وإن خفضت، كما يسمعها إذا رفعت، فإنه سميع قريب.

---

(١) وهذا معنًى شريف نفيس.
(٢) مسلم (٤٨٢).
(٣) الترمذي (٣٥٧٩) والنسائي (٥٧٢) والحاكم (١١٦٢). وصححه ابن القيم في المدارج (٢/٦١).
(٤) أي ارفقوا بأنفسكم.
(٥) البخاري (٢٩٩٢).

وهذا القرب هو من لوازم المحبة، فكلّما كان الحبّ أعظم؛ كان القرب أكثر. وقد تستولي محبة المحبوب على قلب محبه بحيث يفنى بها[١] عن غيره، ويغلب محبوبه على قلبه حتى كأنه يراه ويشاهده، فإن لم يكن عنده معرفة

---

(١) قال شيخ الإسلام: « معاني الفناء الموجود في كلام المشايخ والصوفية ثلاثة أقسام: قسم كامل للسابقين، وقسم ناقص لأصحاب اليمين، وقسم ثالث للظالمين الفاسقين والكافرين.

فالأول: الفناء عن عبادة ما سوى الله، والاستعانة به، بحيث لا يعبد الا الله، ولا يستعين الا بالله، وهذا هو دين الاسلام.

والثاني: الفناء عن شهود ما سوى الله، بحيث يغيب بمشهوده عن شهوده، وهذا لمن لم يقدر على الجمع بين شهود الحقائق وعبادة الخالق، فهم متوجهون إلى معبودهم ومقصودهم ومحبوبهم، وليس لهم قوة مع ذلك على شهود سائر ما يقوم به من الكائنات، وما يستحقه من الأسماء والصفات. فهؤلاء اذا لم يتركوا واجبًا لم يضرهم، وإن تركوا مستحبًّا مشتغلين عنه بما هو أفضل منه لم ينقلوا عن مقامهم، وإن اشتغلوا عما تركوه من المستحب بما ليس مثله فانتقالهم إلى ذلك الأفضل أفضل إذا أمكن، وإلا ففعل المقدور عليه من الصالحات خير من الاهتمام بما يعجز عنه ويصد عن غيره، وإن تركوا واجبًا أو فعلوا محرمًا مع إمكان العلم والقدرة فهم مؤاخذون على ذلك.

القسم الثالث: هو فناء الكافرين، وهو جعل وجود الأشياء هو عين وجود الحق، أو وجود نفسه عين وجوده، كما بيناه من مذاهب أهل الحلول والاتحاد، فإن هذا كفر، وصاحبه كافر بعد قيام الحجة عليه، وإن كان جاهلًا أو متأولًا لم تقم عليه الحجة» الاستقامة (٢/ ١٤٢- ١٤٣) مختصرًا.

صحيحة بالله وما يجب له وما يستحيل عليه، وإلا طرق باب الحلول إن لم يلِجْهُ، وسببه ضعف تمييزه وقوة سلطان المحبة واستيلاء المحبوب على قلبه، بحيث يغيب عن ملاحظة ما سواه فيشطح.

فالتعبد بهذا الاسم هو التعبد بخالص المحبة وصفوةِ الوداد، وأن يكون الإلٰه أقرب إليه من كل شيء، وأقرب إليه من نفسه، مع كونه ظاهرًا ليس فوقه شيء. ومن كَثُفَ ذهنه وغلظ طبعه عن فهم هذا؛ فليضرب عنه صفحًا إلى ما هو أولى به، فقد قيل:

إذا لم تستطع شيئا فدعه ... وجاوزه إلى ما تستطيع

فمن لم يكن له ذوق من قرب المحبة، ومعرفة بقرب المحبوب من محبّه غاية القرب، وإن كان بينهما غاية المسافة، ولا سيما إذا كانت المحبة من الطرفين، وهي محبة بريئة من العلل والشوائب والأعراض القادحة فيها، فإن المحب كثيرًا ما يستولي محبوبه على قلبه وذكره، ويفنى عن غيره ويرق قلبه وتتجرد نفسه، فيشاهد محبوبه كالحاضر معه، القريب إليه، وبينهما من البعد ما بينهما. وفي هذه الحال يكون في قلبه وجوده العلمي، وفي لسانه وجوده اللفظي، فيستولي هذا الشهود عليه، ويغيب به، فيظن أن في عينه وجوده الخارجي لغلبة حكم القلب والروح، كما قيل:

خيالك في عيني وذكرك في فمي ... ومثواك في قلبي فأين تغيبُ

هذا ويكون ذلك المحبوب بعينه بينه وبين عدوه وما بينهما من البعد وإن قربت الأبدان وتلاصقت الديار. والمقصود أن المثال العلمي غير الحقيقة



الخارجية، وإن كان مطابقًا لها، لكن المثال العلمي محلّه القلب، والحقيقة الخارجية محلها الخارج، فمعرفة هذه الأسماء الأربعة: الأول والآخر والظاهر والباطن، هي أركان العلم والمعرفة. فحقيق بالعبد أن يبلغ في معرفتها إلى حيث تنتهي به قواه وفهمه.

واعلم أن لك أنت أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا، بل كل شيء فله أول وآخر وظاهر وباطن، حتى الخطْرة واللحْظة والنفَس وأدنى من ذلك وأكثر، فأوليّة الله عز وجل سابقة على أولية كل ما سواه، وآخريّته ثابتة بعد آخرية كل ما سواه، فأوليته سبقُهُ لكل شيء، وآخريته بقاؤه بعد كل شيء، وظاهريته سبحانه فوقيته وعلوه على كل شيء، ومعنى الظهور يقتضي العلو، وظاهر الشيء هو ما علا منه وأحاط بباطنه، وبطونه سبحانه إحاطته بكل شيء، بحيث يكون أقرب إليه من نفسه، وهذا قرب غير قرب المحب من حبيبه، هذا لون وهذا لون.

فمدار هذه الأسماء الأربعة على الإحاطة، وهي إحاطتان: زمانية، ومكانية. فإحاطة أوليته وآخريته بالقبل والبعد، فكل سابق انتهى إلى أوليته، وكل آخر انتهى إلى آخريته. فأحاطت أوليته وآخريته بالأوائل والأواخر، وأحاطت ظاهريته وباطنيته بكل ظاهر وباطن، فما من ظاهر إلا والله فوقه، وما من باطن إلا والله دونه، وما من أول إلا والله قبله، وما من آخر إلا والله بعده. فالأول قِدَمُه، والآخر دوامه وبقاؤه، والظاهر علوّه وعظمته، والباطن قربه ودنوه.



فَسَبَقَ كل شيء بأوليته، وبقي بعد كل شيء بآخريته، وعلا على كل شيء بظهوره، ودنا من كل شيء ببطونه، فلا تواري منه سماءٌ سماءً، ولا أرضٌ أرضًا، ولا يحجب عنه ظاهرٌ باطنًا، بل الباطنُ له ظاهر، والغيبُ عنده شهادة، والبعيد منه قريب، والسر عنده علانية.

فهذه الأسماء الأربعة تشتمل على أركان التوحيد، فهو الأول في آخريته، والآخر في أوليته، والظاهر في بطونه، والباطن في ظهوره، لم يزل أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا.

والتعبد بهذه الأسماء له رتبتان:

الرتبة الأولى: أن تشهد الأولية منه تعالى في كل شيء، والآخرية بعد كل شيء، والعلو والفوقية فوق كل شيء، والقرب والدنو دون كل شيء. فالمخلوق يحجبه مثله عما هو دونه، فيصير الحاجب بينه وبين المحجوب، والرب جل جلاله ليس دونه شيء أقرب إلى الخلق منه.

والمرتبة الثانية من التعبد: أن يعامل كل اسم بمقتضاه فيعامل سبقه تعالى بأوليته لكل شيء، وسبقه بفضله وإحسانه الأسباب كلها، بما يقتضيه ذلك من إفراده، وعدم الالتفات إلى غيره والوثوق بسواه والتوكل على غيره. فمن ذا الذي شفع لك في الأزل حيث لم تكن شيئًا مذكورًا حتى سمّاك باسم الإسلام، ووسمك بسمة الإيمان، وجعلك من أهل قبضة اليمين، وأقطعك في ذلك

الغيب عِمالاتِ[١] المؤمنين، فعصمك عن العبادة للعبيد، وأعتقك من التزام الرق لمن له شكل ونديد، ثم وجّه وِجهة قلبك إليه سبحانه دون ما سواه؟[٢].

فاضرع إلى الذي عصمك من السجود للصنم، وقضى لك بقَدَمِ الصدق في القِدَمِ، أن يتم عليك نعمة هو ابتدأها[٣]، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك، واسمُ بهمتّك عن ملاحظة الأغيار[٤]، ولا تركنن إلى الرسوم والآثار[٥]، ولا تقنع بالخسيس الدون. وعليك بالمطالب العالية، والمراتب السامية، التي لا تنال إلا بطاعة الله، فإن الله سبحانه قضى أن لا يُنال ما عنده إلا بطاعته.

ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقاه من بعيد، ومن تصرف بحوله وقوته ألانَ له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مراده الديني أراد ما يريد.

---

(١) العمالة: أجرة العامل، والإقطاع والولاية والإمارة. والمقصود الجنة، نسأل الله الكريم من فضله وإحسانه إنه جواد كريم.

(٢) فأعظم النعم هي أن يوفقك الله للإسلام مع أن في الأرض أكثر من (٤٠٠٠) ديانة، فلله الحمد والمنة.

(٣) قيل لأعرابي: أتُحسن أن تدعو؟ قال: نعم. قيل: فادع، فقال: «اللّهم إنك أعطيتنا الإسلام من غير أن نسألك، فلا تحرمنا الجنة ونحن نسألك».

(٤) أي لا تلتفت بقلبك إلى الناس رغَبًا أو رهَبًا.

(٥) أي لا تقف عند المظاهر بل حقق صحة المخابر وهي القلب والنية.

ثم اسمُ بسرِّك(١) إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب، وهيأ لك وصرف عنك موانعها، وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة. فتوكل عليه وحده، وعامله وحده، وآثر رضاه وحده، واجعل حبه ومرضاته هو كعبةُ قلبك التي لا تزال طائفًا بها، مستلمًا لأركانها، واقفًا بملتزمها. فيا فوزك ويا سعادتك إن اطلع سبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يُفيض عليك من ملابس نِعَمِه وخِلَعِ أفضاله! «**اللّٰهم لا مانع لما أعطيتَ، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد**»(٢) سبحانك وبحمدك.

ثم تعبد له باسمه الآخِر، بأن تجعله وحده غايتك، التي لا غاية لك سواه، ولا مطلوب لك وراءه. فكما انتهت إليه الأواخرُ، وكان بعد كل آخر؛ فكذلك اجعل نهايتك إليه، فإنّ إلى ربك المنتهى، إليه انتهت الأسباب والغايات، فليس وراءه مرمى ينتهي إليه. وقد تقدم التنبيه على ذلك وعلى التعبد باسمه الظاهر.

وأما التعبد باسمه الباطن، فإذا شهدت إحاطته بالعوالم، وقُرْبِ العبيد منه، وظهورِ البواطن له، وبدوِّ السرائر له، وأنه لا شيء بينه وبينها. فعامله

---

(١) إي بإخلاص إرادتك وقصدك، فالسريرة علمها عند علّام الغيوب ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦] ﴿يَوْمَ تُبْلَى ٱلسَّرَآئِرُ﴾ [الطارق: ٩] ﴿وَحُصِّلَ مَا فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [العاديات: ١٠] ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

(٢) مسلم (٥٩٤).

بمقتضى هذا الشهود، وطهّر له سريرتك فإنها عنده علانية، وأصلح له غيبك فإنه عنده شهادة، وزكّ له باطنك، فإنه عنده ظاهر.

فانظر كيف كانت هذه الأسماء الأربعة جِمَاعُ المعرفة بالله، وجماع العبودية له. فهنا وقفت شهادة العبد مع فضل خالقه ومنته، فلا يرى لغيره شيئًا إلا به وبحوله وقوته، وغاب بفضل مولاه الحق عن جميع ما منه هو مما كان يستند إليه، أو يتحلّى به، أو يراه ليوم فاقته، أو يعتمد عليه في مهمة من مهماته، فكل ذلك من قصور نظره، وانعكاسه عن الحقائق والأصول إلى الأسباب والفروع، كما هو شأن الطبيعة والهوى، وموجب الظلم والجهل، والإنسان ظلوم جهول.

فمن جلّى اللهُ سبحانه صدأ بصيرته، وكمّل فطرته، وأوقفه على مبادئ الأمور وغاياتها ومناطها ومصادرها ومواردها؛ أصبح كمفلس حقًّا من علومه وأعماله وأحواله وأذواقه. يقول: أستغفر الله من علمي ومن عملي، أي: من انتسابي إليهما وغيبتي بهما عن فضل من ذكرني بهما وابتدأني بإعطائهما من غير تقدم سبب مني يوجب ذلك، فهو لا يشهد غير فضل مولاه وسبْق منته ودوامه، فيثيبه مولاه على هذه الشهادة العالية ثوابين:

أحدهما: الخلاص من رؤية الأعمال، حيث كان يراها ويتمدح بها ويستكثرها، فيستغرق بمطالعة الفضل غائبًا عنها، ذاهبًا عنها، فانيًا عن رؤيتها.

الثواب الثاني: أن يقطعه عن شهود الأحوال، أي عن شهود نفسه فيها متكثرة

بها، فإن الحال[١] محلّه الصدر، والصدر بيت القلب والنفس، فإذا نزل العطاء في الصدر للقلب ثبتت النفس لتأخذ نصيبها من العطاء، فتتمدّحُ به وتدلّ به[٢] وتزهو وتستطيل وتقرر إنِّيتها[٣] لأنها جاهلة ظالمة، وهذا مقتضى الجهل والظلم.

فإذا وصل إلى القلب نور صفة المنّة، وشهد معنى اسمه المنّان، وتجلّى

---

(١) يقصدون بالحال صفة وإحساس روحاني يحس به المؤمن نتيجة عبادة جسديّة أحيانًا أو قولية أو قلبية، أو بلا سبب مباشر، وأحيانًا يعبّرون بها عن الكرامة. ويفرّقون بين الحال والمقام، فالحال هبة ربانية محضة من غير اجتلاب ولا تعمّد، والمقام مكتسب بإذن الله بسبب عبادة قلبية بحضور قلب وتذكّرٍ لله تعالى، فيحتاج لجُهْدٍ لتحصيله، وبين الحال والمقام يتنقل العبد في سيره لربه. ويقولون كذلك: المقام راسخ والحال عارض. وكما قالوا: الأحوال مواهب والمقامات مكاسب، فالمقام يحصل ببذل المجهود، وأما الحال فمن عين الجود. ولهم كلام كثير وبسط طويل في ذلك نتيجة استطرادهم في حكاية أذواقهم، والذوق لا يحكمه ميزان، فلهذا كثر الاختلاف، ولو اكتفوا بالوحي ووقفوا على حدوده لأغناهم.

(٢) وبين التدلل والتذلل فرق كبير، فالتذلل رقة وانكسار وعبودية، أما التدلل فانبساط وتوسع وتحكم وثقة بعدم المخالفة من الآخر، وأنشدوا:

بين التدلّل والتذلّل نقطة ... في رفعها تتحيّر الأفهامُ

وفي المخصص لابن سِيْدَه نقول عن أئمة اللغة في معنى مادة الإدْلال (٣/ ٣٧٦) فقال: «صاحب العين: أدلَلْتُ عليه وتدلّلْت، يعني انبَسَطْت وتحكّمْت. أبو زيد: عوّلت عليه وأعْوَلْت، أدللْت. الأصمعي: قربت بكذا، أدللْتُ».

(٣) وهو ما يعبّر عنه عند النفسانيين المعاصرين بالأنا.

سبحانه على قلب عبده بهذا الاسم مع اسمه الأول؛ ذَهَلَ القلبُ والنفس به، وصار العبد فقيرًا إلى مولاه بمطالعة سبق فضله الأول، فصار مقطوعًا عن شهود أمرٍ أو حال ينسبه إلى نفسه.

فإذا أكمل العبد مراتب الافتقار إلى الحي القيوم، وشهد في كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فقرًا تامًّا إليه من جهة كونه ربًّا، ومن وجهة كونه إلهًا معبودًا، لا غنى له عنه، كما لا وجود له بغيره، فقد وصل إلى الفقر الأعلى، الذي دارت عليه رحى القوم، بل هو قطب تلك الرحى، وإنما يصحّ له هذا بمعرفتين لا بد منهما: معرفة حقيقة الربوبية والإلهية، ومعرفة حقيقة النفس والعبودية. فهنالك تتم له معرفة هذا الفقر.

فإن أعطَى هاتين المعرفتين حقهما من العبودية؛ اتصف بهذا الفقر حالًا، فما أغناه حينئذ من فقير، وما أعزّه من ذليل، وما أقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد. فهو الغنيُّ بلا مال، القويُّ بلا سلطان، العزيز بلا عشيرة، المكفيُّ بلا عتاد. قد قرّت عينه بالله، فافتقر إليه الأغنياء والملوك[1].

---

(١) وقد نبه ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعد ذكر ما سبق شرطًا مهمًّا غفل عنه بعض المريدين للخير فقال: «ولا يتم له ذلك إلا بالبراءة من فرث الجبر ودمه، فإنه إن طرق باب الجبر انحلّ عنه نظام العبودية، وخلع ربقة الإسلام من عنقه، وشهد أفعاله كلها طاعات للحكم القدري الكوني. وإذا قيل له: اتق الله، ولا تعصه، يقول: إن كنت عاصيًا لأمره؛ فأنا مطيع لحُكمه وإرادته. فهذا منسلخ من الشرائع، بريء من دعوة الرسل، شقيق لعدو الله إبليس.

=



فمتى اجتمع له هذا الشهود الصحيح إلى شهود الاضطرار في حركاته وسكناته، والفاقة التامة إلى مقلب القلوب، ومن بيده أزمة الاختيار، وأنه لا هادي لمن أضله ولا مضل لمن هداه، وأنه هو الذي يحرك القلوب بالإرادات، والجوارح بالأعمال، وأنها مدبرة تحت تسخيره، مذللة تحت قهره، وأنها أعجز وأضعف من أن تتحرك بدون مشيئته، وأن مشيئته نافذة فيها كما هي نافذة في حركات الأفلاك والمياه والأشجار، وأنه حرك كلا منها بسبب اقتضى تحريكه، وهو خالق السبب المقتضي، وخالق السبب خالق للمسبب، فخالق الإرادة الجازمة التي هي سبب الحركة والفعل الاختياري خالق لهما، وحدوث الإرادة بلا خالق محدث محال، وحدوثها بالعبد بلا إرادة منه محال، وإن كان بإرادته فإرادته للإرادة كذلك، ويستحيل بها التسلسل، فلا بد من فاعل أوجد تلك الإرادة التي هي سبب الفعل.

فهنا يتحقق الفقر والفاقة والضرورة التامة إلى مالك الإرادات وربِّ القلوب ومصرِّفها كيف شاء، فما شاء أن يزيغه منها أزاغه، وما شاء أن يقيمه منها أقامه. ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران: ٨].

=
بل وظيفة الفقير في هذا الموضوع وفي هذه الضرورة مشاهدة الأمر والشرع، ورؤية قيامِهِ بالأفعال وصدورها منه كسبًا واختيارًا، وتعلّق الأمر والنهي بها طلبًا وتركًا، وترتّب الذم والمدح عليها شرعًا وعقلًا، وتعلق الثواب والعقاب بها آجلًا وعاجلًا». الطريق (١/ ٥٤ - ٥٥).

فهذا هو الفقر الصحيح المطابق للعقل والفطرة والشرع، ومن خرج عنه وانحرف إلى أحد الطرفين؛ زاغ قلبه عن الهدى، وعطّلَ مُلْك الملك الحقّ وانفراده بالتصرف والربوبية عن أوامره وشرعه وثوابه وعقابه.

وحكم هذا الفقير المضطر إلى خالقه في كل طرفة عين وكل نفس؛ أنه إن حُرِّك بطاعة أو نعمة؛ شكرها، وقال: هذا من فضل الله ومَنِّه وجوده، فله الحمد، وإن حُرّك بمبادئ معصيته؛ صرخ ولجأ واستغاث وقال: «**أعوذ بك منك**»[(١)]، «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**»[(٢)]، «**يا مصرف القلوب صرف قلبي على طاعتك**»[(٣)].

فإن تم تحريكه بالمعصية؛ التجأ التجاءَ أسير قد أسره عدوه، وهو يعلم أنه لا خلاص له من أسره إلا بأن يفكّه سيده من الأسر، ففكاكه في يد سيده ليس في يده منه شيء البتة، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فهو في أسر العدوّ، ناظرٌ إلى سيده وهو قادر على تخليصه، قد اشتدت ضرورته إليه، وصار اعتماده كله عليه. قال سهل: «إنما يكون الالتجاء على معرفة الابتلاء» يعني على قدر الابتلاء تكون المعرفة بالمبتلي.

ومن عرف قوله ﷺ: «**وأعوذ بك منك**»[(٤)] وقام بهذه المعرفة شهودًا

---

(١) مسلم (٤٨٦).

(٢) أحمد (١٧٦٣٠) والترمذي (٣٥٢٢) وصححه الألباني.

(٣) مسلم (٢٦٥٤).

(٤) مسلم (٤٨٦).

وذوقًا، وأعطاها حقّها من العبودية؛ فهو الفقير حقًّا. ومدار الفقر الصحيح على هذه الكلمة، فمن فهم سرّ هذا فَهِمَ سرّ الفقر المحمدي.

فهو سبحانه الذي ينجي من قضائه بقضائه، وهو الذي يعيذ بنفسه من نفسه، وهو الذي يدفع ما منه بما منه. فالخلق كله له، والأمر كله له، والحكم كله له، وما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وما شاء لم يستطع أن يصرفه إلا مشيئتُه، وما لم يشأ لم يمكن أن يجلبه إلا مشيئته. فلا يأتي بالحسنات إلا هو، ولا يذهب بالسيئات إلا هو، ولا يهدي لأحسن الأعمال والأخلاق إلا هو، ولا يصرف سيئها إلا هو. ﴿وَإِن يَمۡسَسۡكَ ٱللَّهُ بِضُرّٖ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَۖ وَإِن يُرِدۡكَ بِخَيۡرٖ فَلَا رَآدَّ لِفَضۡلِهِۦ﴾ [يونس: ١٠٧].

والتحقق بمعرفة هذا يوجب صحّة الاضطرار، وكمال الفقر والفاقة، ويحول بين العبد وبين رؤية أعماله وأحواله والاستغناء بها، والخروج عن ربقة العبودية إلى دعوى ما ليس له. وكيف يدّعي مع الله حالًا أو مَلَكَةً أو مقامًا من قلبه؛ وإرادتُه وحركاته الظاهرة والباطنة بيد ربه ومليكه، لا يملك هو منها شيئًا، وإنما هي بيد مقلب القلوب ومصرفها كيف يشاء.

فالإيمان بهذا والتحقق به نظام التوحيد، ومتى انحلّ من القلب انحلّ نظام التوحيد. فسبحان من لا يُوصل إليه إلا به، ولا يطاع إلا بمشيئته، ولا ينال ما عنده من الكرامة إلا بطاعته، ولا سبيل إلى طاعته إلا بتوفيقه ومعونته. فعاد الأمر كلُّه إليه، كما ابتدأ الأمر كله منه، فهو الأول والآخر. ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلۡمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢].



ومن وصل إلى هذا الحال وقع في يد التجريد، وأشرف على مقام التوحيد الخاصّ. فإن التوحيد نوعان: عامٌّ وخاص، كما أن الصلاة نوعان، والذكر نوعان، وسائر القُرَب كذلك خاصة وعامة، فالخاصة ما بذل فيها العامل نصحه وقصده، بحيث يوقعها على أحسن الوجوه وأكملها، والعامة ما لم يكن كذلك، فالمسلمون كلهم مشتركون في إتيانهم بشهادة أن لا إله إلا الله، وتفاوتهم في معرفتهم بمضمون هذه الشهادة وقيامهم باطنًا وظاهرًا أمر لا يحصيه إلا الله عز وجل»(١).

«فلله العظيم أعظمُ حمدٍ وأتمُّه وأكملُه على ما مَنَّ به من معرفته وتوحيده والإقرار بصفاته العليا وأسمائه الحسنى، وإقرار قلوبنا بأنَّه الله الذي لا إله إلا هو، عالمُ الغيب والشهادة، ربُّ العالمين، قيومُ السموات والأرضين، إلهُ الأولين والآخرين. لم يزل ولا يزالُ موصوفًا بصفات الجلال، منعوتًا بنعوت الكمال، مُنزَّها عن أضدادها من النقائص والتشبيه والمثال.

فهو الحي القيوم الذي لكمال حياته وقيوميّته لا تأخذه سنة ولا نوم، مالكُ السموات والأرض الذي لكمال ملكه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه، العالم بكل شيء الذي لكمال علمه يعلم ما بين أيدي الخلائق وما خلفهم، فلا تسقط ورقة إلا بعلمه، ولا تتحرك ذرة إلا بإذنه، يعلم دبيب الخواطر في القلوب حيث لا يطلع عليها المَلَك، ويعلم ما سيكون منها حيث لا يطلع عليه القلب.

---

(١) طريق الهجرتين (١/٣٥ - ٥٩)باختصار وتصرف.



البصيرُ الذي لكمال بصره يرى تفاصيل خلق الذرة الصغيرة وأعضائها ولحمها ودمها ومخّها وعروقها، ويرى دبيبها على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويرى ما تحت الأرضين السبع كما يرى ما فوق السموات السبع.

السميعُ الذي قد استوى في سمعه سرُّ القول وجهرُه، وسع سمعه الأصوات، فلا تختلف عليه أصوات الخلق ولا تشتبه عليه، ولا يشغله منها سمع عن سمع، ولا تغلّطهُ المسائل، ولا تُبرمه كثرة سؤال السائلين، قالت عائشة: «الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات. لقد جاءت المجادلة تشكو إلى رسول الله ﷺ وإني ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِي تُجَٰدِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِيٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعُۢ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة: ١]»(١).

القديرُ الذي لكمال قدرته يهدي من يشاء ويضل من يشاء، ويجعل المؤمنَ مؤمنًا والكافرَ كافرًا، والبرَّ برًّا، والفاجرَ فاجرًا. وهو الذي جعل إبراهيمَ وآلِهِ أئمةً يدعون إليه ويهدون بأمره، وجعل فرعونَ وقومَه أئمةً يدعون إلى النار. ولكمال قدرته لا يحيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء أن يُعلِّمه إيّاه. ولكمال قدرته خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام وما مسّه من لغوب. ولا يُعجزِه أحدُ من خلقه ولا يفوته، بل هو في قبضته أين كان، فإن فرَّ منه فإنما يطوي المراحل في يديه، كما قيل:

---

(١) أحمد (٢٤١٩٥) والنسائي (١٦٨/٦) وابن ماجه (١٨٨). وصححه ابن حجر في تغليق التعليق (٣٣٩/٥) والأرناؤوط في تخريج المسند.

وكيـف يفـر المـرء عنـك بذنبـه إذا كـان يطـوي في يـديك المـراحلا

ولكمالِ غناهُ استحالَ إضافةُ الولد والصاحبة والشريك والظهير والشفيع بدون إذنه إليه. ولكمالِ عظمته وعلوّه وَسِع كرسيه السموات والأرض، ولم تسعْهُ أرضُه ولا سماواته، ولم تُحِطْ به مخلوقاته، بل هو العالي على كل شيء، الظاهر فوق كل شيء، وهو بكل شيء محيط.

ولا تنفدُ كلماتُه ولا تبيدُ، ولو أن البحر يمدُّه من بعده سبعةُ أبحرٍ مدادٌ، وأشجارُ الأرض أقلامٌ، فكُتب بذلك المداد وبتلك الأقلام لنفد المداد وفنيت الأقلام ولم تنفد كلماتُه، إذ هي غير مخلوقة، ويستحيل أن يفنى غيرُ المخلوق بالمخلوق(١).

وهو سبحانه يحبُّ رسلَه وعبادَه المؤمنين ويحبونه، بل لا شيء أحبّ إليهم منه، ولا أشوق إليهم من لقائه، ولا أقرّ لعيونهم من رؤيته، ولا أحظى عندهم من قربه.

وأنه سبحانه له الحكمة البالغة في خلقه وأمره، وله النعمة السابغة على خلقه، وكل نعمة منه فضلٌ، وكل نقمة منه عدل.

وأنه أرحمُ بعباده من الوالدة بولدها. وأنه أفرحُ بتوبة عبده من واجد راحلته التي عليها طعامه وشرابه في الأرض المهلكة بعد فقدها واليأس منها.

(١) وهذا منحنًى لطيف متين.

وأنه سبحانه لم يكلّف عباده إلا وسعهم، وهو دون طاقتهم[١]، فقد يطيقون الشيء ويضيق عليهم، بخلاف وسعهم، فإنه ما يسِعُونَهُ ويسْهل عليهم، وتَفْضُلُ قُدَرُهُم عنه، كما هو الواقع.

وأنه سبحانه لا يعاقب أحدًا بغير فعلِه، ولا يعاقبه على فعل غيره، ولا يعاقبه بترك ما لا يقدر على فعله، ولا على فعلِ ما لا قدرة له على تركه.

وأنه حكيم كريم جواد ماجد محسن ودود صبور شكور، يُطاع فَيشكُر، ويُعصى فيَغفر. لا أحدَ أصبرُ على أذًى سمعه منه، ولا أحدَ أحبُّ إليه المدح منه، ولا أحدَ أحبُّ إليه العُذر منه. ولا أحدَ أحبُّ إليه الإحسانُ منه، فهو محسنٌ[٢] يحبّ المحسنين، شكورٌ يحب الشاكرين، جميل يحب الجمال، طيّب يحب كل طِيّب، عليمٌ يحب العلماء من عباده، كريمٌ يحب الكرماء، قويٌّ والمؤمنُ القوي أحبّ إليه من المؤمن الضعيف، بَرٌّ يحب الأبرار، عدل يحب

(١) لأن الوُسع من السعة وهي القدرة والراحة والقوة، بخلاف الضيق وهو نقص القدرة مع الشدة والتعب فهو يطيقه ولكن بمشقة، لذلك قال أرحم الراحمين: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ﴾ وهذا الوسع من الله الكريم ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَاۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا﴾.

(٢) يوصف الله سبحانه بالإحسان، أما تسميته بالمحسن ففيه خلاف قديم، ولم يثبت فيه نص من آية أو حديث، وعليهما المعوّل لا غير، فالأسماء توقيفية، ولا يُسمّى الله تعالى إلا بما سمّى به نفسه في كتابه أو على لسان نبيه ﷺ. وعليه فالراجح أن المحسن ليس من أسماء الله تعالى، إنما هو من صفاته، وبالله التوفيق.



أهل العدل، حييٌّ سِتّير[١] يحب أهل الحياء والستر، غفورٌ عفو يحبُّ من يعفوَ عن عباده ويغفرَ لهم، صادقٌ يحب الصادقين، رفيقٌ يحبّ الرفق، جوادٌ يحب الجود وأهلَه، رحيمٌ يحب الرحماء، وِتْرٌ يحب الوترَ.

ويحب أسماءه وصفاتِه، ويُحب المتعبدين له بها، ويحب من يسألَه ويدعوه بها، ويحب من يعرفها ويعقلها، ويثني عليه بها، ويحمده ويمدحه بها، كما في الصحيح[٢] عن النبي ﷺ: **«لا أحدَ أحبُّ إليه المدحُ من الله[٣]، من أجل ذلك أثنى على نفسه. ولا أحدَ أغيرُ من الله، من أجلِ ذلك حرم الفواحش ما**

---

(١) وقد صح حديث تسميته بالستير، كما عند أبي داود (٤٠١٤) وغيره وصححه الألباني: **«إن الله عز وجل حييٌّ سِتِّيرٌ، يحبَ الحياء والستر، فإذا اغتسل أحدكم فليستتر»** أما السَّتَّار فليس من أسمائه الحسنى.

(٢) البخاري (٤٦٣٤) ومسلم (٢٧٦٠) من حديث ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

(٣) وحمده والثناء عليه وذكره من مَدْحِهِ تبارك وتعالى، وللعلم فالحمد والمدح متفقان في الاشتقاق الأوسط (وهو الاتفاق في الحروف دون الترتيب) ومن دلالات ذلك قرب المعنيين من بعضهما لوحدة الاشتقاق، ومن ذلك: جبذ وجذب، أما الاشتقاق الأصغر فهو الاتفاق في الحروف والترتيب كنصر من النصر، أما الأكبر فهو ـ على القول به ـ الاتفاق في مخرج حروف الحلق أو الشفة مثل: نعق وثلم من النهيق والثلب. والله أعلم.

هذا وإن علم الاشتقاق من أشرف علوم العربية وأدقّها وأنفعها، فمدار التصريف في معرفة الأصلي من الزائد عليه، حتى قالوا: لو حُذفت المصادر وارتفع الاشتقاق من كل كلام؛ لم توجد صفة لموصوف ولا فعل لفاعل. وانظر: شرح الكوكب المنير لابن النجار (١/٦٥).



ظهر منها وما بطن. ولا أحدَ أحبُّ إليه العذرُ من الله، من أجل ذلك أرسل الرسل مبشرين ومنذرين».

وفي حديث آخر صحيح: «**لا أحدَ أصبرُ على أذى يسمعُه من الله، يجعلون له ولدًا وهو يرزقهم ويعافيهم**»(١).

ولمحبتِهِ لأسمائه وصفاته أمر عباده بمُوجِبِها ومقتضاها، فأمرهم بالعدل والإحسان والبِرِّ والعفو والجود والصبر والمغفرة والرحمة والصدق والعلم والشكر والحلم والأناة والتثبت. ولما كان سبحانه يحبّ أسماءَه وصفاتِه كان أحبَّ الخلق إليه من اتصف بالصفات التي يحبُّها، وأبغضَهم إليه من اتصف بالصفات التي يكرهُها. فإنما أبغض من اتّصف بالكبر والعظمة والجبروت لأن اتصافَه بها ظلمٌ، إذ لا تليقُ به هذه الصفاتِ ولا تَحْسُنُ منه، لمنافاتها لصفات العبيد، وخروجِ من اتصف بها من ربقة العبودية، ومفارقتِه لمنصبه ومرتبته، وتعديه طورَه وحدَّه. وهذا خلافُ ما تقدَّمَ من الصفات كالعلم والعدل والرحمة الإحسان والصبر والشكر، فإنها لا تُنافي العبودية، بل اتّصافُ العبد بها من كمال عبوديتِه، إذِ المتصفُ بها من العبيد لم يتعدّ طورَه، ولم يَخرجْ بها من دائرة العبودية(٢).

والمقصود: أنه سبحانه لكمالِ أسمائه وصفاته موصوفٌ بكل صفة كمال، منزهٌ عن كل نقص. له كلُّ ثناءٍ حسن، ولا يَصدرُ عنه إلا كل فعل جميل، ولا

---

(١) مسلم (٢٨٠٤).

(٢) وهذا ضابط حسن مضطرد.

يُسمّى إلا بأحسن الأسماء، ولا يُثنَى عليه إلا بأكمل الثناء. وهو المحمود المحبوب المُعَظَّمُ ذو الجلال والإكرام على كلِّ ما قدَّرَه وخلَقَه، وعلى ما كل أمر به وشرعه.

ومن كان له نصيب من معرفة أسمائه الحسنى واستقراءِ آثارها في الخلق والأمر؛ رأى الخلق والأمر منتظمَين بها أكملَ انتظام، ورأى سَريان آثارها فيهما، وعلِمَ بحسَب معرفته ما يليق بكماله وجلاله أن يفعله وما لا يليق، فاستدل بأسمائه على ما يفعله وما لا يفعله، فإنه لا يفعل خلاف موجب حمده وحكمته. وكذلك يعلمُ ما يليق به أن يأمر به ويشرعه مما لا يليق به. فيعلم أنه لا يأمر بخلاف موجب حمده وحكمته.

فإذا رأى في بعض الأحكام جورًا وظلمًا أو سفهًا وعبثًا ومفسدة، أو ما لا يوجب حمدًا وثناءً فليعلم أنه ليس من أحكامه ولا دينه، وأنه بريءٌ منه ورسولُه، فإنه إنما يأمرُ بالعدل لا بالظلم، وبالمصلحة لا بالمفسدة، وبالحكمة لا بالعبث والسفه. وإنما بَعث رسولَه بالحنيفية السمحة، لا بالغلظة والشدة، وبعثه بالرحمة لا بالقسوة[(١)]. فإنه أرحم الراحمين، ورسوله رحمة مهداة إلى

(١) لذلك فقد كتب الفقهاء في مقاصد الشريعة، وبنوا على ذلك أحكامًا كليّة وتفصيلية، وعلّقوا كثيرًا من أحكامهم وعلّلوها بالمقاصد الشرعية، وهو علمٌ له فحوله وأساطينه، فلا بد للمتكلّم فيه من علم واسع يحيط بغالب الأدلة الشرعية العلمية والعملية وتطبيقاتها، وكليّات الشريعة وتفصيلاتها، كذلك حصافة وذكاء لينزّل الأحكام على قوالب المقاصد، كذلك نيّة قوية وإخلاص لله راسخ، حتى لا يعبث =

العالمين، ودينُه كلّه رحمة، وهو نبي الرحمة، وأمته الأمة المرحومة. وذلك كله موجَب أسمائه الحسنى وصفاته العليا وأفعاله الحميدة، فلا يُخبَر عنه إلا بحمده، ولا يُثنَى عليه إلا بأحسن الثناء، كما لا يسمى إلا بأحسن الأسماء»(١).

خامسًا: التعبّد بمقتضى اسم الله (الحميد).

فمن طرق تحصيل الافتقار المحبوب إلى الله الممدوح من لدنه مشاهدة الأسماء والصفات وبخاصة اسم الحميد.

«وقد نبّه سبحانه على شمول حمده لخلقه وأمره بأن حمد نفسه في أول الخلق وآخره، وعند الأمر والشرع، وحَمِدَ نفسَه على ربوبيته للعالمين، وحمد نفسه على تفرده بالإلهية وعلى حياته. وحمد نفسه على امتناع اتصافه بما لا يليق بكماله من اتخاذ الولد والشريك وموالاةِ أحدٍ من خلقه لحاجته إليه. وحمد نفسَه على علوّه وكبريائه، وحمد نفسه في الأولى والآخرة. وأخبر عن سَريان حمده في العالم العلوي والسفلي. ونبَّه على هذا كله في كتابه، وحمد نفسه عليه؛ فنوّعَ حمدَه وأسبابَ حمدِه، وجمعَها تارة، وفرقها أخرى، ليتعرّف إلى عباده، ويعرِّفهم كيف يحمدونه وكيف يثنون عليه، وليتحبّبَ إليهم بذلك، ويحبهم إذا عرفوه وأحبوه وحمدوه.

=

بالشريعة تمييعًا لأغراض الرؤساء والساسة، أو إرضاءً لنزوات العامّة والجمهور، والله المستعان.

(١) طريق الهجرتين (١/٢٦٨ – ٢٨٨) مختصرًا.

قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢﴾ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَٰلِكِ يَوْمِ ٱلدِّينِ﴾ [الفاتحة: ٢ - ٤] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام: ١] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا ۜ ﴿١﴾ قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ [الكهف: ١، ٢] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾ [سبأ: ١] وقال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: ١] وقال سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] وقال: ﴿هُوَ ٱلْحَىُّ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱدْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ ۗ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [غافر: ٦٥] وقال: ﴿فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَعَشِيًّا وَحِينَ تُظْهِرُونَ﴾ [الروم: ١٧، ١٨].

وأخبر عن حمدِ خلقِه له بعد فصلِه بينهم، والحكم لأهل طاعته بثوابه وكرامته، والحكم لأهل معصيته بعقابه وإهانته: ﴿وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الزمر: ٧٥].

وأخبر عن حمدِ أهل الجنة له، وأنهم لم يدخلوها إلا بحمده، كما أن أهل النار لم يدخلوها إلا بحمده، فقال عن أهل الجنة: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى هَدَىٰنَا لِهَٰذَا

وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَآ أَنْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ٤٣] و﴿ دَعْوَىٰهُمْ فِيهَا سُبْحَٰنَكَ ٱللَّهُمَّ وَتَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَٰمٌ وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [يونس: ١٠] وقال عن أهل النار: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَآءِىَ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٧٤﴾ وَنَزَعْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا فَقُلْنَا هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ فَعَلِمُوٓا۟ أَنَّ ٱلْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ﴾ [القصص: ٧٤ - ٧٥] وقال: ﴿فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١].

وشهدوا على أنفسهم بالكفر والظلم، وعلِموا أنهم كانوا كاذبين في الدنيا، مكذّبين بآيات ربهم، مشركين به، جاحدين لإلهيته، مفترين عليه. وهذا اعترافٌ منهم بعدله فيهم، وأخذِهم ببعض حقّه عليهم، وأنه غير ظالم لهم، وأنهم إنما دخلوا النار بعدله وحمده، وإنما عوقبوا بأفعالهم، وبما كانوا قادرين على فعله وتركه.

وبالجملة: فكل صفة عليا واسم حسن وثناء جميل، وكل حمدٍ ومدح وتسبيح وتنزيه وتقديس وجلال وإكرام فهو لله عز وجل على أكملِ الوجوه وأتمها وأدومها. وجميعُ ما يُوصف به ويُذكر به ويخبر عنه به فهو محامدُ له وثناءٌ وتسبيح تقديس. فسبحانه وبحمده لا يحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه، بل هو كما أثنى على نفسه، وفوق ما يُثنِي به عليه خلقُه. فله الحمدُ أولًا وآخرًا حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه كما ينبغي لكرم وجهه، وعِزِّ جلاله، ورفيع مجده، وعلو جَدِّه.

فهذا تنبيه على أحد نوعي حمده وهو حمد الصفات والأسماء.



والنوع الثاني: حمدُ النعم والآلاء(١)، وهذا مشهودٌ للخليقة: برِّها وفاجرِها، مؤمنها وكافرها، من جزيل مواهبه، وسَعة عطاياه، وكريم أياديه، وجميل صنائعه، وحسن معاملته لعباده، وسعة رحمته لهم، وبره ولطفه وحنانه، وإجابته لدعوات المضطرين، وكشف كربات المكروبين، وإغاثة الملهوفين، ورحمته للعالمين، وابتدائه بالنعم قبل السؤال، ومن غير استحقاق، بل ابتداء منه بمجرد فضله وكرمه وإحسانه، ودفع المحن والبلايا بعد انعقاد أسبابها، وصرفها بعد وقوعها، ولطفه تعالى في ذلك بإيصاله إلى من أراده بأحسن الألطاف، وتبليغه من ذلك إلى ما لا تبلغه الآمال، وهدايته خاصَّتَه وعبادَه إلى سبيل دار السلام، ومدافعته عنهم أحسن الدفاع، وحمايتهم عن مراتع الآثام.

وحبب إليهم الإيمان وزينة في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وجعلهم من الراشدين، وكتب في قلوبهم الإيمان، وأيدهم بروح منه، وسمّاهم المسلمين قبل أن يخلقهم، وذَكَرَهم قبل أن يذكُروه، وأعطاهم قبل أن يسألوه، وتحبّب إليهم بنعمة مع غناه عنهم، وتبغُّضُهم إليه بالمعاصي مع فقرِهم إليه.

---

(١) وقد كان من المناسب إيراد هذا الكلام المتين في كتاب الشكر، ولكن لشدة لصوقه بباب الافتقار أثبتّه هنا، وهذا من شواهد ارتباط أعمال القلوب ببعضها، فليس منها عمل إلا وله لصوق واندراج ولزوم وتضمّن لعمل آخر، بل أعمال. وهذا من فضل الله ورحمته على العباد، فيقصد العبد الدخول على ربه تعالى من باب فلا يلبث أنه قد حمل معه أزوادًا من أعمال أُخر، وإذ أبوابها مفتّحة وسبلها مشرعة، فلله الحمد كما ينبغي له.



ومع هذا كله فاتخذ لهم دارًا، وأعدّ لهم فيها من كل ما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين، وملأها من جميع الخيرات، وأودعها من النعيم والحَبْرَةِ والسرور والبهجة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

ثم أرسل إليهم الرسلَ يدعونهم إليها، ثم يسَّرَ لهم الأسباب التي توصلهم إليها، وأعانهم عليها، ورضي منهم باليسير في هذه المدة القصيرة جدًّا، بالإضافة إلى بقاء دار النعيم.

وضَمِنَ لهم إن أحسنوا أن يثيبهم بالحسنة عشرًا، وإن أساؤوا واستغفروه أن يغفر لهم، ووعدهم أن يمحو ما جنَوه من السيئات بما يفعلونه بعدها من الحسنات.

وذكّرهم بآلائه، وتعرف إليهم بأسمائه، وأمرهم بما أمرهم به رحمة منه بهم وإحسانًا، لا حاجة منه إليهم. ونهاهم عما نهاهم عنه حماية وصاينة لهم، لا بخلًا منه عليهم. وخاطبهم بألطف الخطاب وأحلاه، ونصحهم بأحسن النصائح، ووصّاهم بأكمل الوصايا، وأمرهم بأشرف الخصال، ونهاهم عن أقبح الأقوال والأعمال. وصرّف لهم الآيات، وضرب لهم الأمثال، ووسّع لهم طرق العلم به ومعرفته، وفتح لهم أبواب الهداية، وعرّفهم الأسباب التي تدنيهم من رضاه وتبعدهم عن غضبه.

ويخاطبهم بألطف الخطاب، ويسمّيهم بأحسن أسمائهم، كقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ [البقرة: ١٠٤]، ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٣١]، ﴿يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [الزمر: ٥٣]، ﴿قُل لِّعِبَادِيَ﴾ [إبراهيم:



٣١]، ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى ﴾ [البقرة: ١٨٦].

فيخاطبهم بخطاب الوداد والمحبة والتلطف، كقوله: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ هَلْ مِنْ خَـٰلِقٍ غَيْرُ ٱللَّهِ يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴾ [فاطر: ٣]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ۖ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴾ [فاطر: ٥]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَـٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ﴾ [الانفطار: ٦، ٧]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢، ١٠٣]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا۟ مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ ٱلْبَغْضَآءُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ ۚ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: ١١٨]، ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلْحَقِّ يُخْرِجُونَ ٱلرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ ۙ أَن تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَـٰدًا فِى سَبِيلِى وَٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِى ۚ تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَأَنَا۠ أَعْلَمُ بِمَآ أَخْفَيْتُمْ وَمَآ أَعْلَنتُمْ ۚ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ﴾ [الممتحنة: ١]، ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱسْتَجِيبُوا۟ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ

بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَٱتَّقُوا۟ فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنكُمْ خَآصَّةً ۖ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢٥﴾ وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [الأنفال: ٢٤ - ٢٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٧٣، ٧٤]، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِءَادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ ۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: ٥٠].

فتحت هذا الخطاب: إني عاديتُ إبليسَ، وطردته من سمائي، وباعدته من قربي، إذ لم يسجد لأبيكم آدم، ثم أنتم يا بنيه توالونه وذريته من دوني وهم أعداء لكم! فليتأمل اللبيبُ مواقع هذا الخطاب، وشدةَ لصوقه بالقلوب، والتباسه الأرواح. وأكثر القرآن جاء على هذا النمط من خطابه لعباده بالتودد والتحنن واللطف والنصيحة البالغة.

وأعلمَ عباده أنه لا يرضى لهم إلا أكرم الوسائل، وأفضل المنازل، وأجل العلوم والمعارف، قال تعالى: ﴿إِن تَكْفُرُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنكُمْ ۖ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ ٱلْكُفْرَ ۖ وَإِن تَشْكُرُوا۟ يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧] وقال: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ



نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗا ﴾ [المائدة: ٣] (١) وقال: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلۡيُسۡرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلۡعُسۡرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمۡ وَيَهۡدِيَكُمۡ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ وَيَتُوبَ عَلَيۡكُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٢٦ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا ٢٧ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا ﴾ [النساء: ٢٦ – ٢٨].

وقال في الأضاحي والهدايا: ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقۡوَىٰ مِنكُمۡ﴾ [الحج: ٣٧] وقال عقيب أمرهم بالصدقة ونهيهم عن إخراج الرديء من المال: ﴿وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلۡخَبِيثَ مِنۡهُ تُنفِقُونَ وَلَسۡتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغۡمِضُواْ فِيهِۚ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾ [البقرة: ٢٦٧] يقول سبحانه: إني غني عما تنفقون أن ينالني منه شيء، حميد مستحق للمحامد كلها. فإنفاقكم ليس له فيه حاجة، ولا يوجب له حمدًا، بل هو الغني بنفسه، الحميد بنفسه وأسمائه وصفاته، وإنفاقُكم إنما نفعهُ لكم، وعائدته عليكم.

ومن المتعيّن على من لم يباشر قلبه حلاوة هذا الخطاب وجلالته ولطف موقعه وجذبه للقلوب والأرواح ومخالطته لها؛ أن يعالج قلبه بالتقوى، وأن يستفرغ منه المواد الفاسدة التي حالت بينه وبين حظه من ذلك، ويتعرّض إلى

---

(١) وتأمل تعليق الحبر البحر ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا على هذه الآية، وما فيه من طمأنينة وسعادة وأمن واكتفاء، فقد قال: «أخبر الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين أنه قد أكمل لهم الإيمان، فلا يحتاجون إلى زيادة أبدًا، وقد أتمه الله عز ذكره فلا ينقصه أبدًا، وقد رضيه الله فلا يَسْخَطه أبدًا». تفسير الطبري (٩/ ٥١٨) (١١٠٨٠).



الأسباب التي يناله بها، من صدق الرغبة، واللجأ إلى الله أن يحيي قلبه ويزكيه، ويجعل فيه الإيمان والحكمة. فالقلب الميّت لا يذوق طعم الإيمان، ولا يجد حلاوته، ولا يتمتع بالحياة الطيبة لا في الدنيا ولا في الآخرة.

ومن أراد مطالعة أصول النعم؛ فليدم سَرْحَ الفكرِ في رياض القرآن، وليتأمل ما عدّد الله فيه من نِعَمِهِ، وتعرّف بها إلى عباده من أول القرآن إلى آخره، حتى خلق النار، وابتلاءهم بإبليس وحزبه، وتسليط أعدائهم عليهم، وامتحانهم بالشهوات والإرادات والهوى؛ لتعظُم النعمة عليهم بمخالفتها ومحاربتها[1]. فلله على أوليائه وعباده أتمُّ نعمة وأكملها في كل ما خلقه من محبوب ومكروه، ونعمة ومحنة، وفي كل ما أحدثه في الأرض من وقائعه بأعدائه وإكرامه لأوليائه، وفي كل ما قضاه وقدّره. وتفصيلُ ذلك لا تفي به أقلام الدنيا وأوراقها، ولا قُوى العباد، وإنما هو التنبيه والإشارة.

ومن استقرأ الأسماء الحسنى وجدها مدائحَ وثناءً تقصُرُ بلاغاتُ الواصفين عن بلوغ كنهها، وتعجز الأوهام عن الإحاطة بالواحد منها. ومع ذلك فلله سبحانه محامد ومدائح وأنواع من الثناء لم تتحرك بها الخواطر، ولا هجست في الضمائر، ولا لاحتْ لمتوسمٍ، ولا سنحت في فكر. ففي دعاءِ أعرَفِ الخلق بربه، وأعلمهم بأسمائه وصفاته ومحامده: «**أسألك بكل اسم هو لك، سمّيت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علمته أحدًا من خلقك، أو استأثرت به في علم الغيب عندك، أن تجعل القرآن ربيع قلبي، ونور صدري،**

---

(١) أي بإعانة الله لهم وتوفيقهم لذلك.


www.alukah.net

وجلاء حزني، وذهاب همّي وغمّي»[١].

وفي الصحيح عنه في حديث الشفاعة لمّا يسجدُ بين يدي ربه، قال: **«فيفتحُ عليّ من محامده بشيء لا أحسنه الآن»**[٢] وكان يقول في سجوده: **«أعوذ برضاك من سخطك، وبعفوك من عقوبتك، وأعوذ بك منك، لا أحصي ثناء عليك، أنت كما أثنيتَ على نفسك»**[٣].

فلا يُحصي أحدٌ من خلقه ثناءً عليه البتة. وله أسماءٌ وأوصافٌ وحمدٌ وثناءٌ لا يعلمها ملك مقرب، ولا نبي مرسل. ونسبةُ ما يعلم العباد من ذلك إلى ما لا يعلمونه كنقرة عصفور في بحر[٤].

والله سبحانه مع كونه خالقَ كلِّ شيء، فهو موصوف بالرضا والغضب، والعطاء والمنع، والخفض والرفع، والرحمة والانتقام. فاقتضت حكمته سبحانه أن خلق دارًا لطالبي رضاه، العاملين بطاعته، المؤثرين لأمره، القائمين

---

(١) أحمد (٣٧١٢) وابن حبان (٩٧٢). وصححه ابن القيم في شفاء العليل (٢/٧٤٩) والصنعاني في الإنصاف (١٠٢).

(٢) البخاري (٤٧١٢) ومسلم (١٩٤).

(٣) مسلم (٤٨٦).

(٤) أخرج البخاري في صحيحه (١٢٢) ومسلم (٢٣٨٠) عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في معرض ذكره لقصة موسى عليه السلام والخضر قال: «..فجاء عصفور، فوقع على حرفها – أي السفينة – فنقر، أو فنقر في الماء، فقال الخضر لموسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله إلا مقدار ما نقر أو نقص هذا العصفور من البحر».


شبكة الألوكة - قسم الكتب

بمحابّه، وهي الجنة. وجعل فيها كل شيء مرضي، وملأها من كل محبوب ومرغوب ومشتهى ولذيذ، وجعل الخير بحذافيره فيها، وجعلها محلّ كل طيّب من الذوات والصفات والأقوال.

وخلق دارًا أخرى لطالبي أسباب غضبه وسخطه، المؤثرين لأغراضهم وحظوظهم على مرضاته، العاملين بأنواع مخالفته، القائمين بما يكره من الأعمال والأقوال، الواصفين له بما لا يليق به، الجاحدين لما أخبرت به رسله من صفات كماله ونعوت جلاله، وهي جهنم. وأودعها كل شيء مكروه، وشحَنها من كل مؤذٍ ومؤلم، وجعل الشرَّ بحذافيره فيها، وجعلها محل كل خبيث من الذوات والصفات والأقوال والأعمال.

فهاتان الداران هما دارا القرار.

وخلق دارًا ثالثة هي كالميناء لهاتين الدارين، ومنها يتزود المسافرون إليهما، وهي دار الدنيا. ثم أخرج إليها من آثار الدارين بعض ما اقتضته أعمالُ أربابهما، وما يُستدل به عليهما، حتى كأنهما رأي عين، ليصير للإيمان بالدارين - وإن كان غيبًا - وجهُ شهادة، تستأنسُ به النفوس، وتستدل به. فأخرج سبحانه إلى هذه الدار من آثار رحمته من الثمار والفواكه والطيبات والملابس الفاخرة والصور الجميلة، وسائر ملاذ النفوس ومشتهياتها، ما هو نفحةٌ من نفحات الدار التي جعل ذلك كله فيها على وجه الكمال(١). فإذا رآه المؤمنون ذكّرهم

---

(١) ثَمَّ مطلبان:

الأول: أن حقائق الآخرة ليست كحقائق الدنيا وإن اتّحدت مسمياتها، قال ابن عباس =

بما هناك من الحَبْرة والسرور والعيش الرخي، كما قيل:

فـــإذا رآك المســـــلمون تيقّنـــوا   حـورَ الجنـان لـدى النعـيم الخالـدِ

فشمّروا إليه، وقالوا: «**اللّهم لا عيش إلا عيش الآخرة**»(١) وأحدثتْ لهم رؤيتُه عزمات وهمًا وجدًّا وتشميرًا، لأن النعيم يذكّر بالنعيم، والشيءُ يذكّر بجنسه، فإذا رأى أحدهم ما يعجبه ويروقه ولا سبيل له إليه قال: «موعدك الجنة وإنما هي عشية أو ضحاها».

فوجودُ تلك المشتهيات والملذوذات في هذه الدار رحمة من الله، يسوقُ بها عباده المؤمنين إلى تلك الدار التي هي أكمل منها، وزادٌ لهم من هذه الدار إليها، فهي زادٌ وعبرة ودليل وأثر من آثار رحمته التي أودعها تلك الدار. فالمؤمن يهتزُّ برؤيتها إلى ما أمامه، ويُثير ساكن عزماته إلى تلك، فنفسُه ذوَّاقة توَّاقة، إذا ذاقت شيئًا منها تاقت إلى ما هو أكمل منه حتى تتوق إلى النعيم

=

رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: «ليس في الجنة شيء مما في الدنيا إلا الأسماء» أخرجه الطبراني في التفسير (٥٣٤) وصححه ابن تيمية في فتاواه (١١٥/٥) والسيوطي في الجامع الصغير (٧٦١٤) والألباني في الصحيحة (٢١٨٨).

الثاني: أن في الجنة نعيمًا ليس له جنسٌ في الدنيا ولا شبهٌ ولا مثلٌ ولا اسمٌ، قال تعالى: ﴿فَلَا تَعۡلَمُ نَفۡسٞ مَّآ أُخۡفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعۡيُنٖ﴾ وقال في الحديث الإلهي: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر**» رواه البخاري (٤٧٧٩) ومسلم (٢٨٢٤).

(١) من قول النبي ﷺ في غزوة الخندق، البخاري (٢٩٦١).

المقيم في جوار الرب الكريم(١).

وأخرج سبحانه إلى هذه الدار أيضًا من آثار غضبه ونقمته من العقوبات والآلام والمحن والمكروهات من الأعيان والصفات، ما يُستدَلُّ بجنسه على ما في دار الشقاء من ذلك، مع أن ذلك من آثار النَّفَسَينِ الشتاء والصيف(٢)، الذين أَذِنَ الله سبحانه بحكمته لجهنم أن تتنفس بهما، فاقتضى ذانِك النَّفَسَان آثارًا ظهرت في هذه الدار، كانت دليلًا عليها وعبرة. وقد أشار تعالى إلى هذا المعنى ونبّه عليه بقوله في نار الدنيا: ﴿نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ﴾ [الواقعة: ٧٣] تذكرة تذكّر بنار الآخرة، ومنفعة للنازلين بالقَوَاء، وهم المسافرون. يقال: أقوى الرجل، إذا نزل بالقِيِّ، والقَوَاء هي الأرض الخالية. وخصّ المقوين بالذكر وإن كانت منفعتها عامة للمسافرين والمقيمين تنبيهًا لعباده ـ والله أعلم بمراده من كلامه ـ على أنهم كلهم مسافرون، وأنهم في هذه الدار على جناح سفر، ليسوا هم مقيمين ولا مستوطنين، وأنهم عابرو سبيل وأبناء سفر.

(١) قال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن لي نفسًا توّاقة، ما نالت شيئًا إلا تاقت لما هو أعلى منه، تاقت نفسي للزواج بابنة عمي فاطمة بنت عبد الملك فتزوجتها، ثم تاقت للإمارة فوليتها، ثم تاقت للخلافة فنلتها، والآن تاقت للجنة فأرجو أن أكون من أهلها».

(٢) أخرج البخاري في الصحيح (٣٢٦٠) ومسلم (٦١٧) عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**اشتكت النار إلى ربها، فقالت: ربِّ أكل بعضي بعضًا. فأَذِنَ لها بنَفَسَين، نَفَسٌ في الشتاء، ونفَسٌ في الصيف. فأشدّ ما تجدون من الحر، وأشدّ ما تجدون من الزمهرير**».

والمقصود: أنه سبحانه أشهدَهم في هذه ما أعد لأوليائه وأعدائه في دار القرار، وأخرج إلى هذه الدار من آثار رحمته وعقوبته ما هو عبرة ودلالة على ما هناك من خير وشر. وجعل هذه العقوبات والآلام والمحن والبلايا سياطًا يسوق بها عباده المؤمنين، فإذا رأوها حذِروا كل الحذر، واستدلوا بما رأوه منها وشاهدوه على ما في تلك الدار من المكروهات والعقوبات. وكان وجودُها في هذه الدار وإشهادهم إياها وامتحانهم باليسير منها رحمةً منه بهم، وإحسانًا إليهم، وتذكرة وتنبيهًا.

ولما كانت هذه الدار ممزوجًا خيرُها بشرِّها، وأذاها براحتها، ونعيمها بعذابها؛ اقتضت حكمة أحكم الحاكمين أن خلَّص خيرَها من شرِّها، وخصّه بدار أخرى هي دار الخيرات المحضة ودار الشرور المحضة. فكتب على هذه الدار حكم الامتزاج والاختلاط، وخلط فيها بين الفريقين، وابتلى بعضهم ببعض، وجعل بعضهم لبعض فتنة. حكمةٌ بالغةٌ بهرتِ العقول، وعزةٌ قاهرة. فقام بهذا الاختلاط سوقُ العبودية كما يحبه ويرضاه، ولم تكن تقوم عبوديته التي يحبها ويرضاها إلا على هذا الوجه. بل العبد الواحد جمع فيه بين أسباب الخير والشر، وسلّط بعضه على بعض، ليستخرج منه ما يحبه من العبودية التي لا تحصل إلا بذلك[1].

فلما حصلت الحكمة المطلوبة من هذا الامتزاج والاختلاط؛ أعقبه بالتمييز والتخليص، فميّز بينهما بدارين ومحلّين، وجعل لكل دار ما يناسبها،

(١) وهي عبودية المجاهدة.

وأسكن فيها من يناسبها. وخلق المؤمنين المتقين المخلصين لرحمته، وأعداءَه الكافرين لنقمته، والمخلّطين للأمرين معًا. فهؤلاء أهل الرحمة، وهؤلاء أهل النقمة، وهؤلاء أهل النقمة والرحمة. وقسمٌ آخر لا يستحقون ثوابًا ولا عقابًا. ورتّب على كل قسم من هذه الأقسام الخمسة حُكمَه اللائق به، وأظهر فيه حكمته الباهرة، ليعلم العبادُ كمالَ قدرته وحكمته، وأنه يخلق ما يشاء، ويختار من خلقه من يصلح للاختيار، وأنه يضع ثوابه موضعه، وعقابه موضعه، ويجمع بينهما في المحل المقتضي لذلك، ولا يظلم أحدًا، ولا يبخسه شيئًا من حقه، ولا يعاقبه بغير جنايته.

هذا مع ما في ضمن هذا الابتلاء والامتحان من الحكم الراجعة إلى العبيد أنفسهم، من استخراج صبرهم وشكرهم وتوكلهم وجهادهم، واستخراج كمالاتهم الكامنة في نفوسهم من القوة إلى الفعل(١)، ودفْعِ الأسباب بعضها ببعض، وكسرِ كلِّ شيء بمقابله، ومصادمته بضده؛ لتظهر عليه آثارُ القهر، وسمات الضعف والعجز، ويتيقن العبدُ أن القهَّارَ لا يكون إلا واحدًا، وأنه يستحيل أن يكون له شريك، بل القهر والوحدة متلازمان.

فالملك والقدرة والقوة والعزة كلها لله الواحد القهار، ومَنْ سواه مربوب مقهورٌ، له ضدٌ ومناوٍ ومشاركٌ. فخلقَ الرياحَ وسلّط بعضها على بعض تُصادمها، وتكسر سَورتها(٢) وتذهب بها. وخلقَ الماءَ وسلّط عليه الرياحَ

---

(١) أي من القوة الكامنة فيهم للفعل المترتب عليه الثواب.

(٢) أي حدّتها وشدّة هبوبها، والسَّورة في أصل اللغة: الغضب.

تَّصرّفه وتكسره. وخلق النار وسلّط عليها الماء يكسرها ويطفئها. وخلق الحديدَ وسلّط عليه النار تذيبه وتكسر قوته. وخلق الحجارةَ وسلّط عليها الحديدَ يكسرها ويفتّتها. وخلق آدمَ وذريتَه وسلّط عليهم إبليسَ وذريتَه. وخلق إبليسَ وذريتَه وسلّط عليهم الملائكةَ يشرّدونهم كلَّ مُشرَّد، ويطردونهم كلَّ مُطرَّد. وخلق الحرَّ والبردَ والشتاء والصيف، وسلّط كلّا منهما على الآخر يذهبه ويقهره. وخلق الليلَ والنهارَ وقهر كلّا منهما بالآخر. وكذلك الحيوانَ على اختلاف ضروبه من حيوان البر والبحر، لكل منه مضادّ ومغالِبٌ.

فاستبان للعقول والفطَرِ أن القاهرَ الغالب لذلك كله واحدٌ، وأن من تمام ملكه إيجادُ العالم على هذا الوجه، وربطُ بعضه على بعض، وإحواجُ بعضه إلى بعض، وقهرُ بعضه ببعض، وابتلاءُ بعضه ببعض، وامتحانُ خيره بشرِّه، وجعلُ شره لخيره الفداء. ولهذا يُدفع إلى كل مؤمن يوم القيامة كافرٌ فيقال له: «**هذا فداؤك من النار**»[١] وهكذا المؤمن في الدنيا يسلط عليه الابتلاء

---

(١) ابن ماجه (٤٢٩٢) من حديث أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ بسند ضعيف، ويغني عنه ما خرّجه مسلم (٢٧٦٧) من حديث أبي بردة عن أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «**إذا كان يوم القيامة دفع الله عز وجل إلى كل مسلم يهوديًّا أو نصرانيًّا فيقول: هذا فكاكك من النار**» ومن طريق قتادة أن عونًا وسعيد بن أبي بردة حدثاه أنهما شهدا أبا بردة يحدث عمر بن عبد العزيز عن أبيه عن النبي ﷺ قال: «**لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه النار يهوديًّا أو نصرانيًّا**» قال: فاستحلفه عمر بن عبد العزيز بالله الذي لا إله إلا هو ثلاث مرات أن أباه حدثه عن رسول الله ﷺ؟ قال: فحلف له، قال: فلم يحدثني سعيد أنه أستحلفه ولم ينكر على عون قوله.

والامتحان والمصائب ما يكون فداءه من عذاب الله. وقد تكون تلك الأسباب فداءً له من شرور أكثر منها في هذا العالم أيضًا. فليُعطِ اللبيبُ هذا الموضع حقَّه من التدبر يتبينْ له حكمة اللطيف الخبير.

وهذا القرآن المجيد عمدتُه ومقصودُه الإخبارُ عن صفات الرب سبحانه وأسمائه وأفعاله وأنواع حمده والثناءِ عليه، والإنباءُ عن عظمته وعزّته وحكمته وأنواع صنعه، والتقدمُ إلى عباده بأمره ونهيه على ألسنة رسله، وتصديقُهم بما أقامه من الشواهد والدلالات على صدقهم وبراهين ذلك ودلائله، وتبيينُ مراده من ذلك كله. وكان من تمام ذلك الإخبار عن الكافرين والمكذبين، وذكر ما أجابوا به رسلهم وقابلوا به رسالات ربهم، ووصف كفرهم وعنادهم، وكيف كذبوا على الله، وكذّبوا رسله، وردّوا أمره ومصالحه. فكان في اجتلاب ذلك من العلوم والمعارف والبيان وضوحُ شواهدِ الحق، وقيامُ أدلته وتنوعها.

وكان موقع هذا من خلقه موقع تسبيحه تعالى وتنزيهه من الثناء عليه، وأن أسماءه الحسنى وصفاته العليا هي موضع الحمد، ومن تمام حمده تسبيحُه وتنزيهُه عما وصفه به أعداؤه والجاهلون به مما لا يليق به. وكان في تنوع تنزيهه عن ذلك من العلوم والمعارف وتقرير صفات الكمال وتكميل أنواع الحمد ما في بيان محاسن الشيء وكماله عند معرفة ما يضاده ويخالفه. ولهذا كان تسبيحه تعالى من تمام حمده، وحمده من تمام تسبيحه، ولهذا كان التسبيح والتحميد قرينين. وكان ما نسبه إليه أعداؤه والمعطلون لصفات كماله ـ من علوّه على



www.alukah.net

خلقه وإنزاله كلامه الذي تكلم به على رسله وغير ذلك - موجِبًا لتنزيه رسله له وتسبيحهم عند ذلك مما نزَّه عنه نفسه وسبَّحَ به نفسه(١). وكان في ذلك ظهورُ حمده لخلقه، بل وتنوّع أسبابه، وكثرة شواهده، وسعة طرق الثناء عليه به، وتقرير عظمته، ومعرفته في قلوب عباده. فلولا معرفةُ الأسباب التي يسبّح وينزّه ويتعالى عنها، وخَلْقُ من يضيفها إليه ويصفه بها، لما قامت حقيقة التسبيح، ولا ظهر لقلوب أهل الإيمان عن أي شيء يسبحونه، وعمّا ذا ينزهونه. فلما رأوا في خلقه من قد نسبه إلى ما لا يليق به، وجحد من كماله ما هو أولى به، سبَّحوه حينئذ تسبيح مجلٍّ له، معظِّمٍ له، منزّهٍ له عن أمر نسبه إليه أعداؤه والمعطلون لصفاته.

والمقصود: أن خلق الأسباب المضادة للحق، وإظهارها في مقابلة الحق؛ من أبين دلالاته وشواهده، فكان في خلقها من الحكمة ما لو فاتت لفاتت تلك الحكمة، وهي أحب إلى الله من تفويتها بتقدير تفويت هذه الأسباب، والله أعلم»(٢).

سادسًا: تدبر القرآن العظيم.

رحم الله هذه الأمة فأنزل لها كلامه يتلى في صدورها وعلى ألسنها هدى ونورًا، وأمرهم أن يتلوه ويتدبروه ويقيموا حدوده، فالخير والهدى بحذافيره

---

(١) التسبيح يتضمّن التعظيم والإجلال والتنزيه، فالتعظيم من معانيه الأولية وليس مجرد تنزيه.

(٢) طريق الهجرتين للإمام ابن القيم (١/ ٢٢٩- ٢٣٧) باختصار واقتصار.



في القرآن، ومن رام بركة عمره وخالص علمه ومتين فقهه وحياة قلبه فليعمر وقته بالقرآن. وعلى قدر أخذه بحظه من القرآن تلاوة وتدبُّرا وعملًا يكون حظ روحه وقلبه وزكاء نفسه ورفعته.

وتــدبرِ القــرآن إن رمــت الهــدى   فــالعلم تحــت تــدبر القــرآنِ

قال الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واعلم أن قوة الدين وكمال الإيمان واليقين لا يحصلان إلا بكثرة قراءة القرآن واستماعه، مع التدبر بنيّة الاهتداء به والعمل بأمره ونهيه. فالإيمان الإذعاني الصحيح يزداد ويقوى وتترتب عليه آثاره من الأعمال الصالحة وترك المعاصي والفساد بقدر تدبر القرآن، وينقص ويضعف على هذه النسبة من ترك تدبره. وما آمن أكثر العرب إلا بسماعه وفهمه، ولا فتحوا الأقطار، ومصروا الأمصار، واتسع عمرانهم، وعظم سلطانهم، إلا بتأثير هدايته. وما كان الجاحدون المعاندون من زعماء مكة يجاهدون النبي ﷺ ويصدونه عن تبليغ دعوة ربه إلا بمنعه من قراءة القرآن على الناس: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَسْمَعُواْ لِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَٱلْغَوْاْ فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾ [فصلت: ٢٦] وما ضعف الإسلام منذ القرون الوسطى حتى زال أكثر ملكه إلا بهجر تدبر القرآن وجعله كالرقى والتعاويذ التي تتخذ للتبرك أو لشفاء أمراض الأبدان، وجلّ فائدة الصلاة - وهي عماد الدين - بتلاوة القرآن مع التدبر والتخشع»(١).

(١) تفسير المنار (٩/ ٤٦٣).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

سابعًا: من وسائل الافتقار: الاعتراف بظلم النفس.

الإنسان بطبيعة خلقه ظلوم جهول، فلا بد له من المكابدة والمكافحة لاستنقاذ نفسه من استلاب الطبع الظالم والغريزة الجهول. «والمحرمات في الشريعة ترجع إلى الظلم إما في حق الله تعالى، وإما في حق العبد، وإما في حقوق العباد. وكلما كان ظلمًا في حق العباد فهو ظلم العبد لنفسه ولا ينعكس، فجميع الذنوب تدخل في ظلم العبد نفسه.

وأول من اعترف بهذا أبو البشر لما تلقى من ربه الكلمات فقال: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فكان في هذه الكلمات اعترافه بذنبه، وطلبه ربه على وجه الافتقار المغفرة والرحمة. فالمغفرة إزالة السيئات، والرحمة إنزال الخيرات. فهذا ظلم لنفسه، ليس فيه ظلم لغيره.

وقال موسى عليه السلام لما ذكر الذي هو من عدوه: ﴿فَقَضَىٰ عَلَيْهِ قَالَ هَـٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ إِنَّهُۥ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ قَالَ رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى فَٱغْفِرْ لِى فَغَفَرَ لَهُۥٓ﴾ [القصص: ١٥- ١٦] فاعترف بظلمه نفسه فيما كان من جناية على غيره لم يؤمر بها. وقال يونس عليه السلام: ﴿لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَـٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧].

وفي الصحيح الدعاء الذي علمه النبي ﷺ أبا بكر أن يدعو به في صلاته: **«اللّهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرًا، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة**

من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم»[١] فهذا الدعاء مطابق لدعاء آدم في الاعتراف بظلم النفس ومسألة المغفرة والرحمة.

وكان النبي ﷺ إذا استوى على الدابة فحمد وسبح وكبر قال: «**لا إله الا أنت سبحانك ظلمت نفسي فاغفر لي**. ثم يضحك» وهو محفوظ من حديث على بن أبى طالب[٢].

وإذا كان كذلك؛ فالظلم نوعان: تفريط في الحق، وتعدٍّ للحد، فان ترك الواجب ظلم، كما أن فعل المحرم ظلم، قال النبي ﷺ: «**مطل الغني ظلم**» متفق عليه[٣] فأخبر أن المطل وهو تأخير الوفاء ظلم فكيف بتركه، هذا وإن أداء الواجب أعظم من ترك المحرم، والطاعات الوجودية أعظم من الطاعات العدمية[٤]، فيكون جنس الظلم بترك الحقوق الواجبة أعظم من جنس الظلم بتعدي الحدود.

أيضًا فإن الورع المشروع هو أداء الواجب وترك المحرم، ليس هو ترك المحرم فقط. وكذلك التقوى اسم لأداء الواجبات وترك المحرمات، كما بين الله حدّها في قوله: ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ﴾ إلى قوله:

---

(١) البخاري (١/٢١١) ومسلم (٨/٧٤).

(٢) بنحوه عند أبي داود (٣/٣٤) والترمذي (٣/١٥٦) والمسند (٢/١٨٣) وصححه أحمد شاكر.

(٣) البخاري (٢٢٨٧) ومسلم (١٥٦٤).

(٤) أي من حيث الجنس، وهي مسألة خلافية ولها ذيول.



﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٧].

ومن هنا يغلط كثير من الناس فينظرون ما في الفعل أو المال من كراهة توجب تركه، ولا ينظرون ما فيه من جهة أمر يوجب فعله. مثال ذلك: ما سئل عنه أحمد عن رجل ترك مالا فيه شبهة وعليه دين، فسأله الوارث: هل يتورع عن ذلك المال المشتبه؟ فقال له أحمد: «أتترك ذمة أبيك مرتهنة؟» ذكرها أبو طالب وابن حامد، وهذا عين الفقه، فان قضاء الدين واجب، والغريم حقّه متعلق بالتركة، فإن لم يوفِ الوارثُ الدينَ وإلا فله استيفاؤه من التركة، فلا يجوز إضاعة التركة المشتبهة التي تعلّق بها حق الغريم، ولا يجوز ايضًا إضرار الميت بترك ذمته مرتهنة، ففي الإعراض عن التركة إضرار الميت وإضرار المستحق، وهذان ظلمان محققان بترك واجبين، وأخذ المال المشتبه ليس كذلك»(١).

ثامنًا: ومن طرق تحصيل الافتقار: التوبة النصوح المتكررة.

سواءً وافقت نقصًا في واجب أو ارتكاسًا في خطيئة، فالعبد يعلم أنه مهما قرّب وتعبّد فعبادته ليست لائقة بحق ربه ولا كافية في نجاته، فهو يجدّ ويستغفر، ويذنب ويستغفر، فلا ينفك في حركاته وسكناته من لبوس التوبة ودثار الاستغفار.

وقلبُ المؤمن كالنعجة السليمة ترعى الربيع المختلط بأنواع الزهور،

---

(١) كتب ورسائل وفتاوى ابن تيمية في الفقه (٢٩/ ٢٧٩- ٢٨٠) بتصرف يسير.



وتتغذى بما يصحّ جسمها ويغذوه وينبته، والعقل معها كالراعي القوي الأمين، فهو يحرسها من نفسها بأن ينصح لها المرعى الطيب والغذاء النافع، ويداويها عند اعتلالها، ومن غيرها بأن يحميها من غوائل المفترسات، وفي المرعى ثلاثة ذئاب يرومون صيدها وافتراسها، أصغرهم هو ذئب القوة الشهوانية، يليه ذئب القوة الغضبية، وفوقهما ذئب الشبهات. فلربما غفل الراعي هنيهة فاكتنفها أحدهم فجرحها وأدماها فاحتاجت لعلاج على قدر جرحها، ولربما افترسها وأهلكها! والعاقل يعتبر بما يرى ويسمع ويبصر.

وتوبة المؤمن من ذنوبه هي ساق قوّته التي لا قيام له بدونها، فرسول الهدى صلوات الله وسلامه وبركاته عليه كان يتوب إلى الله ويستغفره في اليوم أكثر من مئة مرّة، وقد أنزل الله عليه خِلعة البشارة والرضى بقوله العزيز: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢] فإن كان هذا حال العبد التائب الشكور ﷺ فما بال من سواه؟! فما ثمّ إلا تائب أو ظالم فربنا جل وعز يقول: ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ [الحجرات: ١١] ومرقاة فلاح المؤمن توبته النصوح والله تعالى يقول: ﴿وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١].

ومن أسرف على نفسه بالعصيان ثم أقبل تائبًا منيبًا فليحرص على حراسة جذوة إيمان التوبة في قلبه، فهي كالزرع الصغير الضعيف المحتاج إلى غذاء وحراسة، فذئب الإنسان ـ وهو الشيطان ـ حريص على اقتلاع تلك النبتة حال ضعفها وصغرها قبل أن تستتم شجرة عظمى، ليخلو له القلب فيأكله حتى يختلط بدمه وعصبه فيحل عليه الفساد لخلوّه من مادة الصلاح وهي الإيمان.

وهذا الشيطان الرجيم شديد المكر طويل العُمْرِ طويل البال في الإفتان، فيلقي للمرء طُعمًا من حطام الفانية ليسد به رمق شهوته الخاطئة، كالحبة في الفخ والطُّعم في السنّارة، حتى إذا ابتلعها أفسدت قلبه، فإن وُفِّق لتوبة لعلاجه وإلا خيف عليه ازدياد الفساد والظلمة وانحسار الصلاح والنور، حتى يوافي ربه بقلب قاسٍ مثقل بأوزاره، فهو بين عفو الله أو صلوّ النار التي تخرج مادة الفساد وتليّن القسوة، فإن كان فيه بصيص نور توحيد وصلاة فمآله للجنة بعد حين لا يعلمه إلا الله، وإلا فخلود الأبد، عياذًا بوجه الرحمن من موجبات سخطه، فالجنة هي دار القلوب السليمة اللينة لا الفاسدة القاسية، وهي ملتقى المقربين والأبرار لا الفسقة الفجار.

تاسعًا: ومن طرق تحصيل الافتقار: الاعتراف بالذنب، وأن لا يخرج من بيته وهو يظن إن مسلمًا دونه منزلة.

فلعل هناك خبيئة صلاح في ذلك المسلم، أو سريرة سوء في ذلك المتعالي، أو خاتمةٌ بخلاف الظاهر الآن! فالإزراء بالنفس سبيل علوّها عند ربها، وتعظيمها طريق خفضها، واعتبر ذينك الأمرين بحال الأبوين وإبليس. والله المستعان.

قال ابن القيم في شأن من يظن صلاحه أجود من غيره، فيشمت بالمذنب: «وأيضا ففي التعيير ضرب خفيّ من الشماتة بالمعيَّر، وفي الترمذي مرفوعًا: «**لا تظهر الشماتة لأخيك فيرحمه الله ويبتليك**»[1].

---

(١) الترمذي (٢٥٠٦) وقال: حديث حسن غريب. وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (١١٩) والزرقاني في مختصر المقاصد (١١٨٤) ووثق رجاله الأرناؤوط في تخريج =

ويحتمل أن يريد: أن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه وأشد من معصيته، لما فيه من صولة الطاعة، وتزكية النفس، وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به.

ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس خاشع الطرف منكسر القلب؛ أنفعُ له وخيرٌ من صولة طاعتك، وتكثّرك بها، والاعتداد بها، والمنّة على الله وخلقه بها.

فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله، وما أقرب هذا المدلّ من مقت الله. فذنب تَذِلُّ به لديه أحب إليه من طاعة تُدِلُّ بها عليه، وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خير من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا، فإن المعجب لا يصعد له عمل. وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مدلّ. وأنينُ المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبحين المدلّين. ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواء استخرج به داء قاتلا هو فيك ولا تشعر!

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرارٌ لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك مالا يطلع عليه الكرام الكاتبون. وقد قال النبي ﷺ: «**إذا زنت أمة أحدكم فليقم عليها الحد ولا**

=

رياض الصالحين (١٥٧٧) وحكم بوضعه ابن الجوزي في الموضوعات (٥٢٨/٣) وضعفه الألباني في الضعيفة (٥٤٢٦).



يثرّب»[١] أي: لا يُعيّر. من قول يوسف عليه السلام لإخوته: ﴿لَا تَثۡرِيبَ عَلَيۡكُمُ ٱلۡيَوۡمَ﴾ [يوسف: ٩٢] فإن الميزان بيد الله، والحكم لله. فالسوط الذي ضرب به هذا العاصي بيد مقلب القلوب، والقصد إقامة الحد لا التعيير والتثريب.

ولا يأمن كرّات القدر وسطوته إلا أهل الجهل بالله، وقد قال الله تعالى لأعلمِ الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة: ﴿وَلَوۡلَآ أَن ثَبَّتۡنَٰكَ لَقَدۡ كِدتَّ تَرۡكَنُ إِلَيۡهِمۡ شَيۡـٔٗا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٤] وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصۡرِفۡ عَنِّي كَيۡدَهُنَّ أَصۡبُ إِلَيۡهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [يوسف: ٣٣] وكانت عامة يمين رسول الله: **«لا ومقلب القلوب»**[٢] وقال: **«ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه»** ثم قال: **«اللّٰهم مقلب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك، اللّٰهم مصرف القلوب صرف قلوبنا على طاعتك»**[٣][٤].

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في البدائع: «شُدّوا بنيان العزم بهجر المألوفات والعوائد،

---

(١) البخاري (٢١٥٢)، ومسلم (١٧٠٣) بلفظ: **«إذا زنت أمة أحدكم، فتبين زناها، فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زنت فليجلدها الحد، ولا يثرب عليها، ثم إن زنت الثالثة، فتبين زناها، فليبعها ولو بحبل من شعر»**.

(٢) البخاري (٦٦٢٨).

(٣) مسلم (٨/٥١) (٢٦٥٤) خلا جملة: **«اللّٰهم مقلب القلوب ثبّت قلوبنا على دينك»** فهي عند أحمد (١٧٦٣٠) بسند صحيح.

(٤) مدارج السالكين (١/١٧٧ - ١٧٨).



وقد استحكم البناء، فحينئذ أفرغوا عليه قطر الصبر. وهكذا بنى الأولياء قبلكم، فجاء العدو فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقبًا.

لقد ضاقت ايام الموسم فأسرعوا بالإبل لا تفتكم الوقفة. لا تحد وما لك بعير، ولا تمد القوس وما لها وتر.

كم بذل نفسه مراء ليمدحه الخلق؛ فذهبت نفسه فانقلب المدح ذمًّا، ولو بذلها لله لبقيت ما بقى الدهر. وعمل المرائي بصلَةٌ كلها قشور، والمرائي يحشو جراب الزوادة رملًا يثقله في الطريق وما ينفعه.

ولما أخذ دود القز ينسج، أقبلت العنكبوت تتشبه به، وقالت: لك نسج ولي نسج. فقالت دودة القز: ولكن نسيجي أردية الملوك، ونسجك شبكة الذباب، وعند مسّ النسج يتبين الفرق.

إذا اشـــتبكت دمـــوع في خـــدود تبـــين مـــن بكـــا ممـــن تباكـــا

شجرة الصنوبر تثمر في ثلاثين سنه، وشجرة الدباء تصعد في أسبوعين، فتقول للصنوبرة: إن الطريق التي قطعتها في ثلاثين سنة؛ قطعتها في أسبوعين، ويقال لي: شجرة، ولك: شجرة. فقالت لها الصنوبرة: مهلًا، حتى تهب رياح الخريف، فإن ثبتِّ لها تَمَّ فخرُك.

لقد كان التصوف والفقر في مواطن القلوب، فصار في ظواهر الثياب، لقد كان خرقة؛ فصار حرفه، فغير زيّك أيها المرائي، فإنه يصبح بك:

خذوني!»(١).

عاشرًا: البحث الصادق عن التوفيق والعمل لاستجلابه.

وهذا باب واسع ويجمعه علمه وعقد قلبه بأن عقد الأمور وحلّها ومقاليدها وملكوتها هو بيد رب العالمين. فيعمل بقلبه وجوارحه على إرضائه حتى يسدده ويوفقه ويمنحه ويعطيه ويرفعه ويهديه، ويدفع عنه الأذى قبل نزوله ويرفعه بعد حمّه ووقوعه.

وقد ذكر الإمام ابن القيم جملة وصايا نافعة نفيسة هي خلاصة علمه وتجربته ونصحه، فقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ تحت قاعدة أصل التوفيق:

«قاعدة أساس كل خير أن تعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فتتيقن حينئذ أن الحسنات من نعمه فتشكره عليها، وتتضرع اليه أن لا يقطعها عنك، وأن السيئات من خذلانه وعقوبته فتبتهل اليه أن يحول بينك وبينها، ولا يكلك في فعل الحسنات وترك السيئات إلى نفسك.

وقد أجمع العارفون على أن كل خير فأصله بتوفيق الله للعبد، وكل شر فأصله خذلانه لعبده. وأجمعوا أن التوفيق أن لا يكلك الله نفسك، وأن الخذلان أن يخلي بينك وبين نفسك. فإذا كان كل خير فأصله التوفيق وهو بيد الله لا بيد العبد.

ومفتاح التوفيق الدعاء والافتقار وصدق اللجأ والرغبة والرهبة إليه،

---

(١) بدائع الفوائد (٣/ ٧٥٦).

فمتي أعطى العبد هذا المفتاح فقد أراد أن يفتح له، ومتى أضله عن المفتاح بقي باب الخير مرتجًا دونه.

قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكن أحمل همّ الدعاء، فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه».

وعلى قدر نيّة العبد وهمته ومراده ورغبته في ذلك يكون توفيقه سبحانه وإعانته، فالمعونة من الله تنزل على العباد على قدر هممهم وثباتهم ورغبتهم ورهبتهم، والخذلان ينزل عليهم على حسب ذلك، فالله سبحانه أحكم الحاكمين وأعلم العالمين، يضع التوفيق في مواضعه اللائقة به، والخذلان في مواضعه اللائقة به، هو العليم الحكيم، وما أُتي من أُتي إلا من قبل إضاعة الشكر وإهمال الافتقار والدعاء، ولا ظفر من ظفر بمشيئة الله وعونه ألا بقيامه بالشكر وصدق الافتقار والدعاء. ومِلاك ذلك الصبر، فإنه من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، فإذا قطع الرأس فلا بقاء للجسد.

وما ضُرب عبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب والبعد عن الله، وقد خُلقت النار لإذابة القلوب القاسية. وأبعد القلوب من الله القلب القاسي. وإذا قسى القلب قحطت العين.

وقسوة القلب من أربعة أشياء إذا جاوزت قدر الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة. كما أن البدن إذا مرض لم ينفع فيه الطعام والشراب، فكذلك القلب إذا مرض بالشهوات لم تنجع فيه المواعظ.

ومن أراد صفاء قلبه فليؤثر الله على شهوته، فالقلوب المتعلقة بالشهوات

محجوبة عن الله بقدر تعلقها بها. والقلوب آنية الله في أرضه، فأحبها إليه أرقها وأصلبها وأصفاها.

ومن أشغل قلبه بالله والدار الآخرة جال قلبه في معاني كلام الله وآياته المشهودة، ورجع الي صاحبه بغرائب الحكم وطرف الفوائد. وإذا غُذّي القلب بالتذكّر، وسقى بالتفكّر، ونقّي من الدغل؛ رأى العجائب، وأُلهم الحكمة.

وليس كل من تحلّى بالمعرفة والحكمة وانتحلها كان من أهلها، بل أهل المعرفة والحكمة الذين أحيوا قلوبهم بقتل الهوى، وأما من قتل قلبه فأحيى الهوى فالمعرفة والحكمة عارية على لسانه.

وخراب القلب من الأمن والغفلة، وعمارته من الخشية والذكر، وإذا زهدت القلوب في موائد الدنيا قعدت على موائد الآخرة، وإذا رضيت بموائد الدنيا فاتتها تلك الموائد.

والشوق إلى الله ولقائه نسيم يهب على القلب، يروّحُ عنه وهَجَ الدنيا. ومن وطّن قلبه عند ربه؛ سكن واستراح، ومن أرسله في الناس؛ اضطرب واشتد به القلق.

هذا ولا تدخل محبة الله في قلب فيه حب الدنيا إلا كما يدخل الجمل في سمّ الإبرة[(١)] وإذا أحب الله عبدًا اصطنعه لنفسه، واجتباه لمحبته، واستخلصه

---

(١) أي أن محبة الله تطرد محبةَ الدنيا والإخلاد لها والركون إليها بنسبةٍ وتناسب، فعلى قدر تلك المحبة يكون نصيبها وسلطانها ومكانها وحيّزها من القلب، طردًا وعكسًا.
=



لعبادته، فشغل همه به ولسانه بذكره وجوارحه بخدمته[(١)] والقلب يمرض كما

=

ولعل هذا مراد المؤلف إذ قصد حيِّزًا في القلب لا يجتمعان فيه، أو أنه قصد كمال أحدهما أما عموم القلب فقد يجتمعان، فالقلب متشعب وللإيمان شعب قد يتخلف بعضها لضعف القلب وقصوره وتقصيره، ولضدّه كذلك لكن ليست من النواقض فقد يكذب لا يبطن الكفر، وقد يغدر لكن لا يشرك شركًا أكبر.. وهكذا، وهي جادة أهل السنة خلافًا للوعيدية من الخوارج والمعتزلة وكذلك المرجئة من الكلابية والأشاعرة والماتريدية وغيرهم الذين جمعتهم بدعة القول بأن الإيمان كتلة واحدة لا تتجزأ، فجنح الوعيدية للحكم بخلوده في النار (قالت الخوارج بكفره في الدنيا، وقالت المعتزلة بأنه في منزلة بين المنزلتين، واجتمعوا في حكم الآخرة أنه من الخالدين في جهنم) أما الوعدية المرجئة فجنحوا لضد ذلك فحكموا بنجاة وفلاح كل من كان في قلبه معرفةٌ لله أو تصديقٌ ولو فعل من المكفرات ما فعل. وكلها أقوال باطلة للوعيدية والوعدية، وكلا طرفي قصد الأمور ذميم، فهدى الله أهل السنة لما اختلف الناس فيه بإذنه فقالوا: إن الإيمان قول وعمل واعتقاد، يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، وأنه شعب منها ما يزول الإيمان بزوالها كالتوحيد، ومنها ما ينقص بنقصها كالبر والصلة، وعليه فقد يُجامع النفاقُ الأصغر كالكذب والغدر أصلَ الإيمانِ في القلب، أما الأكبر فمحبط للإيمان جملة، كذلك الشرك والكفر، فهي تحبط الإيمان وتنقضه كما يحبط الحدث الطهارة. وتدبر حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: «**الإيمان بضع وستون أو بضع وسبعون شعبة، أفضلها لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**» رواه البخاري في الأدب المفرد (١/ ٢٠٩) وصححه الألباني.

(١) لو قال بعبادته بدلًا عن خدمته كان أولى وأحسن، فهي لم تعرف عن السلف وإنما

=

يمرض البدن وشفاؤه في التوبة والحمية، ويصدأ كما تصدأ المرآة وجلاؤه بالذكر، ويعرى كما يعرى الجسم وزينته التقوى، ويجوع ويظمأ كما يجوع البدن وطعامه وشرابه المعرفة(١) والمحبة والتوكل والإنابة والخدمة.

وإياك والغفلة عمن جعل لحياتك أجلًا، ولأيامك وأنفاسك أمدًا، ومن كل ما سواه بدّ(٢).

ومن توكل على الله ووثق بتدبيره له وحسن اختياره له، فألقى كنفه بين يديه، وسلم الأمر إليه، ورضي بما يقضيه له؛ استراح من الهموم والغموم والأحزان. ومن أبي إلا تدبيره لنفسه؛ وقع في النكد والنصب وسوء الحال والتعب، فلا عيش يصفو ولا قلب يفرح ولا عمل يزكو ولا أمل يقوم ولا راحة تدوم.

=

عرفت عن بعض كتب أهل الكتاب ثم تلقفها المتصوّفة، كذلك فلفظ العبادة هو اللفظ والتسمية الشرعية وفيها غنى وكفاية، ولا يقوم غيرها عنها مهما تكلّفوا البلاغة وتنطّعوا الكَلِم.

(١) لفظ المعرفة ورد في التنزيل: ﴿أَمۡ لَمۡ يَعۡرِفُواْ رَسُولَهُمۡ فَهُمۡ لَهُۥ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩] وقوله: ﴿يَعۡرِفُونَ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ [النحل: ٨٣]، وقد وردت السنة به كذلك كما في حديث معاذ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ لما أرسله إلى اليمن، كذلك في حديث الرؤية: «**فيأتيهم الله عز وجل في صورته التي يعرفون**» رواه البخاري (٧٤٣٧) ومسلم (١٨٢)، أما الجادة المشهورة فهي العلم.

(٢) أي في التوكل على الله كفاية وغناء عن غيره.

والله سبحانه سهّل لخلقه السبيل إليه، وحجبهم عنه بالتدبير، فمن رضي بتدبير الله له وسكن إلى اختياره وسلّم لحكمه؛ أزال ذلك الحجاب، فأفضى القلب إلى ربه واطمأن إليه وسكن.

والمتوكل لا يسأل غير الله، ولا يرد على الله، ولا يدخر مع الله[١].

ومن شُغل بنفسه شُغل عن غيره، ومن شُغل بربه شغل عن نفسه.

والاخلاص هو ما لا يعلمه مَلَك فيكتبه، ولا عدو فيفسده، ولا يعجب به صاحبه فيبطله.

والرضا سكون القلب تحت مجارى الأحكام، والناس في الدنيا معذبون على قدر هممهم بها، وللقلب ستة مواطن يجول فيها لا سابع لها، ثلاثة سافلة، وثلاثة عالية:

فالسافلة: دنيا تزين له، ونفس تحدثه، وعدو يوسوس له، فهذه مواطن الأرواح السافلة التي لا تزال تجول فيها.

والثلاثة العالية: علم يتبيّن له، وعقل يرشده، وإله يعبده. والقلوب جوالة في هذه المواطن.

---

(١) وهذا لمن وثق بتوكّله كما فعل الصدّيق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ لما تصدّق بكل ماله، وهي مرتبة عالية لا ينالها إلا الصدّيقون، أما من لم يثق بتمام توكّله وخشي من نفسه الندم والتحسر والجزع واستكفاف أيدي الناس فليدّخر بالمعروف ليعفّ نفسه ويصون وجهه عن سؤال غير خالقه.

واتّباع الهوى وطول الأمل مادة كل فساد، فانّ اتّباع الهوى يعمي عن الحق معرفة وقصدًا، وطول الأمل ينسي الآخرة ويصدّ عن الاستعداد لها.

ولا يشم عبد رائحة الصدق وهو يداهن نفسه أو يداهن غيره، وإذا أراد الله بعبد خيرًا جعله معترفًا بذنبه، ممسكًا عن ذنب غيره، جوادًا بما عنده، زاهدًا فيما عنده وعند غيره، محتملا لأذى غيره. وإن أراد به شرًّا عكس ذلك عليه.

والهمة العليّة لا تزال حائمة حول ثلاثة أشياء: تتعرف لصفة من الصفات العليا تزداد بمعرفتها محبة وإرادة، وملاحظة لمنّة تزداد بملاحظتها شكرًا وطاعة، وتذكّرًا لذنب تزداد بتذكره توبة وخشية. فإذا تعلقت الهمة بسوى هذه الثلاث جالت في أودية الوساوس والخطرات.

ومن عشق الدنيا نظرت إلى قدرها عنده فصيّرته من خدمها وعبيدها وأذلته، ومن أعرض عنها نظرت إلى كِبَرِ قدره فخدمته وذلّت له.

وإنما يقطع السفر ويصل المسافر بلزوم الجادة وسير الليل، فإذا حاد المسافر عن الطريق ونام الليل كله؛ فمتى يصل الى مقصده؟![(١)].

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٩٩-١٠٠، ١٤١-١٤٢، ١٥٤، ٢٢٥_٢٢٦) باختصار وتصرف يسير.

الحادي عشر: ـ وهو أعظم طريق لتحصيل عبودية الافتقار ـ: تحقيق العبودية لله والاستعانة به.

كما قال سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] قال رسول الله ﷺ: «**ما قال عبد قط إذا أصابه هَمٌّ وحَزَنٌ: اللّٰهمِ إني عبدُك وابنُ عبدك وابنُ أَمَتك، ناصيتي بيدكِ، ماضٍ فيَّ حُكْمُك، عدْلٌ في قضاؤك، أسألك بكل اسم هو لك سمَّيْتِ به نفسَك، أو أنزلتَه في كتابك، أو عَلّمته أحدًا من خَلْقك، أو استأثرت به في علم الغيبِ عندك، أن تجعل القرآنَ ربيع قلبي، ونور صدري، وجلاءَ حزني، وذَهَاب هَمِّي، إلاَّ أذهب الله عز وجل هَمَّه، وأبدله مكان حُزْنه فَرَحًا**» قالوا: يا رسول الله، ينبغي لنا أن نتعلم هؤلاء الكلمات؟ قال: «**أجَلْ، ينبغي لمن سمعهنَّ أن يتعلمهنّ**»(١).

«فتضمن هذا الحديث العظيم أمورًا من المعرفة والتوحيد والعبودية، منها أن الداعي به صدّر سؤاله بقوله: إني عبدك ابن عبدك ابن أمتك، وهذا يتناول من فوقه من آبائه وأمهاته الى أبويه آدم وحواء، وفي ذلك تملّق له، واستخذاء بين يديه، واعتراف بانه مملوكه، وآباؤه مماليكه، وأن العبد ليس له غير باب سيده وفضله وإحسانه، وأن سيده إن أهمله وتخلى عنه هلك، ولم يؤوه أحد ولم يعطف عليه، بل يضيع أعظم ضيعة.

فتحت هذا الاعتراف أني لا غنى بي عنك طرفة عين، وليس لي من أعوذ

---

(١) أحمد (٣٧١٢) وصححه أحمد شاكر.

به وألوذ به غير سيدي الذي أنا عبده. وفي ضمن ذلك: الاعتراف بأنه مربوب مدبَّر مأمور منهي، إنما يتصرف بحكم العبودية، لا بحكم الاختيار لنفسه، فليس هذا شأن العبد، بل شأن الملوك والأحرار، وأما العبيد فتعرفهم على محض العبودية. فهؤلاء عبيد الطاعة المضافون إليه سبحانه في قوله: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَـٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢] وقوله: ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَـٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣] ومن عداهم عبيد القهر والربوبية، فإضافتهم إليه كإضافة سائر البيوت إلى ملكه، وإضافة أولئك كإضافة البيت الحرام إليه، وإضافة ناقته إليه، وداره التي هي الجنة إليه.

وإضافة عبودية رسوله إليه بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبْدُ ٱللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩] وفي التحقق بمعنى قوله: «**إني عبدك**» التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة، وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به.

وفيه أيضًا: أني عبد من جميع الوجوه صغيرًا وكبيرًا، حيًّا وميتًا، ومطيعًا وعاصيًا، معافى ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح.

وفيه أيضًا: أن مالي ونفسي ملك لك، فإن العبد وما يملك لسيده. وفيه أيضًا: أنك أنت الذي مننت عليّ بكل ما أنا فيه من نعمة، فذلك كله من إنعامك على عبدك.

وفيه أيضًا: أني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده. وأني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فان صح له شهود ذلك[١]؛ فقد قال: إني عبدك حقيقة.

ثم قال: «**ناصيتي بيدك**» أي أنت المتصرف في تصرفي كيف تشاء، لست أنا المتصرف في نفسي. وكيف يكون له في نفسه تصرف مَنْ نفسُه بيد ربه وسيده، وناصيته بيده، وقلبه بين أصبعين من أصابعه، وموته وحياته وسعادته وشقاوته وعافيته وبلاؤه كله إليه سبحانه، ليس إلى العبد منه شيء، بل هو في قبضة سيده أضعف من مملوك ضعيف حقير ناصيته بيد سلطان قاهر مالك له تحت تصرفه وقهره، بل الأمر فوق ذلك.

ومتى شهد العبد أن ناصيته ونواصي العباد كلها بيد الله وحده يصرفهم كيف يشاء؛ لم يخفهم بعد ذلك، ولم يرجُهم، ولم يُنزلهم منزلة المالِكين، بل منزلة عبيد مقهورين مربوبين، المتصرفُ فيهم سواهُم، والمدبرُ لهم غيرهم. فمن شهدت نفسه هذا المشهد صار فقره وضرورته إلى ربه وصفًا لازمًا له، ومتى شهد الناسَ كذلك؛ لم يفتقر إليهم، ولم يعلّق أمله ورجاءه بهم، فاستقام توحيده وتوكله وعبوديته.

ولذا قال هود عليه السلام لقومه: ﴿إِنِّي تَوَكَّلْتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمْۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ

---

(١) أي استحضرها بقلبه، واستشعرته نفسه، وقوي فيه تفكّره وتذكّره.

إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦].

وقوله: «ماض فيّ حكمك، عدل فيّ قضاؤك» تضمّن هذا الكلام أمرين: أحدهما مضاء حكمه في عبده. والثاني: يتضمن حمده وعدله. وهو سبحانه له الملك وله الحمد، وهذا معنى قول نبيه هود عليه السلام: ﴿مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ﴾ ثم قال: ﴿إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ أي مع كونه مالكًا قاهرًا متصرفًا في عباده، نواصيهم بيده، فهو على صراط مستقيم، وهو العدل الذي يتصرّف به فيهم. فهو على صراط مستقيم في قوله وفعله وقضائه وقدره وأمره ونهيه وثوابه وعقابه، فخبره كله صدق، وقضاؤه كله عدل، وأمره كله مصلحة، والذي نهى عنه كله مفسدة، وثوابه لمن يستحق الثواب بفضله ورحمته، وعقابه لمن يستحق العقاب بعدله وحكمته.

وفرّق بين الحكم والقضاء، وجعل المضاء للحكم، والعدل لقضاء. فإن حكمه سبحانه يتناول حكمه الديني الشرعي وحكمه الكوني القدري، والنوعان نافذان في العبد، ماضيان فيه، وهو مقهور تحت الحكمين قد مضيا فيه ونفذا فيه، شاء أم أبى. لكن الحكم الكوني لا يمكنه مخالفته، وأما الديني الشرعي فقد يخالفه.

ولما كان القضاء هو الإتمام والإكمال، وذلك إنما يكون بعد مضيّه ونفوذه؛ قال: **«عدل فيّ قضاؤك»** أي الحكم الذي أكملته وأتممته ونفذته في عبدك عدل منك فيه. وأما الحكم فهو ما يحكم به سبحانه، وقد يشاء تنفيذه وقد لا ينفذه، فان كان حكمًا دينيًّا فهو ماض في العبد، وإن كان كونيًّا فإن نفذه سبحانه مضي

فيه، وإن لم ينفذه اندفع عنه. فهو سبحانه يقضي ما يقضى به، وغيرُه قد يقضي بقضاء ويقدّر أمرًا ولا يستطيع تنفيذه. وهو سبحانه يقضي ويمضي، فله القضاء والإمضاء.

وقوله: «**عدل فيّ قضاؤك**» يتضمن جميع أقضيته في عبده من كل الوجوه، من صحة وسقم، وغنىً وفقر، ولذة وألم، وحياة وموت، وعقوبة وتجاوز وغير ذلك، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ﴾ [الشورى: ٣٠] وقال: ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةُۢ بِمَا قَدَّمَتۡ أَيۡدِيهِمۡ فَإِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ كَفُورٞ﴾ [الشورى: ٤٨] فكل ما يقضي به على العبد فهو عدل فيه.

وقوله: «**أسألك بكل اسم هو لك..**» إلى آخره. توسّل إليه بأسمائه كلها ما علم العبد منها وما لم يعلم. وهذه أحب الوسائل إليه، فإنها وسيلة بصفاته وأفعاله التي هي مدلول أسمائه.

وقوله: «**أن تجعل القرآن ربيع قلبي ونور صدري**» الربيع هو المطر الذي يحيى الأرض، شبّه القرآن به لحياة القلوب به، وكذلك شبهه الله بالمطر، وجمع بين الماء الذى تحصل به الحياة والنور الذى تحصل به الاضاءة والاشراق، كما جمع بينهما سبحانه في قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا رَّابِيٗاۖ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ أَوۡ مَتَٰعٖ زَبَدٞ مِّثۡلُهُۥ﴾ [الرعد: ١٧] وفى قوله: ﴿مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٧] ثم قال: ﴿أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [البقرة: ١٩] وفي قوله: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ﴾ الآية [النور: ٣٥]. ثم قال: ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزۡجِي سَحَابٗا

﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ﴾ الآية [النور: ٤٣].

فتضمن الدعاءُ أن يحييَ قلبه بربيع القرآن، وأن ينوّر به صدره، فتجتمع له الحياة والنور، قال تعالى: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

ولما كان الصدر أوسعُ من القلب كان النور الحاصل له يسري منه إلى القلب، لأنه قد حصل لما هو أوسع منه. ولمّا كانت حياة البدن والجوارح كلها بحياة القلب تسري الحياة منه إلى الصدر ثم إلى الجوارح سأل الحياة له بالربيع الذي هو مادتها. ولمّا كان الحزن والهمّ والغمّ يضاد حياة القلب واستنارته سأل أن يكون ذهابها بالقرآن، فإنها أحرى أن لا تعود. وأما إذا ذهبت بغير القرآن من صحة أو دنيا أو جاه أو زوجة أو ولد فإنها تعود بذهاب ذلك.

والمكروه الوارد على القلب إن كان من أمر ماض أحدث الحزن، وإن كان من مستقبل أحدث الهم، وإن كان من أمر حاضر أحدث الغم»(١).

وقال الإمام الطحاوي رحمه الله في عقيدته في وصف الله تعالى: «ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين» أي: لا غنى للعبد مهما كان، فإنه لا غنى له عن ربه، فيلجأ إليه، ويتوسل إليه، ويتضرع بين يديه، ويسأله سبحانه وتعالى. ولا أعظم ولا أيسر في الوصول إلى رب العالمين وإلى فضله من باب الافتقار إلى الله جل وعلا؛ فإن العبد إذا افتقر إلى الله جل وعلا وأظهر افتقاره إلى ربه

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢ - ٩٧) بانتقاء وتصرف.

وأيقن أنه ما من ذرة في بدنه إلا وهي مفتقرة إلى الله جل وعلا؛ كان ذلك من أسباب الخير له.

ويقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: «من رغب في السعادة الأبدية فليلزم عتبة العبودية»[١] فالسعادة الأبدية الدائمة التي لا تنقطع في الدنيا والآخرة هي في لزوم عتبة العبودية، ولزوم عتبة العبودية تحصل للعبد بكمال الذل لله جل وعلا، وغاية الحب له سبحانه وتعالى.

ولا غنى عن الله تعالى طرفة عين، لا في ليل ولا في نهار، ولا في يقظة ولا في منام، ولا في صحة ولا في مرض واعتلال، ولا في غنى ولا في افتقار، فالعبد مفتقر إلى الله جل وعلا فقرًا ذاتيًا لا يمكن أن ينفك عنه، لكن الناس يغفلون ويظنون أنهم أغنياء عن الله عز وجل بما مكنهم، والإنسان إذا بُلي بداء الاغتناء وشعر أنه غني عن الله عز وجل حصل منه شر عظيم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ۝٦ أَن رَّءَاهُ ٱسۡتَغۡنَىٰٓ﴾ [العلق: ٦، ٧]، يعني: إذا رأى غنى نفسه عن الله، لكن مادام يرى فقر نفسه إلى ربه جل وعلا فإنه لا يمكن أن يصيبه الطغيان والخروج عن مقتضى العبودية. قال الطحاوي رحمه الله: «ومن استغنى عن الله طرفة عين فقد كفر وصار من أهل الحين» والحين: الهلاك»[٢].

(١) الفتاوى (١/ ٣٩).

(٢) شرح العقيدة الطحاوية. المصلح (٢٠/ ٤).

الثاني عشر: التّفقُّهُ في معاني الأسماء الحسنى، ودعاء الله تعالى بها، والقيام بما تقتضيه من مقامات العبودية والإجلال والإكرام.

إنّ علم أسماء الرحمن جل وعلا وصفاته هو أشرف العلوم بإطلاق، فهو متعلق بالمحبوب الأعظم والخالق الأوحد والملك الفرد والإله الحق، فله سبحانه كل صفات الجمال ونعوت الجلال، ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

ومتى ما تفكر المؤمن في معاني الأسماء والصفات لرب العالمين قرعت قلبه - ولا بد - أنوار الهيبة والمحبة والإجلال والتعظيم، فخرج من ذلك بافتقار حقيقي واضطرار لازب ومسكنة تامّة وخشية راسخة مع حب تامّ ورجاء لا ينقضي وثناء سابغ وفرح غير محدود وسرور يكاد يظن معه أنه قد خُصَّ برقيقة من الجنة ووقت من أوقات أهلها، نسأل الله الكريم الرحيم من واسع فضله وجزيل عطائه وإحسانه.

ودعاء الله تعالى بأسمائه الحسنى له شأن عظيم عند المرسلين، وهو صريح أمر رب العالمين، قال سبحانه وبحمده: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠].

قال الخطابي: «معنى الدعاء: استدعاء العبدِ ربَّه عزَّ وجل العناية، واستمدادُه منه المعونة، وحقيقته إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرّؤ من الحول والقوة. وهو سمة العبودية، واستشعارُ الذلة البشريَّة، وفيه معنى الثناء

على الله عزَّ وجل، وإضافة الجود والكرم إليه»(١).

«ومن أسماء الله تعالى المتعلقة بافتقار عبده إليه: الرزاق. وهو مبالغة من رازق للدلالة على الكثرة.

والرزاق من أسمائه سبحانه، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ﴾ [الذاريات: ٥٨]، ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا﴾ [هود: ٦] وقال ﷺ: **«إن الله هو المسعِّر القابض الباسط الرازق»**(٢).

ورزقه لعباده نوعان: عام وخاص.

فالعام: إيصاله لجميع الخليقة جميع ما تحتاجه في معاشها وقيامها. فسهّل لها الأرزاق، ودبرها في أجسامها، وساق إلى كل عضو صغير وكبير ما يحتاجه من القوت، وهذا عام للبر والفاجر والمسلم والكافر، بل للآدميين والجن والملائكة والحيوانات كلها. وعام أيضًا من وجه آخر في حق المكلّفين، فإنه قد يكون من الحلال الذي لا تبعة على العبد فيه، وقد يكون من الحرام ويسمى رزقًا ونعمة بهذا الاعتبار، ويقال: رزقه الله، سواء ارتزق من حلال أو حرام، وهو مطلق الرزق.

وأما الرزق المطلق: فهو النوع الثاني، وهو الرزق الخاص، وهو الرزق النافع المستمر نفعه في الدنيا والآخرة، وهو الذي على يد رسول الله ﷺ، وهو

---

(١) شأن الدعاء (٤).

(٢) أبو داود (٣٤٥١) والترمذي (١٣٦١) وقال: حسن صحيح. فهو الرازق والرزاق.

نوعان:

رزق القلوب بالعلم والإيمان وحقائق ذلك، فإن القلوب مفتقرة غاية الافتقار إلى أن تكون عالمة بالحق مريدة له متألهة لله متعبدة، وبذلك يحصل غناها ويزول فقرها.

ورزق البدن بالرزق الحلال الذي لا تبعة فيه، فإن الرزق الذي خص به المؤمنين والذي يسألونه منه شامل للأمرين، فينبغي للعبد إذا دعا ربه في حصول الرزق أن يستحضر بقلبه هذين الأمرين، فمعنى (اللّهم ارزقني) أي ما يصلح به قلبي من العلم والهدى والمعرفة ومن الإيمان الشامل لكل عمل صالح وخلق حسن، وما به يصلح بدني من الرزق الحلال الهنيّ الذي لا صعوبة فيه ولا تبعة تعتريه.

ومن أسمائه سبحانه المتعلقة بافتقار عبده إليه: الحي، القيوم. قال الله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [البقرة: ٢٥٥] وقال سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلۡحَيُّ ٱلۡقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ١، ٢] وقال عز وجل: ﴿وَعَنَتِ ٱلۡوُجُوهُ لِلۡحَيِّ ٱلۡقَيُّومِۖ وَقَدۡ خَابَ مَنۡ حَمَلَ ظُلۡمٗا ﴾ [طه: ١١١].

وهما من أسماء الله الحسنى. و(الحي القيوم) جمعها في غاية المناسبة كما جمعها الله في عدة مواضع في كتابه، وذلك أنهما محتويان على جميع صفات الكمال، فالحي هو كامل الحياة، وذلك يتضمن جميع الصفات الذاتية لله كالعلم، والعزة، والقدرة والإرادة، والعظمة، والكبرياء، وغيرها من صفات الذات المقدسة. والقيوم هو كامل القيّوميّة، وله معنيان:

هو الذي قام بنفسه، وعظمت صفاته، واستغنى عن جميع مخلوقاته. وقامت به الأرض والسماوات وما فيهما من المخلوقات، فهو الذي أوجدها وأمدّها وأعدها لكل ما فيه بقاؤها وصلاحها وقيامها، فهو الغني عنها من كل وجه، وهي التي افتقرت إليه من كل وجه.

فالحي والقيوم هو من له كل صفة كمال، وهو الفعال لما يريد»(١).

«وليعلم المؤمن المفتقر إلى ربه أنه لا حجاب بينه وبين ربه، فمتى أراد ربه دعاه وسأله، والله يحب أن يُسأل ويدعى.

واعلم أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة. فالإنسان إذا سأل شيئًا فإنه يخضع ويذل ويستكين، وهذه هي العبادة، فيكون في ضمن السؤال عبادة.

ومن هنا حرمت المسألة، أي: أن يسأل الإنسان أحدًا من الخلق؛ لأنه يذل له قلبه، ويستكين له، ويخضع له، وهذا لا يجوز أن يكون إلا لله جل وعلا؛ لأنه عبادة، فيكون تحريم المسألة صيانة للإنسان، وإكرامًا له من الله جل وعلا، أكرمه الله بأن لا يخضع لمخلوق مثله، ويكون خضوعه لله وحده، ويكون استغناؤه بالله وحده، ويكون افتقاره إلى الله وحده، والافتقار إلى الله عبادة، أما الافتقار إلى المخلوق فهو شرك.

فهذا معنى كون دعاء المسألة يتضمن العبادة، أما دعاء العبادة فإنه يستلزم دعاء المسألة، وذلك أن المصلي والمزكي والمتصدق والذاكر والتالي يطلب

---

(١) شرح أسماء الله الحسنى في ضوء الكتاب والسنة، سعيد القحطاني (١/ ٧٩، ٨١).

بفعله هذا الثواب، فيطلب من الله أن يثيبه على ذلك، وهذا هو دعاء المسألة؛ لكونه يطلب الثواب أو يطلب الالتجاء والاستعاذة من العذاب.

ومن المعلوم أن المخلوق لا بد له من طلب النفع الذي ينفعه، ومن الهرب مما يضره، يضطر إلى هذا اضطرارًا، ولا بد له من ذلك. وكذلك الأسباب التي تجلب له النفع هو بحاجة إليها، وكذلك الأسباب التي بها يدفع الضر والعذاب والألم وغيرها، فالعبد مضطر إلى ما ينفعه، ومضطر إلى دفع ما يضره، ومضطر إلى تحصيل السبب الذي به جلب النافع، وإلى تحصيل السبب الذي به دفع المضر، فهو بأمس الحاجة إلى هذه الأمور، وهذه كلها يجب أن تطلب من الله وحده، ولا تطلب من المخلوق.

فيتبين لنا أن الأمر كله بيد الله، وأن الإنسان يجب أن يكون خاضعًا لله، وأن يكون عبدًا لله من جميع الوجوه، والدعاء داخل في هذا، سواء كان دعاء مسألة أو دعاء عبادة.

قال الشارح(١): فتبين بهذا قول شيخ الإسلام: إن دعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، كما أن دعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، وقد قال الله تعالى عن خليله: ﴿وَأَعۡتَزِلُكُمۡ وَمَا تَدۡعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَأَدۡعُواْ رَبِّي عَسَىٰٓ أَلَّآ أَكُونَ بِدُعَآءِ رَبِّي شَقِيّٗا ٤٨ فَلَمَّا ٱعۡتَزَلَهُمۡ وَمَا يَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَهَبۡنَا لَهُۥٓ إِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَۖ

---

(١) إذا أطلق الشارح فالمراد أول من تصدى لشرح ذلك المتن المراد، والمراد بالشارح لكتاب التوحيد هو الشيخ سليمان آل الشيخ أول شارح لكتاب التوحيد عبر سفره النفيس تيسير العزيز الحميد لشرح كتاب التوحيد.

وَكُلًّا جَعَلْنَا نَبِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨ - ٤٩].

يعني: أن هذه الآية بينت أن الدعاء عبادة بأنواعه؛ لأنه ـ أولًا ـ قال: ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ ﴾، ثم بعد ذلك قال تعالى: ﴿ فَلَمَّا ٱعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ﴾ فبين أن الدعاء عبادة، وأنهم إذا دعوا شيئًا فقد عبدوه، وهذا كثير في القرآن»(١).

والدعاء الذي يلامس الشغاف هو الدعاء الحقيق بالإجابة، فهو متضمن لتمام الافتقار، إذ هو عبد فقير قليل ضعيف عاجز يدعو ويسأل ربه وإلهه الغني القادر البر الرحيم.

«وأصل الشرك والكفر والجهل والجاهلية عند النَّاس هو شعورهم بأن لهم حولًا أو طولًا أو قوة ليست لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست تابعة لمشيئة الله سبحانه وتعالى، فلو شعر النَّاس أو علموا حقيقة حالهم، وأنهم فقراء إِلَى الله تبارك وتعالى في كل نَفَس يتنفسونه، وفي كل لحظة، وأنه لا يمكن في أية حال من الأحوال أن يستقلوا بأنفسهم طرفة عين، لكانت عبوديتهم لله تَبارك وتعالَى غير ما نشاهد وغير ما نرى، ولهذا كَانَ من دعاء النبي ﷺ استعاذته أن لا يكله إِلَى نفسه طرفة عين، وهكذا المؤمنون، فلو وكلنا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى إِلَى أنفسنا طرفة عين لهلكنا.

ولكنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى هو الذي يدبرنا ويسيرنا بفضله، المؤمن والكافر،

---

(١) شرح فتح المجيد شرح كتاب التوحيد، للغنيمان (٣/٤٦).



لكن المؤمن يستشعر فقره: إِلَى الله تبارك وتعالى في كل شيء، فيكون مقتضى ذلك الشعور أن يعبد الله تبارك وتعالى وحده، ولهذا فالمؤمن رغم أنه يأخذ بالأسباب، لكن لا يجوز له أن يعلق قلبه بالأسباب، أو أن يخاف من بعض ما يخيفه، وهو من الأسباب أيضًا، لكن لا يعلق خوفه بالأسباب، فمنتهى الرجاء ومنتهى الخوف يكون إِلَى الله، ولهذا نقول: «**أعوذ برضاك من سخطك، وبمعافاتك من عقوبتك**»(١).

وأصل معرفة العبودية أن تكون مبنية عَلَى الافتقار إِلَى الله تبارك وتعالى، ومن الافتقار إِلَى الله: أن القلوب لا تطمئن ولا تهدأ ولا تسكن ولا ترتاح إلا بأن تعرفه وأن تعبده عَزَّ وَجَلَّ، فإن من لم يعرف الله عَزَّ وَجَلَّ حق المعرفة، ويعبده حق العبادة كَانَ فيه من الشقاء والألم، والنكد والنغص بقدر جهله بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولهذا نجد عصاة المؤمنين أحسن حالًا من الكفار، والكفار شر من ذلك.

فكلما نقصت من القلب هذا المعرفة نقصت السعادة والراحة والطمأنينة، وأكثر النَّاس سعادة وطمأنينةً في هذه الدنيا هم أكثرهم إيمانًا بالله، ومعرفةً به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، ولو جاءتهم مصائب الدنيا جميعًا ما أقلقتهم لحظةً واحدة.

والمؤمن قد يحزن أو يغتم، ولكن ذلك لا يفقده سعادته وطمأنينته ورضاه بأن كل هذا من الله وإلى الله، وأن له في ذلك الأجر مهما عظمت المصيبة أو

---

(١) مسلم (٥٩٠).



الفتنة، فإنه يرى أن ذلك لم يخرج عن كونه دافعًا وجالبًا للطمأنينة، وللراحة التي يجدها.

وأما الكافر فإن قلبه لا يحتمل ذرة من البلاء الذي يصيب المؤمن إلا ويقنط ويجزع ويسخط ويشكو ربه إِلَى النَّاس ويكفر بنعم الله جميعًا من أجل بليّة أُبتِلَي بها، لا تعدل ولا تزن شيئًا قليلًا من نعم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى التي أنعمها عليه، فيجب عَلَى الإِنسَان استشعار أنه فقير إِلَى الله، وأن يكون شعوره ومعرفته بأن قلبه لا يطمئن ولا يسكن ولا يرتاح إلا إذا عرف ربه وعبده واتبع مرضاته، واجتنب مساخطه، هذا هو الذي به تتحقق العبودية الكاملة لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

والمؤمن لا يستغني عن عصمة الله تعالى وحفظه طرفة عين، فقد كان من دعائه ﷺ: «**يا حي يا قيوم برحمتك أستغيث، أصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين**»[(١)][(٢)].

«فالأنبياء وأتباعهم قالوا هذا لعلمهم شدة فقرهم إلى الله وحاجتهم إليه، أمَّا أولئك فقد استغنوا عن الله تبارك وتعالى، فلا يذكرون الله إلا قليلًا، ولا يدعونه ولا يلجأون إليه.

ولهذا كان السلف الصالح يدعون الله في كل وقت، ويحثون أبناءهم

---

(١) الترمذي (٣٥٢٤) وحسنه الألباني في السلسلة (٧/٥٥٧).

(٢) الفوائد الشهير بالغيلانيات لأبي بكر الشافعي (١/ ٤٧٩) (٥٩٠).

وتلاميذهم والمسلمين على دعاء الله حتى قال قائلهم: «إني لأدعو الله ولو كان في شراك نعلي» فلو انقطع شراك نعله لدعا الله سبحانه وتعالى. فادعُ الله أيها العبد فأنت فقير إليه في كل لحظة، وفي كل حين وفي كل وقت، لكن أولئك يظنون أنهم في غنى عن الله، ولهذا تمر بهم الأيام ذوات العدد ولا يدعون الله سبحانه وتعالى فيها، حتى وإن عبدوه.

ومن الناس من يصلي ويصوم ويؤدي الفرائض، ولكنه لا يدعو الله، لأن الشيطان قد أغفل قلبه وأشعره بأنه في غنىً عن دعاء الله تبارك وتعالى.

والمقصود أن العبد المؤمن إذا شهد هذا الحال من الافتقار ومراقبة الله له ارتفع إيمانه، وما من قلب يرقى في درجات الإيمان وقطعيات اليقين إلا ويشهد ذلك بمقدار رقيّه ورسوخ إيمانه ويقينه» .

الثالث عشر: من وسائل تحصيل عبودية الافتقار إلى الغني الغفار مجاهدة النفس بالقناعة.

فالقناعة كنز لا يفنى، وهي من فروع الزهد في الدنيا، والمؤمن يسأل الله غنىً لا يطغيه وصحة لا تلهيه.

قال الله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧] والحياة

الطيبة هي القناعة، كما قال عليّ[١] وابن عباس[٢] رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُم.

وقال العثيمين رحمه الله تعالى في هذه الآية: «لم يقل: فلننعمن أبدانهم، بل قال: ﴿فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً﴾ وذلك بما يجعل الله في قلوبهم من الأنس وانشراح الصدر وطمأنينة القلب وغير ذلك، حتى إن بعض السلف قال: «لو يعلم الملوك وأبناء الملوك ما نحن فيه لجالدونا عليه بالسيوف». يعني من انشراح الصدر ونور القلب والطمأنينة والسكون. أسأل الله أن يشرح قلبي وقلوبكم للإسلام، وينورها بالعلم والإيمان، إنه جواد كريم»[٣].

وكان رسول الله ﷺ يحث على القناعة ويدعو إليها بحاله ومقاله، فقد كان إمام الزاهدين ونبراس ذوي العقل والقناعة، قد عُرضت عليه جبال الذهب فقنع بالكفاف، فكان يربط الحجر على بطنه من الجوع، وينام على الحصير، ويلبس ما تيسر، ويسكن كسكن غبراء الناس وهو سيد ولد آدم، وخُيّر بين الملك والنبوة وبين العبودية والرسالة فتواضع للعبودية دون الملك، وهذا في غاية القناعة التي ليس وراءها مرمى.

وكان ينصح لأمته بالبُلغة دون الترف، فعن عبيد الله بن محصن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: **«مَنْ أصبَحَ منكم آمِنا في سِرْبه[٤]، مُعافى في جَسَدِهِ،**

---

(١) فيض القدير (٣/ ١٧٠).

(٢) المستدرك (٢/ ٣٥٧) (٣٣٦٠) وشعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢٩١).

(٣) شرح رياض الصالحين، العثيمين (١/ ٢٩٨).

(٤) آمنا في سربه: أي في نفسه، يقال: فلان واسع السرب، أي: رَخِيُّ البال، وروي بفتح =

عندهُ قوتُ يومِه، فكأنَّما حِيزَتْ له الدنيا بحذافيرها»[(١)] أي كأنما جمعت له الدنيا بأسرها وأُعطيها لوحده دون الناس، لأن قيام الدنيا على هذه الثلاث، فمتى قامت للعبد فهو كملوك الدنيا في الحقيقة، بل عيشه أطيب، إذ لم يزيدوا عليه إلا بالحطام الملهي والغم الملازم والحساب الباقي.

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: **«قد أَفْلَحَ مَنْ أسلم، ورُزِقَ كفافا، وقَنَّعه الله بما آتاه»**[(٢)].

وعن فضالة بن عبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: **«طُوبى لِمَنْ هدِيَ للإسلام، وكان عَيْشُه كَفَافا وَقنِعَ»**[(٣)].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ ناسًا من الأنصار سألوا رسولَ الله ﷺ فأَعْطَاهم، ثم سألوه فأَعْطَاهم، ثم سألوه فأعطاهم، حتى إذا نَفِذَ ما عِنْدَهُ قال: **«ما يكون عنْدي من خير فلَنْ أَدَّخِرَهُ عنكم، ومَنْ يَسْتَعِفف يُعِفُّه الله، ومَن يستَغْنِ يُغْنِهِ الله، ومن يتصبَّر يُصَبِّره الله، وما أُعْطِي أحد عطاء هو خَير**

=

السين، وهو المسلك والمذهب.

(١) البخاري في الأدب المفرد (٣٠٠) والترمذي (٢٣٤٦) وقال: حديث حسن غريب، وحسنه السيوطي في الجامع الصغير (٨٤٣٦) وصححه الشوكاني في فتح القدير (٢/٤٤) وحسنه الألباني في صحيح الترمذي (٥٣٤٦).

(٢) أخرجه مسلم (٣/١٠٢) والترمذي (٢٣٤٨).

(٣) أخرجه أحمد (٦/١٩) والترمذي (٢٣٤٩) بسند حسن.

وأوسَع من الصبر» متفق عليه[١].

وعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«أغبطُ الناس عندي مؤمن خفيف الحاذ[٢] ذو حظ من صلاة وكان رزقه كفافًا فصبر عليه حتى يلقى الله عز وجل، وأحسن عبادة ربه، وكان غامضًا في الناس[٣]، عُجّلتْ منيّته، وقلّ تراثه، وقلّت بواكيه»**[٤].

وكان نبي الله ﷺ يوجّه أمته إلى أن حقيقة الغنى إنما تكون إذا استغنت النفس حتى وإن قلّ عرض الدنيا، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: إنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: **«ليس الغِنى عن كثرة العَرَض[٥]، ولكن الغِني غني النفسِ»**[٦].

بل كان ينهاهم عن مسألة الخلق ويوجههم للاستغناء عنهم، فعن الزبير بن العوام رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«لأن يأخذ أحدكُم أحْبُلَهُ[٧]، ثم يأتي**

---

(١) البخاري (٢/١٥١) ومسلم (٣/١٠٢).

(٢) الحاذ: أصله طريقة المتن، وهو ما يقع عليه اللبد من ظهر الفرس، أي: خفيف الظهر من العيال والمال.

(٣) أي: مغمورًا غير مشهور. وفي رواية مسند أحمد بزيادة: **«لا يُشار إليه بالأصابع»**.

(٤) شعب الإيمان للبيهقي (٧/ ٢٩٢) وبنحوه في مسند أحمد (٥/٢٥٢) والزهد له (١١) وفي الزهد لوكيع (١٣٣) والترمذي (٢٣٤٧) وحسنه، وفي السند مقال.

(٥) العَرَض: ما يتموّله الإنسان ويقتنيه من المال وغيره.

(٦) رواه البخاري (٨/١١٨).

(٧) الأحبل: جمع حبل.

الجبلَ فيأتي بحُزْمة من حَطَب على ظهره فيبيعها، خير له من أن يسأل الناس أعْطَوْهُ أم مَنَعوُه»[١].

وقد أرشد صلوات الله وسلامه وبركاته عليه إلى وجوب الاستغناء عن الناس وكفّ إراقة ماء الوجه إليهم بالعمل الشريف، فعن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رُجلا من الأنصار أتى النبيَّ ﷺ يسأله، فقال: «**أمَا في بيتك شيء؟**» قال: بَلَى، حِلْس[٢] نَلْبَسُ بعضَه، ونَبْسُطُ بعضَهُ، وقَعْب[٣] نَشْرَبُ فيه من الماء، قال: «**ائتني بهما**» فأتاه بهما، فأخذها رسولُ الله ﷺ بيده، وقال: «**من يشتري هذين؟**» قال رجل: أنا آخذها بدرهم، قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ يزيد على درهم؟**» ـ مرتين أو ثلاثًا ـ قال رجل: أنا آخذهما بدرهَمْينِ، فأعطاهما إياه. فأخذ الدرهمين فأعطاهما الأنصاريَّ، وقال: «**اشْترِ بأحدهما طعامًا، فانبِذْه إلى أهلك، واشتر بالآخر قَدُّومًا**[٤] **فائْتِني به**»، فأتاه به، فشَدَّ فيه رسولُ الله ﷺ عودًا بيده، ثم قال: «**اذْهبْ فاحتَطِبْ وَبِعْ، ولا أَرَيَنَّكَ خَمْسة عشر يومًا**»، ففعل. فجاء وقد أصاب عشرةَ دراهم، فاشترى ببعضها ثوبًا، وببعضها طعامًا، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**هذا خْير لك من أن تجيء المسألة نُكْتَة في**

(١) أخرجه أحمد بسند صحيح (١/ ١٦٤) (١٤٠٧).
(٢) الحِلْس: الجلد، وقيل: هو الكساء يكون على ظهر البعير.
(٣) القعب: الإناء.
(٤) القدّوم: الفأس.

وجهك يومَ القيامة، إن المسألة لا تَصْلُحُ إلا الثلاث: لذي فقر مُدْقِع(١)، أو لذي غُرْم مُفْظِع(٢)، أو لذي دم مُوجِع»(٣).

وتأمّل حكمته ﷺ وعنايته الدقيقة بأسباب الاستغناء وبحفظ كرامة الرجل، إذ امتنع أوّلًا عن التصدّق عليه رحمة به مما يلحقه من سؤال الناس وقرعًا لقلبه وتنبيهًا له، ثم ثنّى بسؤاله عما لديه مما يمكن الاستغناء عنه ـ ولو مؤقتًا ـ، ثم باعها حتى يكون رأس مال تجارته من أصل ماله لا مال غيره، ثم ساعده بأن يكون سمسارًا متبرّعًا له، ثم انتظر المزايدة حتى طابت نفسه بالدرهمين الذين قسمهما بين الحاجة الآنية المُلحّة لأهل الرجل، وبين شرائه قدّومًا يكون معينًا لاحتطابه وعمله، ثم ساعده بربط العود على حديدة القدوم ليكون الفأس صالحًا للاحتطاب، ثم أمره أن يغيب عنه خمسة عشر يومًا ليقطع رجاءه بالعودة لطلب الصدقة التي لا ترهق البدن ولا تتعبه وذلك أدعى لنشاطه، حتى إذا عاد بربح الدراهم التي أغنته ووسعت عليه وعلى أهله وذاق حلاوة جنى الكدّ وربح عرق الجبين ختم له بالوصية الرائعة المنبهة له ولغيره. فصلوات الله وسلامه وبركاته ما جرى الزمان على هذا الرسول المعلم

---

(١) الفقر المدقع: هو الذي يلصق صاحبه بالدقعاء، وهي التراب، وذلك من شدته وخلوّ يد صاحبه.

(٢) الغرم: هو احتمال الغرامة الماليّة، والمفظع: الشديد الثقيل.

(٣) أخرجه أحمد (٣/ ١٠٠) وحسنه الأرناؤوط لغيره، وأبو داود (١٦٤١) وسكت عنه فهو صالح عنده. والدم الموجع: هو الدية الثقيلة على من احتملها.



www.alukah.net

والرحيم الشفيق، ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

ووعد من استغنى بسؤال الله عن سؤال بالجنة فعن ثوبان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: **«مَنْ يَكْفُلُ لي أن لا يسأل الناس شيئا وأتكَفَّلُ له بالجنّة؟»** فقال ثوبان: أنا، فكان لا يسأل أحدًا شيئًا(١).

وقال حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال سألتُ رسولَ الله ﷺ فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني، ثم سألتُه فأعطاني ثم قال لي: **«يا حكيم، إن هذا المال خَضِرٌ حُلْو(٢)، فَمَنْ أخذَه بسَخَاوَةِ نفسه بُورِكَ له فيه، ومن أخذه بأشراف نفسه لم يُبَارِكْ له فيه، وكان كالذي يأْكُلُ ولا يشبَعُ، واليَدُ العُلْيا خير من اليد السفلى»** قال حكيم: فقلت: يا رسولَ الله، والذي بَعَثَكَ بالحقِّ لا أرْزَأُ(٣) أحدًا بَعدَكَ شيئًا حتى أُفارِقَ الدنيا. فكان أبو بكر يدعو حَكيمًا لِيُعطِيَهُ عطاءه، فيأْبى أن يقبلَ منه شيئًا، ثم إن عمر دعاه ليُعْطِيه عطاءه، فأبى أن يَقْبَلَ منه شيئًا، فقال عمر: يا معشر المسلمين، إني أعرض على حكيم حقَّهُ الذي له مِنْ هذا الفيء، فيأبَى أن يأخذه، فلم يَرْزَأْ حكيم شيئًا أحدًا من الناس بعدَ رسولِ الله ﷺ

---

(١) أخرجه أحمد بإسناد صحيح (٥/ ٢٧٥) وأبو داود (١٦٤٣).

(٢) الخَضِرُ: هو العشب الناعم الطريّ، والمراد: أن المال محبوب إلى الناس مستحلىً في قلوبهم ملتذّون به.

(٣) الإزراء: التنقّص والأخذ. وأصله من النقص، فإن من أخذ شيئًا فقد انتقصه.



حتى تُوفيَ. متفق عليه[١].

فالأصل في سؤال الناس بلا حاجة التحريم، فعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ سأل الناس تكُّثرًا[٢]، فإنما يسأل جَمْرًا، فليستقِل أو ليستكثر**»[٣] وعن قبيصة بن مخارق الهلالي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: تحمَّلت حَمَالة[٤]، فأتيتُ رسول الله ﷺ أسأله فيها، فقال: «**أقِمْ حتى تأتيَنا الصدقةُ، فنأمُر لك بها**» ثم قال: «**يا قبيصة، إنَّ المسألةَ لا تحلّ إلا لأحد ثلاثة: رجل تحمل حمالة، فَحلَّتْ له المسألة حتى يُصيبَها، ثم يُمْسِكُ، ورجُل أصابتهُ جائحة[٥] اجتاحت، فحلّتْ له المسألة حتى يُصيب قوَامًا مِنْ عَيْش ـ أو قال: سِدادًا مِنْ عَيْش ـ[٦] ورجل أصابته فاقة، حتى يقول ثلاثة من ذوي الحِجَا[٧] من قومه: لقد أصابت فلانًا فاقة، فحلّت له المسألة، حتى يصيبَ قَوَاما من عَيْش ـ أو**

---

(١) البخاري (٨/١١٦) ومسلم (٣/٩٤).

(٢) أي بلا حاجة، إنما ليكثر ماله بعطائهم.

(٣) أخرجه مسلم (٣/٩٦).

(٤) الحمالة: احتمال الكلفة المالية في الديات، وذلك في حال ثورة فتنة بين فريقين، فيقتل بينهم قتلى، فيلتزم رجلٌ مصلح أن يؤدي ديات القتلى من عنده، طالبًا الصلح وإطفاء الفتنة.

(٥) الجائحة: الآفة التي تعرض للإنسان فتستأصل ماله.

(٦) القوام: ما يقوم به أمر الإنسان من مال ونحوه. وبنحو معناه السِّداد ـ بكسر السين ـ: وهو ما يكفي المعوز والمقل، يقال: في هذا سِداد من عِوَز.

(٧) الحجا: العقل.

قال: سِدَادا من عيش - فما سِوَاُهنَّ من المسألة يا قبيصة سُحْت يأكلها صاحبها سُحْتا»(١).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن عمر قال: كان رسولُ الله ﷺ يعطيني العَطَاءَ، فأقول: أعْطِهِ مَنْ هُوَ أَفْقَر إليه مِني قال: فقال: «**خذه، وإذا جاءك من هذا المال شيء وأنت غير مُشْرِف**(٢) **ولا سائل فَخُذه فتَموَّله، فإن شئتَ كُلْه، وإن شئتَ تصَدَّقْ به، وما لا فلا تُتْبِعّهُ نَفْسَك**» قال سالم بن عبد الله: فلأجل ذلك كان عبد الله لا يسألُ أحدًا شيئا، ولا يرُدّ شيئا أعْطِيَهُ. متفق عليه(٣) فالمال متى أُخِذ من حلّه بسخاوة نفس بورك لصاحبه فيه، لا مع الهلع والجزع.

وعن محمد بن كعب القرظي رحمه الله قال معاوية بن أبي سفيان وهو على المنبر: «**أيُّها الناس، إنَّه لا مانع لما أعطاه الله، لا مُعْطِي لما منع الله، ولا ينفع ذا الجَدِّ منهُ الجَدُّ**(٤)**، من يُرِدِ الله به خيرا يُفَقِّهْهُ في الدين**» ثم قال: سمعتُ هؤلاء الكلمات من رسول الله ﷺ على هذه الأعواد(٥).

---

(١) أخرجه مسلم (٣/٩٧) والسحت هو: المال الحرام، سمي به لأنه يُسْحِت البركة ويذهبها، أو لأنه يهلك آكله.

(٢) الإشراف: التطلّع والانتظار والطمع.

(٣) البخاري (٩/ ٨٤) ومسلم (٣/٩٨).

(٤) الجَدّ: الغنى.

(٥) أخرجه مالك في الموطّأ (١٧٣٢) وصحح سنده أيمن صالح شعبان.

وعن عمرو بن تغلب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسولَ الله ﷺ أُتِي بمال - أو سَبيْ - فقسمه، فأعطى رِجالًا، وترك رِجالًا، فَبَلَغَهُ أن الذين ترك عَتَبُوا؛ فحمِدَ الله، ثم أثنى عليه، ثم قال: «**أما بعدُ، فوالله إني لأعطي الرَّجلَ، وأدَعُ الرجلَ، والذي أدَعُ أحبُّ إليَّ مِنَ الذي أُعطي، ولكنِّي أُعطي أقوامًا لِمَا أرى في قلوبهم من الجزَعِ والهلَع، وأكِلُ أقوامًا إلى ما جعل الله في قُلُوبِهِمْ من الغِنَى والخير، منهم عمرو بن تغلب**» فوالله ما أحِب أن لي بكلمةِ رسولِ الله ﷺ حُمْرَ النَّعَم»[(١)].

وكان يرشد أمته إلى توحيد رب العالمين في السؤال، فكمال التوحيد أن لا يسأل إلا الله، وقد بايع جمعًا من صحابته على أن لا يسألون الناس شيئًا. وعن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ نَزَلَتْ به فَاقَة فأنزلها بالناس لم تُسَدَّ فاقَتُه، ومَنْ نزلتْ به فاقة فأنزلها بالله فيوشك الله له بِرِزْقٍ عاجِل أو آجل**»[(٢)].

وروي أنه ﷺ كان يدعو فيقول: «**اللّهم أقنعني بما رزقتني، وبارك لي فيه، واخلف على كل غائبة لي بخير**»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢/٢٣).

(٢) أخرجه أحمد (١/٣٨٩) والترمذي (٢٣٢٦) وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح غريب. وحسنه أيمن صالح شعبان.

(٣) المستدرك (٣٣٦٠) وشعب الإيمان للبيهقي (٣٧٥٦) أما في مصنف ابن أبي شيبة فموقوف على ابن عباس أنه كان لا يدعه بين الركن والمقام.



وإن الرضى عن الله هو باب القناعة، فمتى ولجه المؤمن فقد هبط وادي القناعة الخصيب. فعن ابن عباس قال: قال موسى عليه السلام حين كلم ربه: أي رب، أيّ عبادك أحب إليك؟ قال: «**أكثرهم لي ذكرًا**» قال: أيّ عبادك أحكم؟ قال: «**الذي يقضي على نفسه كما يقضي على الناس**» قال: رب، أيّ عبادك أغنى؟ قال: «**الراضي بما أعطيته**»(١).

وعن عثمان بن عفان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسولَ الله ﷺ قال: «**ليس لابنِ آدم حقٌّ في سوى هذا الخصال: بيت يسكُنه، وَثوْب يُوارِي عورتَه، وجِلْفُ الخبزِ والماء**»(٢) وقال النضر بن شَميل: جِلْفُ الخبز: يعني ليس معه إدام. وفي رواية رزين: «**وجلف خُبز يَرُدّ بها جَوْعتَهُ، والماء القَراح**». أما الماء القَراح فهو الذي لا يشوبه شيء ولا يخالطه مما يُجعل فيه كالعسل والتمر والزبيب وغير ذلك مما يُتخذ شرابًا. وفي هذا الحديث غُنيَةٌ ومستمسك للزهاد المقتصدين.

قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال حكيم: أكثر مصارع العقول تحت بروق المطامع.

وقال بِشْر: لو لم يكن في القنوع إلا التمتع بالعز لكفى.

وقال الشافعي: من غلبت عليه شهوة الدنيا لزمته العبودية لأهلها، ومن رضي بالقنوع زال عنه الخضوع.

---

(١) جامع الأصول (٩٨٦٥) والشعب للبيهقي (١٠٣٤٨).

(٢) أخرجه أحمد (٦٢/١) (٤٤٠) والترمذي (٢٣٤١) وقال: هذا حديث حسن صحيح.



وقال بعض العارفين: الطمع طمعان: طمع يوجب الذل لله، وهو إظهار الافتقار. وغايته العجز والانكسار، وغايته الشرف والعزّ والسعادة الأبدية. وطمعٌ يوجب الذل في الدارين، وهو رأس حب الدنيا، وحب الدنيا رأس كل خطيئة، والخطيئة ذل وخزي.

وحقيقة الطمع: أن تعلق همتك وقلبك وأمَلك بما ليس عندك، فإذا أمطرت مياه الآمال على أرض الوجود، وأُلقي فيها بذر الطمع؛ بسقت أغصانها بالذل. ومتى طمعت في الآخرة وأنت غارق في بحر الهوى ضللت وأضللت»[1].

وقال بشر بن الحارث:

أفادتنا القناعةُ أيَّ عزٍّ ... ولا عزًّا أعزّ من القناعة
فخذْ منها لنفسِك رأسَ مالٍ ... وصيِّر بعدَها التقوَى بضاعة
تحزْ حالين: تُغنى عن بخيلٍ ... وتسعدُ في الجنانِ بصبرِ ساعة

وقال آخر:

هي القناعةُ لا ترضَى بها بدلًا ... فيها النعيمُ وفيها راحةُ البدنِ
انظرْ لمن ملَك الدُّنيا بأجمعِها ... هل راح منها بغير القطن والكفن

(١) فيض القدير (٣/ ١٧٠).

وقال آخر:

عليك بتقوَى اللهِ واقنعْ برزقِه فخيرُ عبادِ الله مَن هو قانعُ
ولا تُلهِك الدنيا ولا تطمعْ بها فقد يُهلك المغرورَ فيها المطامعُ

وما أحسن قول الشافعي:

غنيٌّ بلا مالٍ عن الناسِ كلِّهم وليس الغِنى إلا عن الشيءِ لا به

وقال آخر ـ وما أجوده! ـ:

إذا أظمأتك أكفُّ اللئامِ كفَتْك القناعةُ شِبَعًا ورِيَّا
فكن رجلًا رِجله في الثَّرَى وهامةُ همَّتِه في الثُّريَّا
أبيًّا لنائلِ ذي ثروةٍ تَراه بما في يديه أبيّا
فإنَّ إراقةَ ماءِ الحياةِ دونَ إراقةِ ماءِ المحيَّا

والافتقار إلى الله بحر لا ساحل له، وعلى قدر تحقيقه يكون تحقيق الغنى وإقامة بناء التوحيد في القلب، قال شيخ الإسلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا تبين ذلك، فمعلوم أن الناس يتفاضلون في هذا الباب تفاضلًا عظيمًا وهو تفاضلهم في حقيقة الإيمان، وهم ينقسمون فيه إلى عام وخاص ولهذا كانت إلهية الرب لهم فيها عموم وخصوص.

ولهذا كان الشرك في هذه الأمة **«أخفى من دبيب النمل»**(١) وفي الصحيح

(١) المسند (٣/٤٠٣) وحسنه الألباني لغيره في صحيح الترغيب والترهيب (٣٦).

عن النبي ﷺ أنه قال: **«تَعِسَ عبد الدرهم، تعس عبد الدينار، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، إن أعطي رضي، وإن منع سخط»**(١).

فسماه النبي ﷺ عبدَ الدرهم، وعبد الدينار، وعبد القطيفة، وعبد الخميصة، وذكر ما فيه دعاءً وخبرًا وهو قوله: **«تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش»** والنقش إخراج الشوكة من الرِّجل، والمنقاش ما تُخرجُ به الشوكةُ.

وهذه حال من إذا أصابه شر لم يخرج منه ولم يفلح، لكونه تعس وانتكس، فلا نال المطلوب، ولا خلص من المكروه، وهذه حال من عبد المال.

وقد وَصِف ذلك بأنه إذا أعطي رضي وإن منع سخط، كما قال تعالى: ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٨] فرضاهم لغير الله، وسخطهم لغير الله.

وهكذا حال من كان متعلقًا برئاسة أو بصورة ونحو ذلك من أهواء نفسه، إن حصل له رضِيَ، وإن لم يحصل له سخط، فهذا عبدُ ما يهواه من ذلك، وهو رقيق له. إذ الرِّقُّ والعبودية في الحقيقة هو رقّ القلب وعبوديته، فما استرق القلب واستعبده فهو عبدُه. ولهذا يقال:

العبدُ حُرٌّ ما قنع   والحرُّ عبدٌ ما طمع

(١) البخاري (٦٤٣٥).

وقال الشاعر:

أطعــتُ مطــامعي فاســتعبدتني ولــو أني قنعــت لكنــت حــرًّا

ويقال: الطمع غلّ في العنق، قيد في الرجل، فإذا زال الغلّ من العنق؛ زال القيد من الرجل.

ويروى عن عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: «الطمع فقر، واليأس غنى، وإن أحدكم إذا يئس من شيء استغنى عنه».

وهذا أمر يجده الإنسان من نفسه، فإن الأمر الذي ييأس منه لا يطلبه ولا يطمع فيه، ولا يبقى قلبه فقيرًا إليه ولا إلى من يفعله. وأما إذا طمع في أمر من الأمور ورجاه، فإن قلبه يتعلق به، فيصير فقيرًا إلى حصوله وإلى من يظن أنه سبب في حصوله. وهذا في المال والجاه والصور وغير ذلك. قال الخليل ﷺ: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ وَٱعۡبُدُوهُ وَٱشۡكُرُواْ لَهُۥٓۖ إِلَيۡهِ تُرۡجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ١٧].

فالعبد لا بد له من رزق، وهو محتاج إلى ذلك، فإذا طلب رزقه من الله صار عبدًا لله، فقيرًا إليه، وإذا طلبه من مخلوق صار عبدًا لذلك المخلوق فقيرًا إليه.

ولهذا كانت مسألة المخلوق محرمة في الأصل، وإنما أُبيحت للضرورة، وفي النهى عنها أحاديث كثيرة في الصحاح والسنن والمسانيد كقوله ﷺ: «**لا**

تزال المسألة بأحدكم حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مُزعه لحم»[(١)] وقال: «**من سأل الناس وله ما يغنيه جاءت مسألتُه يوم القيامة خُدوشًا أو خُموشًا أو كُدوشًا في وجهه»**[(٢)] وقوله: «**لا تحل المسألة إلا لذي غرم مفظع، أو دم موجع، أو فقر مدقع»**[(٣)] وبهذا المعنى في الصحيح[(٤)].

وأوصى خواصّ أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا وفي المسند: أن أبا بكر كان يسقط السوط من يده فلا يقول لأحد: ناولني إيّاه، ويقول: «إن خليلي أمرني ألا أسأل الناس شيئًا»[(٥)] وفي صحيح مسلم[(٦)] وغيره عن عوف بن مالك أن النبي ﷺ بايعه في طائفة وأسرّ إليهم كلمة خفيّة: «**أن لا تسألوا الناس شيئًا**» فكان بعض أولئك النفر يسقط السوط من يد أحدهم، ولا يقول لأحد: ناولني إياه.

وقد دلت النصوص على الأمر بمسألة الخالق والنهي عن مسألة المخلوق في غير موضع كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغۡتَ فَٱنصَبۡ ۝٧ وَإِلَىٰ رَبِّكَ فَٱرۡغَب﴾ [الشرح: ٧، ٨] وقول النبي ﷺ لابن عباس: «**إذا سألت فأسال الله، وإذا استعنت فاستعن**

---

(١) البخاري (١٤٧٤) ومسلم (١٠٤٠).

(٢) أحمد (١/٣٨٨) وحسنه الأرناؤوط.

(٣) أحمد (٣/١٠٠) وحسنه الأرناؤوط لغيره.

(٤) مسلم (١٠٤٤).

(٥) أحمد (٦٥) وحسنه الأرناؤوط لغيره.

(٦) (١٠٤٣).

بالله»(١) ومنه قول الخليل: ﴿فَٱبۡتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزۡقَ﴾ [العنكبوت: ١٧] ولم يقل: فابتغوا الرزق عند الله، لأن تقديم الظرف يشعر بالاختصاص والحصر، كأنه قال: لا تبتغوا الرزق إلا عند الله، وقد قال تعالى: ﴿وَسۡـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضۡلِهِۦٓ﴾ [النساء: ٣٢].

والإنسان لابد له من حصول ما يحتاج إليه من الرزق ونحوه، ودفع ما يضره، وكلا الأمرين شرع له أن يكون دعاؤه لله، فلا يسأل رزقه إلا من الله، ولا يشتكي إلا إليه، كما قال يعقوب عليه السلام: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

والله تعالى ذكر في القرآن الهجر الجميل والصفح الجميل والصبر الجميل، وقد قيل: إن الهجر الجميل هو هجر بلا أذى، والصفح الجميل صفح بلا معاتبة، والصبر الجميل صبر بغير شكوى إلى المخلوق. ولهذا قُرئ على أحمد بن حنبل في مرضه: إن طاووسًا كان يكره أنين المريض ويقول: إنه شكوى، فما أنّ أحمدُ حتى مات(٢) رحمه الله ورضي عنه.

وأما الشكوى إلى الخالق فلا تنافي الصبر الجميل، فإن يعقوب قال: ﴿فَصَبۡرٞ جَمِيلٞ﴾ [يوسف: ٨٣] وقال: ﴿إِنَّمَآ أَشۡكُواْ بَثِّي وَحُزۡنِيٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [يوسف: ٨٦].

---

(١) أحمد (١/٢٩٣) والترمذي (٢٥١٦) وصححه.

(٢) سير الأعلام (١١/٢١٥).

وكان عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ يقرأ في الفجر بسورة يونس ويوسف والنحل، فمرّ بهذه الآية في قراءته فبكى حتى سُمع نشيجه من آخر الصفوف.

ومن دعاء موسى: «**اللّٰهم لك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك**»(١).

وفي الدعاء الذي دعا به النبي ﷺ لما فعل به أهل الطائف ما فعلوا: «**اللّٰهم إليك أشكو ضعف قوتي، وقلّة حيلتي، وهواني على الناس، يا أرحم الراحمين، أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، اللّٰهم إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهّمني، أم إلى عدو ملّكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب عليّ فلا أبالي، غير أن عافيتك أوسع لي. أعوذ بنور وجهك الذي أشرقت به الظلمات، وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة، أن ينزل بي سخطك، أو يحل عليّ غضبك. لك العُتْبَى حتى ترضى، فلا حول ولا قوة إلا بالله**» وفي بعض الروايات: «**ولا حول ولا قوة إلا بك**»(٢).

وكلما قوي طمع العبد في فضل الله ورحمته ورجائه لقضاء حاجته ودفع ضرورته؛ قويت عبوديته له وحريته مما سواه، فكما أن طمعه في المخلوق يوجب عبوديته له، فيأسه منه يوجب غنى قلبه عنه، كما قيل: استغن عمن

---

(١) الطبراني في الأوسط (٣/٣٥٦) والبيهقي في الدعوات الكبير (١/٣٥٤) وقال: «تفرد به عبد الله بن نافع، وليس بالقوي» وحسنه المنذري في الترغيب (٣/٥٩).

(٢) تاريخ الطبري (٢/٣٤٤) وتهذيب سيرة ابن إسحاق (٢/٧٠) وفي سنده ابن إسحاق وقد عنعن.

شئت تكن نظيره، وأفضِلْ على من شئت تكن أميره، واحتج إلى من شئت تكن أسيره.

فكذلك طمع العبد في ربه ورجاؤه له؛ يوجب عبوديته له، وإعراض قلبه عن الطلب من الله والرجاء له؛ يوجب انصراف قلبه عن العبودية لله، لا سيّما من كان يرجو المخلوق ولا يرجو الخالق، بحيث يكون قلبه معتمدًا إما على رئاسته وجنوده وأتباعه ومماليكه، وإما على أهله وأصدقائه، وإما على أمواله وذخائره، وإما على ساداته وكبرائه، كمالِكِه ومَلِكِه وشيخه ومخدومه وغيرهم ممن هو قد مات أو يموت قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَيِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ وَسَبِّحْ بِحَمْدِهِۦ ۚ وَكَفَىٰ بِهِۦ بِذُنُوبِ عِبَادِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٨].

وكل من علق قلبه بالمخلوقين أن ينصروه أو يرزقوه أو أن يهدوه؛ خضع قلبه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدر ذلك، وإن كان في الظاهر أميرًا لهم مدبرًا لأمورهم متصرفًا بهم، فالعاقل ينظر إلى الحقائق لا إلى الظواهر. فالرجل إذا تعلق قلبه بامرأة - ولو كانت مباحة له - يبقى قلبه أسيرًا لها، تحكّم فيه وتتصرف بما تريد، وهو في الظاهر سيدها لأنه زوجها أو مالكها، ولكنه في الحقيقة هو أسيرها ومملوكها، ولا سيما إذا علمت بفقره إليها وعشقه لها وأنه لا يعتاض عنها بغيرها، فإنها حينئذ تتحكم فيه تحكم السيد القاهر الظالم(١) في عبده المقهور الذي لا يستطيع الخلاص منه بل أعظم، فإن أسر القلب أعظم

(١) لم يعن ابن تيمية تعميم ظلم كل معشوقة لعاشقها، ولكنه يضرب المثال على شدة أسر أمثالها لأمثاله حتى لو وصل الحال بهن إلى الظلم الشديد. والله المستعان.

من أسر البدن، واستعباد القلب أعظم من استعباد البدن، فإن من استعبد بدنه واسترق وأسر لا يبالي إذا كان قلبه مستريحًا من ذلك مطمئنًا، بل يمكنه الاحتيال في الخلاص، وأما إذا كان القلب الذي هو ملك الجسم رقيقًا مستعبدًا متيّمًا لغير الله؛ فهذا هو الذل والأسر المحض والعبودية الذليلة لما استعبد القلب.

وعبودية القلب وأسرُه هي التي يترتب عليها الثواب والعقاب، فإن المسلم لو أسره كافر أو استرقّه فاجر بغير حق لم يضره[1] ذلك إذا كان قائمًا بما يقدر عليه من الواجبات، ومن استعبد بحق إذا أدى حق الله وحق مواليه فله أجران[2] ولو أُكره على التكلم بالكفر فتكلم به وقلبه مطمئن بالإيمان؛ لم يضرّه ذلك، وأما من استُعبد قلبه فصار عبدا لغير الله؛ فهذا يضره ذلك ولو كان في الظاهر مَلِكَ الناس.

فالحرية حرية القلب، والعبودية عبودية القلب، كما أن الغنى غنى النفس، قال النبي ﷺ: **«ليس الغنى عن كثرة العرَض، وإنما الغنى غنى النفس»**[3].

وهذا لعمرو الله إذا كان قد استعبَد قلبَه صورةٌ مباحة، فأما من استعبد قلبَه صورةٌ محرمة - امرأة أو صبي - فهذا هو العذاب الذي لا يدانيه عذاب.

---

(١) لأن ذلك أسر للبدن وهو من المصائب المكفرة فلا مؤاخذة عليه من جهة الأسر، أما أسر القلب فهو الذي يترتب عليه الجزاء سعادة أو شقاءً.

(٢) كما عند البخاري (٩٧) ومسلم (١٥٤).

(٣) البخاري (٦٤٤٦) ومسلم (١٠٥١).

وهؤلاء عشاق الصور من أعظم الناس عذابًا وأقلهم ثوابًا، فإن العاشق لصورة إذا بقي قلبه متعلقًا بها مستعبدًا لها؛ اجتمع له من أنواع الشر والفساد ما لا يحصيه إلا رب العباد.

ومن أعظم أسباب هذا البلاء: إعراضُ القلب عن الله، فإن القلب إذا ذاق طعم عبادة الله والإخلاص له؛ لم يكن عنده شيء قط أحلى من ذلك ولا ألذ ولا أمتع ولا أطيب. والإنسان لا يترك محبوبًا إلا بمحبوب آخر يكون أحب إليه منه، أو خوفًا من مكروه. فالحب الفاسد إنما ينصرف القلب عنه بالحب الصالح، أو بالخوف من الضرر.

قال تعالى في حق يوسف: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤] فالله يصرف عن عبده ما يسوؤه من الميل إلى الصور والتعلق بها، ويصرف عنه الفحشاء بإخلاصه لله.

ولهذا يكونُ قبل أن يذوق حلاوة العبودية لله والإخلاص له، تغلبه نفسُه على اتباع هواها، فإذا ذاق طعم الإخلاص وقوي في قلبه انقهر له هواه بلا علاج، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت: ٤٥] فإن الصلاة فيها دفع مكروه وهو الفحشاء والمنكر، وفيها تحصيل محبوب وهو ذكر الله، وحصول هذا المحبوب أكبر من دفع ذلك المكروه، فإن ذكر الله عبادة لله، وعبادة القلب لله مقصودة لذاتها، وأما اندفاع الشرّ عنه فهو مقصود لغيره على سبيل التبع.

والقلب خُلق يحب الحق ويريده ويطلبه، فلما عرضت له إرادة الشرّ طلب



دفع ذلك، فإنها تُفسد القلب كما يفسد الزرع بما ينبت فيه من الدغل.

ولهذا قال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ [الشمس: ٩، ١٠] وقال تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤، ١٥] وقال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾ [النور: ٣٠] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا﴾ [النور: ٢١].

فجعل سبحانه غض البصر وحفظ الفرج هو أقوى تزكية للنفس، وبين أن ترك الفواحش من زكاة النفوس، وزكاة النفوس تتضمن زوال جميع الشرور من الفواحش والظلم والشرك والكذب وغير ذلك»(١).

الرابع عشر: تحقيق التوكل على الله تعالى.

ويكفي المتوكّل غناءً وفلاحًا ونُجْحًا قول الحكيم العليم الغني الكريم: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق: ٣] أي كافيه. فمن توكّل على الله وفوّض أمره إليه، ولجأ لعزيز جنابه، واستغنى به عمن سواه؛ فقد حقّق عبودية الافتقار، والذي نفسي بيده لهو حقيق بالمدد الرباني واللطف الرحماني والكفاية التامة والغوث العاجل في دينه ودنياه.

والتوكّل فرع عن الافتقار وثمرة له، وعلى قدر تحقيقه تكون ثمرته وكفايته، وقد بسطت الكلام في التوكل في كتاب سابق بما أغنى عن تكراره.

---

(١) العبودية لابن تيمية (١٠١ – ١٢٠) مختصرًا.

الخامس عشر: ومن وسائل تحصيل الافتقار إلى العلي الغفار: الخلوة بالنفس متفكّرًا.

وقد سبق في كتاب الأُنس بيان ذلك، ونبيّن هنا أن المفتقر إلى الله مخلوق طيني ترابي، تطغى عليه المادة حينًا، وتعشيه غياية الطبع الجهول الغفول حينًا، فلا بد لمن نَصَحَ نفسه من ساعات يقف فيها مناجيًا نفسه الأمارة واعظًا لها حتى تكون لربها مطمئنة ساكنة، وبطريق سعادتها مبصرة سالكة.

«فالناس في هذه الدار على جناح سفر كلهم، وكل مسافر فهو ظاعن إلى مقصده ونازل على من يسرّ بالنزول عليه. وطالب الله والدار الآخرة إنما هو ظاعن إلى الله في حال سفره ونازل عليه عند القدوم عليه»(١).

ومن مواعظ أبي الفرج ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الشأن: «إخواني! الخلوة مَهْرُ بِكر الفكر، وسُلَّم معراج الهمة، حريمُ العُزلة مصونٌ من عيب العبث، إذا خلت دار الخلوة عن الصّور، تفرّغ القلب لملاحظة المعاني.

يا هذا! إذا رُزقت يقظةً فصُنْها في بيت عزلة، فإن أيدي المعاشرة نهّابة، احذر معاشرة الجُهال، فإن الطبع لصٌ، لا تُصادقنّ فاسقًا، فإن من خان أول منعمٍ عليه لا يفي لك.

يا أفراخ التوبة! لازموا أوكار الخلوة، فإن هِرَّ الهوى صَيُود، إياك والتقرب

(١) الفوائد (١/ ١٩٦).

من طرف الوكر، والخروج من بيت العزلة، حتى يتكامل نباتُ الخوافي[١] وإلا كنت رزق الصائد.

الأُنس بالإنس كالغِرَاء، المخالطة توجب التخليط، وأيسر تأثيرها تشتيت الهمّ.

أقلُّ ما في سقوط الذئب في غَنَمٍ ... إن لم يصب بعضها أن تنفر الغنمُ

واعلم أن قطع العلائق أصل الأصول لطيب الوصول.

كان أويسُ يهرب من الناس فيقولون: مجنون، وَصَفَ الرسول ﷺ لأصحابه صفته، فقوي تَوْقُ عمر، وكان في كل عام يسألُ عنه أهل اليمن[٢].

ألا أيها الركب اليمانون عرِّجوا ... علينا فقد أمسى هوانا يمانيا
نسائلكم هل سال نَعْمانُ بعدنا ... وحَبَّ إلينا بطنُ نعمانَ واديا

لما كانت آخر حجة حجها عمر، قام على أبي قبيس فنادى: أفيكم أويس؟

وإني للشوق من بعدهم ... أُراعي الجنوب مراحًا وَمَغْدَى
وأفرح من نحو أوطانهم ... بغيث يجلجل برقًا ورعدا
إذا طلع الركب يَمَّمْتُهُمْ ... أحيّي الوجوه كهولًا ومُرْدا
أسائلهم عن عقيق الحمى ... وعن أرض نجدٍ ومن حلّ نجدا

---

(١) الخوافي: جمع خافيه وهي ما دون الريشات العشر من مقدّم الجناح في الطائر، والريشات الطوال تسمّى: القوادم.

(٢) وفي ثبوت بعض أخبار أويس كلام.

نشـــــدتكم اللهَ فلْيخـــــبرنَّ مـن كـان أقـرب بالرمـل عهـدا
هـــل الـــدار بـــالجزع مأهولـــةٌ أثـــار الربيـــعُ عليهـــا وأســـدى

كان أويس يأتي المزابل إذا جاع، فأتاها يومًا فنبح عليه كلبٌ، فقال: يا كلب! لا تؤذ من لا يؤذيك، كل مما يليك، وآكل مما يليني، فإن دخلتُ الجنة فأنا خير منك، وإن دخلتُ النار فأنت خير مني.

ذُلُّ الفتـــى في الحـــب مكرمـــةٌ وخضـــوعه لحبيبـــه شَرَفُ

صاحبْ أهل الدين وصافِهم، واستفد من أخلاقهم وأوصافهم، واسكن معهم بالتأدب في دارهم، وإن عاتبوك فاصبر ودارهم، إن لم يكن لك مَكَنَةُ البذر ولم تُطق مراعاة الزرع، فقِفْ في رفقة ﴿وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ﴾ [النساء: ٨] أنت في وقت الغنائم نائم، وقلبك في شهوات البهائم هائم.

وإن صدقت في طِلابهم فانهض وبادر، ولا تستصعب طريقهم فالمُعين قادر. تعرّض لمن أعطاهم وسَلْ فمولاك مولاهم، رُبَّ كنز وقع به فقير، ورُبّ فضل فاز به صغير، عَلِم الخضرُ ما خفي على موسى، وكُشف لسليمان ما غُطّي عن داود.

يا هذا! لا تحتقر نفسك فالتائب حبيب الله، والمنكسر مستقيم، إقرارُك بالإفلاس غِنًى، اعترافُك بالخطأ إصابة، تنكيس رأسك بالندم رفعة، عُرِضت سلعة العبودية في سوق البيع فبذلت الملائكة نقد ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا

﴿وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: ٣٠] وقال آدم: ما عندي إلا فُلوس إفلاسٍ نقشها ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فقيل: هذا الذي ينفق على خزانة الخاص، أنين المذنبين أحبُّ إلينا من زجل المسبحين.

واستعذبوا ماء الجفون فعذّبوا الأسرار حتى درّت الآماقُ

يا معاشر المذنبين! إن كان يأجوج الطبع، ومأجوج الهوى، قد عاثوا في أرض قلوبكم ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ [الكهف: ٩٥] اجمعوا عزائم قوية تشابه زُبَرَ الحديد، وتفكروا في خطاياكم، لتثور صُعَدَاءُ الأسف، شيدوا بُنيان العزائم بهجر المألوف ليستحجر البناء، هكذا بناء الأولياء قبلكم، فجاء الأعداء ﴿فَمَا ٱسْطَٰعُوٓاْ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَٰعُواْ لَهُۥ نَقْبًا﴾ [الكهف: ٩٧].

ليس عزمًا ما مَرض المرءُ فيه ليس همًّا ما عاقَ عنه الظلامُ

الجدَّ الجدَّ، فما تحتمل الطريقُ الفتور، ضاقت أيام الموسم، فجعجعوا بالإبل(١).

كان أُسيد الضبّي إذا عوتب في كثرة بكائه يقول: كيف لا أبكي وأنا أموت غدًا؟

وكانت عابدةٌ لا تنام من الليل إلا يسيرًا، فعوتبت في ذلك فقالت: كفى

(١) جعجع بالإبل: حرّكها للنهوض.

بطول الرقدة في القبور رقادًا.

هذه طريقُهم فأين السالك؟ هذه صفاتهم فأين الطالب؟»[١].

(١) المدهشات (مختارات من المدهش لابن الجوزي) للمؤلف (٨٦- ٨٩).

آفات على طريق الافتقار

أمر هذا خطرُه، وهذا شأنه؛ حريّ بأن يُجلبَ عليه العدو الرجيم بخيله ويركض برجِله في سبيل إغواء أولاد الكريم على ربه آدم عليه السلام.

ولما علم أن الأبوين استعاذا بالله منه، واعترفا بذنبهما، وتوسلا إلى مغفرة ربهما بإظهار افتقارهما؛ فقد شدّ حيلَه ومدّ حولَه ليغوي من اسطاع عن ذلك المرتع المخصب والربيع الهنيّ والكنز المرجح، لذا أمسى وأصبح يلقي وساوسه في روع ابن آدم بأنه غنيّ عن ربه، وبأنه مكتفٍ بقوّته وحوله وغناه عن كل ما سواه، ولو بصيده في لحظات الغفلات التي لا يلبث أكثرهم أن يثوبوا من عمياء الضلال وحمأة الفجور لنور البصائر واستقامة السلوك.

فههنا آفات ألقاها الشيطان في طريق السُلّاك إلى ربهم في صراط الافتقار، فمنها:

أولًا: العوائد المانعة والعلائق الجاذبة:

فالنفس تنجذب لثقلة طينها، وما تضمنه ذلك من رؤية الأسباب دون مسببها، والتعلق بها دون خالقها، وما يتبع ذلك من الإخلاد للفانية والغفلة عن الباقية. «هذا، وإن الوصول إلى المطلوب موقوف على هجر العوائد وقطع العوائق، فالعوائد السكون إلى الدعة والراحة وما ألفه الناس واعتادوه من

الرسوم والأوضاع[١] التي جعلوها بمنزلة الشرع المتبع، بل هي عندهم أعظم من الشرع، فإنهم ينكرون على من خرج عنها وخالفها ما لا ينكرون على من خالف صريح الشرع!

وأما العوائق فهي أنواع المخالفات ظاهرها وباطنها، فإنها تعوق القلب عن سيره إلى الله وتقطع عليه طريقه[٢]، وهي ثلاثة أمور: شرك، وبدعة، ومعصية. فيزول عائق الشرك بتجريد التوحيد، وعائق البدعة بتحقيق السنة، وعائق المعصية بتصحيح التوبة. وهذه العوائق لا تتبين للعبد إلا إذا أخذ في أهبة السفر وتحقق بالسير إلى الله والدار والآخرة، فحينئذ تظهر له هذه العوائق، ويحسّ بتعويقها له بحسب قوة سيره وتجرده للسفر، وإلا فما دام قاعدًا فلا تظهر له كوامنها وقواطعها[٣].

وأما العلائق: فهي كل ما تعلق به القلب دون الله ورسوله من ملاذ الدنيا وشهواتها ورياستها وصحبة الناس والتعلق بهم، ولا سبيل له إلى قطع هذه

(١) كالهيئات والأحوال والأوراد ونحو ذلك مما لم تأت به الشريعة، كذلك بعض العادات والتقاليد والسلوم التي جعلها الناس مضاهية للشريعة، بل مقدمة عليها عند التنازع.
(٢) وهي حفر النار.
(٣) لأن الكسل والإخلاد إلى الدنيا أو الضلال يجثم على القلب فيحول بين صاحبه ورؤية هذه الحتوف الخطيرة، حتى إذا شعّ نور التوحيد وسطع طريق السنة وأشرقت شمس التوبة انقشعت بإذن الله عن القلب ظلماته وكدره وغينُه فطار بأجنحة التوفيق إلى الملأ الأعلى، ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢].

الأمور الثلاثة ورفضها إلا بقوة التعلّق بالمطلب الأعلى، وإلا فقطعها عليه بدون تعلقه بمطلوبه ممتنع، فإن النفس لا تترك مألوفها ومحبوبها إلا لمحبوب هو أحب إليها منه، وآثر عندها منه. وكلما قوي تعلقه بمطلوبه ضعف تعلقه بغيره، وكذا بالعكس، والتعلق بالمطلوب: هو شدة الرغبة فيه، وذلك على قدر معرفته به وشرفه وفضله على ما سواه.

ولـمّا كمّل الرسول ﷺ مقام الافتقار إلى الله سبحانه أحوج الخلائق كلهم إليه في الدنيا والآخرة، أما حاجتهم إليه في الدنيا فأشد من حاجتهم إلى الطعام والشراب والنفس الذي به حياة أبدانهم، وأما حاجتهم إليه في الآخرة فإنهم يستشفعون بالرسل إلى الله حتى يريحهم من ضيق مقامهم، فكلهم يتأخر عن الشفاعة، فيشفع لهم، وهو الذي يستفتح لهم باب الجنة ﷺ»(١).

ثانيًا: التخبط في السير على غير هدى من الله.

فلا بد للسائر للدار الآخرة على بصيرة أن يكون له منهج سليم واضح لا لبس فيه، وأن يكون جادًّا في مسيره وليس متوانيًا كسولًا، كما أن عليه أن يحاسب نفسه الأمارة ويخطمها بزمام القوّة والشفقة، فلئن غفلت ينبغي لنُهيته أن تنتبه، ولئن غابت فعلى عقله أن يحضر، قبل أن لا تحين ساعة مناص مما لا خلاص منه! «وثّمَّ عشرة أشياء ضائعة لا ينتفع بها: علم لا يعمل به، وعمل لا إخلاص فيه ولا اقتداء، ومال لا يُنفق منه، فلا يستمتع به جامعة في الدنيا ولا

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٢٥ – ٢٢٦).

يقدمه أمامه إلى الآخرة، وقلب فارغ من محبة الله والشوق إليه والأنس به، وبدن معطّل من طاعته، ومحبة لا تتقيد برضى المحبوب وامتثال أوامره، ووقت معطل عن استدراك فارِطه، أو اغتنام بر وقربه، وفكر يجول فيما لا ينفع، وخدمةُ من لا تقربك خدمته إلى الله، ولا تعود عليك بصلاح دنياك، وخوفك ورجاؤك لمن ناصيته بيد الله، وهو أسير في قبضته، ولا يملك لنفسه ضرًّا ولا نفعًا ولا موتًا ولا حياةً ولا نشورًا.

وأعظم هذه الإضاعات إضاعتان هما أصل كل إضاعة:

إضاعة القلب، وإضاعة الوقت. فإضاعة القلب من إيثار الدنيا على الآخرة، وإضاعة الوقت من طول الأمل. فاجتمع الفساد كله في اتّباع الهوى وطول الأمل. والصلاح كله في اتّباع الهدى والاستعداد للقاء، والله المستعان.

العَجَب ممن تعرض له حاجة فيصرف رغبته وهمته فيها إلى الله ليقضيها له، ولا يتصدّى للسؤال لحياة قلبه من موت الجهل والإعراض، وشفائه من داء الشهوات والشبهات، ولكن اذا مات القلب لم يشعر بمعصيته[1].

واعلم أن الطلب لقاح الإيمان، فإذا اجتمع الإيمان والطلب أثمر العمل الصالح. وحسن الظن بالله لقاح الافتقار والاضطرار إليه، فإذا اجتمعا أثمر إجابة الدعاء. والخشية لقاح المحبة، فإذا اجتمعا أثمر امتثال الأوامر واجتناب

---

(١) فأخطر آثار الذنوب أن يُطبع على القلب أو أن تُيسر له معاصٍ أخرى وهو لا يعلم أنه مستدرج مفتون، عياذًا بالله تعالى.



النواهي. والصبر لقاح اليقين، فإذا اجتمعا أورثا الإمامة في الدين، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤].

وصحة الاقتداء بالرسول ﷺ لقاح الإخلاص، فإذا اجتمعا أثمر قبول العمل والاعتداد به. والعمل لقاح العلم، فإذا اجتمعا كان الفلاح والسعادة، وإن انفرد أحدهما عن الآخر لم يفد شيئًا. والحلم لقاح العلم[١]، فإذا اجتمعا حصلت سيادة الدنيا والآخرة، وحصل الانتفاع بعلم العالِم، وإن انفرد أحدهما عن صاحبه فات النفع والانتفاع. والعزيمة لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا نال صاحبهما خير الدنيا والآخرة، وبلغت به همته من العلياء كل مكان، فتخلُّفُ الكمالات: إما من عدم البصيرة، وإما من عدم العزيمة. وحسن القصد لقاح لصحة الذهن، فإذا فقدا فقد الخير كله، وإذا اجتمعا أثمرا أنواع الخيرات. وصحة الرأي لقاح الشجاعة، فإذا اجتمعا كان النصر والظفر، وإن قعدا فالخذلان والخيبة، وإن وجد الرأي بلا شجاعة فالجبن والعجز، وإن حصلت الشجاعة بلا رأي فالتهور والعطب.

والصبر لقاح البصيرة، فإذا اجتمعا فالخير في اجتماعهما، قال الحسن: «إذا شئت أن ترى بصيرًا لا صبر له رأيتَه، وإذا شئت أن ترى صابرًا لا بصيرة له رأيتَه، فإذا رأيت صابرًا بصيرًا فذاك»[٢] والنصيحة لقاح العقل، فكلما قويت

---

(١) فالحلم سيد الأخلاق، والعلم سيد الأفكار.

(٢) وهذا الفقه الحَسَني ليس بغريب، فقد برهن على تنظيره بمواقفه المشهودة إبّان فتنة =

النصيحة قوي العقل واستنار. والتذكر والتفكر كل منهما لقاح الآخر، إذا اجتمعا انتجا الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة. والتقوى لقاح التوكل، فإذا اجتمعا استقام القلب. ولقاح الهمة العالية النية الصحيحة، فإذا اجتمعا بلغ العبد غاية المراد.

هذا وللعبد بين يدي الله موقفان: موقف بين يديه في الصلاة، وموقف بين يديه يوم لقائه. فمن قام بحق الموقف الأول هوّن عليه الموقف الآخر، ومن استهان بهذا الموقف ولم يوفّه حقّه شدّد عليه ذلك الموقف، قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَٱسْجُدْ لَهُۥ وَسَبِّحْهُ لَيْلًا طَوِيلًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ يُحِبُّونَ ٱلْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَآءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان: ٢٦، ٢٧].

وتأمل قوله تعالى عن يوسف نبيه أنه قال: ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [يوسف: ١٠١] وكيف جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد، والاستسلام للرب، وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه، وكون الوفاة على الإسلام أجلّ غايات العبد، وأن ذلك

=

ابن الأشعث وأصحابه، وهي الفتنة التي غلت فيها مراجل الفتنة بالأمة سنينًا واحترق في أتونها كثيرًا من خيرة القراء وأكابر فحول العلماء، أما الحسن فكان يزَعُ الناس عنها طاقته، حتى رُمي في تديّنه وأمانته، حتى إذا انجلت قترة الغُمّة رأوه ناصعًا طيِّبا، فعاد ذامّوه له حامدين، ومعادوه له شاكرين، فالفتن إذا أقبلت اختلطت ولم يرَ حقيقتها سوى أفذاذ العلماء، فإذا أدبرت رآها الجميع بعد الفوات ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ [البقرة: ٢٦٩].

بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد، وطلب مرافقة السعداء.

وتدبر قول الله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] متضمن لكنز من الكنوز، وهو أن كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه، وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده، ولا يقدر عليه. وقوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] متضمن لكنز عظيم، وهو أن كل مراد إن لم يُرَدْ لأجله ويتصل به وإلا فهو مضمحل منقطع، فإنه ليس إليه المنتهى، وليس المنتهى إلا إلى الذي انتهت إليه الأمور كلها، فانتهت إلى خلقه ومشيئته وحكمته وعلمه، فهو غاية كل مطلوب.

وكل محبوب لا يحب لأجله فمحبته عناء وعذاب، وكل عمل لا يراد لأجله فهو ضائع وباطل، وكل قلب لا يصل إليه فهو شقي محجوب عن سعادته وفلاحه. فاجتمع ما يُراد منه كلّه في قوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ﴾ [الحجر: ٢١] واجتمع ما يُراد له كله في قوله: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ﴾ [النجم: ٤٢] فليس وراءه سبحانه غاية تطلب، وليس دونه غاية إليها المنتهى.

وتحت هذا سر عظيم من أسرار التوحيد، وهو أن القلب لا يستقر ولا يطمئن ويسكن إلا بالوصول إليه، وكل ما سواه مما يُحب ويُراد فمرادٌ لغيره، وليس المراد المحبوب لذاته إلا واحد إليه المنتهى، ويستحيل أن يكون المنتهى إلى اثنين، كما يستحيل أن يكون ابتداء المخلوقات من اثنين. فمن كان انتهاء محبته ورغبته وإرادته وطاعته إلى غيره بطل عليه ذلك، وزال عنه وفارقه أحوج ما كان إليه. ومن كان انتهاء محبته ورغبته ورهبته وطلبه هو سبحانه ظفر بنعمه


www.alukah.net

ولذته وبهجته وسعادته أبد الآباد.

هذا وإن العبد دائمًا متقلب بين أحكام الأوامر وأحكام النوازل، فهو محتاج بل مضطر إلى العون عند الأوامر وإلى اللطف عند النوازل. وعلى قدر قيامه بالأوامر يحصل له من اللطف عند النوازل، فإن كمُل القيام بالأوامر ظاهرًا وباطنًا ناله اللطف ظاهرًا وباطنًا، وإن قام بصورها دون حقائقها وبواطنها ناله اللطف في الظاهر وقلّ نصيبه من اللطف في الباطن.

فإن قلتَ: وما اللطف الباطن؟ فهو ما يحصل للقلب عند النوازل من السكينة والطمأنينة وزوال القلق والاضطراب والجزع، فيستخذي بين يدي سيده ذليلًا له مستكينًا ناظرًا إليه بقلبه، ساكنًا إليه بروحه وسره، قد شغلته مشاهدة لطفه به عن شدة ما هو فيه من الألم، وقد غيّبه عن شهود ذلك معرفته بحسن اختياره له، وأنه عبد محض يُجري عليه سيدُه أحكامه، رضي أو سخط، فإن رضي نال الرضا وإن سخط فحظّه السخط.

فهذا اللطف الباطن ثمرة تلك المعاملة الباطنة، يزيد بزيادتها، وينقص بنقصانها.

والعبد لا يزال منقطعًا عن الله حتى تتصل إرادته ومحبته بوجه الأعلى، والمراد بهذا الاتصال أن تُفضي المحبةُ إليه وتتعلق به وحده، فلا يحجبها شيء دونه، وأن تتصل المعرفة بأسمائه وصفاته وأفعاله، فلا يطمس نورها ظلمة التعطيل، كما لا يطمس نور المحبة ظلمة الشرك، وأن يتصل ذكره به سبحانه فيزول بين الذاكر والمذكور حجاب الغفلة، والتفاته في حال الذكر إلى غير


شبكة الألوكة - قسم الكتب

مذكوره، فحينئذ يتصل الذكر به، ويتصل العمل بأوامره ونواهيه، فيفعل الطاعة لأنه أمر بها وأحبها، ويترك المناهي لكونه نهى عنها وأبغضها. فهذا معنى اتصال العمل بأمره ونهيه.

ويتصل التوكل والحب به، بحيث يصير واثقًا به سبحانه، مطمئنًّا إليه، راضيًا بحسن تدبيره له، غير متّهم له في حال من الأحوال. ويتصل فقرُه وفاقته به سبحانه دون سواه، ويتصل خوفُه ورجاؤه وفرحه وسروره وابتهاجه به وحده، فلا يخاف غيره، ولا يرجوه، ولا يفرح به كل الفرح، ولا يسر به غاية السرور، وإن ناله بالمخلوق بعض الفرح والسرور فليس الفرح التام والسرور الكامل والابتهاج والنعيم وقرة العين وسكون القلب إلا به سبحانه، وما سواه إن أعان على هذا المطلوب فرح به وسر به، وإن حجب عنه فهو بالحزن به والوحشة منه واضطراب القلب بحصوله أحق منه بأن يفرح به.

فلا فرحة ولا سرور إلا به أو بما أوصل إليه وأعان على مرضاته. وقد أخبر سبحانه أنه لا يحب الفرحين بالدنيا وزينتها، وأمر بالفرح بفضله ورحمته وهو الإسلام والإيمان والقرآن كما فسره الصحابة والتابعون.

والمقصود: أن من اتصلت له هذه الأمور بالله سبحانه فقد وصل، وإلا فهو مقطوع عن ربه، متصل بحظه ونفسه، ملبَّسٌ عليه في معرفته وإرادته وسلوكه.

وقد فكرت في هذا الأمر فإذا أصله أن تعلم أن النعم كلها من الله وحده، نِعَمَ الطاعات ونِعمَ اللذات، فترغب إليه أن يلهمك ويوزِعَك شكرها، قال تعالى:

﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْـَٔرُونَ ﴾ [النحل: ٥٣] وقال: ﴿فَٱذْكُرُوٓا۟ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩] وقال: ﴿وَٱشْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ [النحل: ١١٤].

وكما أن تلك النعم منه ومن مجرد فضله فذكرها وشكرها لا يُنال إلا بتوفيقه، والذنوب من خذلانه وتخلّيه عن عبده وتخليته بينه وبين نفسه، وإن لم يكشف ذلك عن عبده فلا سبيل له الى كشفه عن نفسه. فإذا هو مضطر إلى التضرع والابتهال إليه أن يدفع عنه أسبابها حتى لا تصدر منه، وإذا وقعت بحكم المقادير ومقتضى البشرية فهو مضطر إلى التضرع والدعاء أن يدفع عنه موجباتها وعقوباتها.

فلا ينفك عن العبد عن ضرورته إلى هذه الأصول الثلاثة، ولا فلاح له إلا بها: الشكر، وطلب العافية، والتوبة النصوح.

ثم فكرت فإذا مدار ذلك على الرغبة والرهبة، وليسا بيد العبد، بل بيد مقلب القلوب ومصرّفها كيف يشاء. فإن وَفَّقَ عبدَه أقبل بقلبه إليه، وملأه رغبة ورهبة. وإن خذله تركه ونفسه، ولم يأخذ بقلبه إليه، ولم يسأله ذلك، وما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن»(١).

وقال موضحًا وباسطًا معناه السابق: «قال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾

---

(١) الفوائد لابن القيم (١/ ٢٠٢- ٢٠٩) بتصرف واختصار واقتصار.

[الأنعام: ٥٣]، فهو سبحانه أعلمُ بمواقع الفضل، ومحالِّ التخصيص، ومحالِّ الحِرمان، فبحمده وحكمته أعطى، وبحمده وحكمته حَرَم، فمن ردَّه المنعُ إلى الافتقار إليه والتذلُّلِ له، وتملُّقِهِ، انقلب المنعُ في حقه عطاءً، ومَن شغله عطاؤهُ، وقطعه عنه، انقلب العطاءُ في حقِّه منعًا، فكلُّ ما شغل العبدَ عن الله، فهو مشؤوم عليه، وكلُّ ما ردَّه إليه فهو رحمة به.

والربُّ تعالى يُريد من عبده أن يفعل، ولا يقع الفعلُ حتى يُريد سبحانَه مِن نفسه أن يُعينَه، فهو سُبحانه أراد منَّا الاستقامةَ دائمًا، واتخاذَ السبيل إليه، وأخبرنا أن هذا المرادَ لا يقع حتى يُريد من نفسه إعانَتنا عليها ومشيئته لنا.

فهما إرادتان: إرادة من عبده أن يفعل، وإرادة من نفسه أن يُعينه، ولا سبيلَ له إلى الفعل إلا بهذه الإرادة، ولا يملِك منها شيئًا، كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩] فإن كان مع العبد روح أخرى، نِسبتُها إلى روحه، كنسبة روحِه إلى بدنه يستدعى بها إرادَةَ الله من نفسه أن يفعلَ به ما يكون به العبدُ فاعلًا، وإلا فمحلُّه غير قابلٍ للعطاء، وليس معه إناء يوضع فيه العطاءُ، فمَن جاء بغير إناءٍ، رجع بالحِرمَانِ، ولا يلومنَّ إلا نفسه.

والنبي ﷺ استعاذ مِن الهمِّ والحَزَنِ[(١)]، وهما قرينانِ، ومِنَ العَجزِ والكَسَلِ، وهما قرينان، فإنَّ تَخلُّفَ كمالُ العبد وصلاحُهِ عنه، فهو إما أن يكون

(١) البخاري (٦٣٦٩) ومسلم (٢٧٠٦).


www.alukah.net

لِعدم قدرته عليه، فهو عجز، أو يكونَ قادرًا عليه، لكن لا يُريدُ فهو كسل. وينشأ عن هاتين الصفتين فواتُ كُلِّ خير، وحصولُ كلِّ شر، ومن ذلك الشر تعطيلُه عن النفع ببدنه، وهو الجبن، وعن النفع بماله، وهو البخل.

ثم ينشأ عليه بذلك غلبتان: غلبة بحق، وهي غلبة الدَّيْن، وغلبة بباطل، وهي غلبةُ الرِّجال. وكلُّ هذه المفاسد ثمرة العجز والكسل»[(١)].

ثالثًا: ومن الآفات: سؤال المخلوق والافتقار إليه.

وقد أشرنا لشيء من هذا قريبًا، ونزيد القول بأن محور الافتقار هو الشعور أولًا ثم الطلب ثانيًا، فمن صح شعوره وتحقق صدق افتقاره الوحيد للرب الواحد فلا تسل عن غناه، وعلى قدر ذلك يحصّل المؤمل بغيته، والعكس صحيح فإذا اضطرب الشعور أو التصور أو ضعف أو غشيته سحابةُ غينٍ فالنقص يدبُّ لا محالة. لذا فمن سأل للدنيا مخلوقًا ـ حتى فيما يجوز ـ فليتفقّد كمال يقينه وافتقاره وتوحيده!

قال شيخ الإسلام: «فكل ما يفعله المسلم من القُرَب الواجبة والمستحبة، كالإيمان بالله ورسوله والعبادات البدنية والمالية ومحبة الله ورسوله والإحسان إلى عباد الله بالنفع والمال، هو مأمورٌ بأن يفعله خالصًا لله رب العالمين، لا يطلب من مخلوق عليه جزاء؛ لا دعاء ولا غير دعاء، فهذا مما لا يسوغ أن يطلب عليه جزاء؛ لا دعاء ولا غيره.

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٢/ ٣٦٢ – ٣٦٣).


شبكة الألوكة - قسم الكتب

وأما سؤال المخلوق غير هذا فلا يجب، بل ولا يستحب إلا في بعض المواضع، ويكون المسئول مأمورًا بالإعطاء قبل السؤال، وإذا كان المؤمنون ليسوا مأمورين بسؤال المخلوقين فالرسول أولى بذلك ﷺ، فإنه أجل قدرًا وأغنى بالله من غيره.

فإن سؤال المخلوقين فيه ثلاث مفاسد:

مفسدة الافتقار إلى غير الله وهي من نوع الشرك.

ومفسدة إيذاء المسؤول وهي من نوع ظلم الخلق.

وفيه ذل لغير الله وهو ظلم النفس.

فهو مشتمل على أنواع الظلم الثلاثة، وقد نزه الله رسوله عن ذلك كله. وحيث أمر الأمة بالدعاء له فذاك من باب أمرهم بما ينتفعون به كما يأمرهم بسائر الواجبات والمستحبات، وإن كان هو ينتفع بدعائهم له فهو أيضًا ينتفع بما يأمرهم به من العبادات والأعمال الصالحة.

فإنه ثبت عنه في الصحيح[1] أنه قال: **«من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا»**. ومحمد ﷺ هو الداعي إلى ما تفعله أمته من الخيرات، فما يفعلونه له فيه من الأجر مثل أجورهم من غير أن ينقص من أجورهم شيئًا.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٦٠) (٤٧).

ولهذا لم تجر عادة السلف بأن يهدوا إليه ثواب الأعمال، لأن له مثل ثواب أعمالهم بدون الإهداء من غير أن ينقص من ثوابهم شيئًا. وليس كذلك الأبوان، فإنه ليس كل ما يفعله الولد يكون للوالد مثلُ أجره، وإنما ينتفع الوالد بدعاء الولد ونحوه مما يعود نفعه إلى الأب، كما قال في الحديث الصحيح[(١)]: **«إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية، وعلم ينتفع به، وولد صالح يدعو له»** فالنبي ﷺ - فيما يطلبه من أمته من الدعاء - طلبُه طلبُ أمر وترغيب ليس بطلب سؤال. فمن ذلك أمره لنا بالصلاة والسلام عليه، فهذا قد أمر الله به في القرآن بقوله: ﴿صَلُّوا۟ عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦] والأحاديث عنه في الصلاة والسلام معروفة. ومن هذا الباب قول القائل[(٢)]: إني أكثر الصلاة عليك، فكم أجعل لك من صلاتي؟ قال: **«ما شئت»** قال: الربع؟ قال: **«ما شئت، وإن زدت فهو خير لك»** قال: النصف؟ قال: **«ما شئت وإن زدت فهو خير لك»** قال: الثلثين؟ قال: **«ما شئت، وإذا زدت فهو خير لك»** قال: أجعل لك صلاتي كلها؟ قال: **«إذًا تُكفى همك ويُغفر لك ذنبك»** رواه أحمد[(٣)] في مسنده والترمذي[(٤)] فإن هذا كان له دعاء يدعو به، فإذا جعل مكان دعائه الصلاة على النبي ﷺ كفاه

(١) صحيح مسلم (٣/١٢٥٥).
(٢) هو أُبيّ بن كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.
(٣) (٥/١٣٦) وحسنه ابن حجر في الفتح (١١/١٧٢).
(٤) (٢٤٥٧) وقال: حسن صحيح، وصححه الألباني في صحيح الترغيب (١٦٧٠).

الله ما أهمه من أمر دنياه وآخرته، فإنه كما صلى عليه مرة صلى الله عليه عشرًا، وهو لو دعا لآحاد المؤمنين لقالت الملائكة: «**آمين، ولك بمثلٍ**»[(١)] فدعاؤه للنبي ﷺ أولى بذلك.

وأما سؤال الميت فليس بمشروع ولا واجب ولا مستحب بل ولا مباح، ولم يفعل هذا قط أحد من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا استحب ذلك أحد من سلف الأمة؛ لأن ذلك فيه مفسدة راجحة وليس فيه مصلحة راجحة، والشريعة إنما تأمر بالمصالح الخالصة أو الراجحة، وهذا ليس فيه مصلحة راجحة بل إمّا أن يكون مفسدة محضة أو مفسدة راجحة، وكلاهما غير مشروع.

فالرسول أمر الناس بالقيام بحقوق الله وحقوق عباده، بأن يعبدوا الله لا يشركوا به شيئًا. ومن عبادته الإحسان إلى الناس حيث أمرهم الله سبحانه به كالصلاة على الجنائز وكزيارة قبور المؤمنين، فاستحوذ الشيطان على أتباعه فجعل قصدهم بذلك الشرك بالخالق وإيذاء المخلوق، فإنهم إذا كانوا إنما يقصدون بزيارة قبور الأنبياء والصالحين سؤالهم أو السؤال عندهم أو بهم، لا يقصدون السلام عليهم ولا الدعاء لهم كما يقصد بالصلاة على الجنائز كانوا بذلك مشركين، وكانوا مؤذين ظالمين لمن يسألونه، وكانوا ظالمين لأنفسهم. فجمعوا بين أنواع الظلم الثلاثة.

---

(١) مسلم (٤/ ٢٠٩٤).


www.alukah.net

فالذي شرعه الله ورسوله توحيد وعدل وإحسان وإخلاص وصلاح للعباد في المعاش والمعاد، وما لم يشرعه الله ورسوله من العبادات المبتدعة فيه شرك وظلم وإساءة وفساد العباد في المعاش والمعاد. فإن الله تعالى أمر المؤمنين بعبادته والإحسان إلى عباده كما قال تعالى: ﴿وَٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشۡرِكُواْ بِهِۦ شَيۡـࣰٔاۖ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنࣰا وَبِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ﴾ [النساء: ٣٦] وهذا أمر بمعالي الأخلاق، وهو سبحانه يحب معالي الأخلاق ويكره سفسافها.

وقد روي عنه ﷺ أنه قال: **«إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»** رواه الحاكم في صحيحه(١) وهذا ثابت عنه في الصحيح. فأين الإحسان إلى عباد الله من إيذائهم بالسؤال والشحاذة لهم؟ وأين التوحيد للخالق بالرغبة إليه والرجاء له والتوكل عليه والحب له من الإشراك به بالرغبة إلى المخلوق والرجاء له والتوكل عليه وأن يحب كما يحب الله؟

وأين صلاح العبد في عبودية الله والذل له والافتقار إليه من فساده في عبودية المخلوق والذل له والافتقار إليه؟»(٢).

رابعًا: الشُّبه التي تعتري قلب المفتقر لجهله فيظن الباطل حقًّا.

فالافتقار عبادة، والعبادة لا بد أن تكون على السنة، ولإبليس مداخل خفية على المتعبدين، فيلقي البهرج في طريقهم ليلهيهم عن الثمين، ويشغلهم

(١) المستدرك وصححه ووافقه الذهبي (٢/٦١٣) وأحمد (٢/٣٨١).

(٢) قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة (٢/٧١ - ٧٩) مختصرًا.


شبكة الألوكة - قسم الكتب

ببنيات الطريق حتى يفوتهم الحقّ في نهاية الطريق.

قال ابن القيم: «وقد أجمعت هذه الطائفة[١] على أنه لا وصول إلى الله إلا من طريق الفقر ولا دخول عليه إلا من بابه.

وقال: وإن لترك طلب الدنيا آفات، ولطلبها آفات. والفقر سلامة القلب من آفات الطلب والترك، بحيث لا يحجبه عن ربه بوجه من الوجوه الظاهرة والباطنة لا في طلبها وأخذها ولا في تركها والرغبة عنها. فان قلت: عرفت الآفة في أخذها وطلبها، فما وجه الآفة في تركها والرغبة عنها؟ قلت: من وجوه شتى أحدها: أنه إذا تركها وهو بشر لا ملك؛ تعلق قلبه بما يقيمه ويقيته ويعيشه وما هو محتاج إليه، فيبقى في مجاهدة شديدة مع نفسه لترك معلومها وحظها من الدنيا، وهذه قلة فقه في الطريق، بل الفقيه يردها عنه بلقمة، كما يرد الكلب إذا نبح عليه بكسرة، ولا يقطع زمانه بمجاهدته ومدافعته، بل أعطاها حظها وطالبها بما عليها من الحق. وهذه طريقة الرسل وهي طريقة العارفين من أرباب السلوك كما قال النبي ﷺ: **«إن لنفسك عليك حقًّا، ولربك عليك حقًّا، ولزوجك عليك حقًّا، ولضيفك عليك حقًّا، فأعط كل ذي حق حقّه»**[٢].

والعارف البصير يجعل عوض مجاهدته لنفسه في ترك شهوة مباحة؛

---

(١) أي شيوخ المتصوّفة على اختلاف طرائقهم.

(٢) متفق عليه، واللفظ للبخاري (١٩٦٨).

مجاهدته لأعداء الله من شياطين الإنس والجن وقطاع الطريق على القلوب، كأهل البدع، ويستفرغ قواه في حربهم ومجاهدتهم، ويتقوى على حربهم بإعطاء النفس حقها من المباح، ولا يشتغل به.

ومن آفات الترك: تطلعه إلى ما في أيدي الناس إذا مسته الحاجة إلى ما تركه، فاستدامتها كان أنفع له من هذا الترك.

ومن آفات تركها وعدم أخذها: ما يداخله من الكبر والعجب والزهو، وهذا يقابل الزهد فيها وتركها، كما أن كسرة الآخذ وذلته وتواضعه يقابل الآخذ التارك. ففي الأخذ آفات، وفي الترك آفات.

فالفقر الصحيح: السلامة من آفات الأخذ والترك، وهذا لا يحصل الا بفقه في الفقر»[1].

❀❀❀❀

---

(١) مدارج السالكين (٢/ ٤٤٦) بتصرف يسير.

الافتقار وشهود القدر

المؤمن إذا شهد ضرورته وفاقته لرحمة ربه فإن لا بدّ مارّ بالقدر، الذي هو سرّ الخلق ونظام التوحيد، وهذا الباب العظيم هو ركن من أركان الإيمان، وقد ظلت فيه أفهام وحارت في تفصيله ألباب، فهدى الله من شاء من عباده فيه وبصّرهم ووفقهم.

واعلم أنه يكفيك في باب القدر أن تعلم التالي:

كل مخلوق لا يخرج عن قَدَرِ الله تعالى ولا قُدرته طرفة عين، والله سبحانه قد علم كل شيء بتفاصيله وكلياته وجزئياته، كما أنه قد كتب كل شيء من هذه الدنيا في اللوح المحفوظ قبل أن يخلق السموات والأرض بخمسين ألف سنة، وأنه لا يخرج شيء عن مشيئته وإرادته البتّة، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وقد أعطى عبده مشيئة وإرادة حقيقية يحاسبه على وفقها، وهي لا تخرج في النهاية عن مشيئته سبحانه بتوفيق من شاء بإمداده بأسباب تحصيل الخير، وخذلان من شاء بمنع أسباب الخير عنه، وأن مشيئة الله الكونية القدرية شاملة لكل شيء، فقد يشاء قدَرًا وكونًا ما لا يحبّه دينًا وشرعًا لكنه مقتضى حكمته العليّة، وهذا هو أمره القدري، فهو واقع لا محالة فلا يتخلف ولا يتأخر، أما إرادته الشرعية فهي أمره الشرعي ولا تكون إلا فيما يحبه ويرضاه، وقد تُوافق القدر الكوني والمشيئة الكونية رحمة بعبده وإكرامًا، وقد تتخلف عنها ابتلاء من الله تعالى لعبده وخذلانًا. وأن كل شيء هو مخلوق لله، فالله خالق كل شيء.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فمراتب القدر أربع: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق.

ولما كان فهمُ القَدَر على وفق مذهب السلف الصالح شرطًا لسلامة المعتقد وصحة الإيمان واستقامة المسلك رأيت أن يكون الحديث فيه منبسطًا مفصّلًا على قدر حاجة القارئ الكريم، بدون دخول في مذاهب المبتدعة المضلّة، مع الإجابة عن بعض الإشكالات التي ترد ذهن بعض من طرق علمُ القدر سمعه وقلبه. وقد كفانا ابن القيم كثيرًا من تلك المؤنة فجزاه عنا خيرًا.

قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإن أصررت على اتهام القدر، وقلت: فالسبب الذي أصبت منه وأتيت منه ودهيت منه قد سبق به القدر والحكم، وكان في الكتاب مسطورًا، فلا بد منه على الرغم مني، وكيف لي أن أنفك منه وقد أودع الكتاب الأول قبل بدء الخليقة، والكتاب الثاني قبل خروجي إلى هذا العالم، وأنا في ظلمات الأحشاء حين أُمر الملك بكتب الرزق والأجل والسعادة والشقاوة، فلو جريت إلى سعادتي ما جريت حتى بقي بيني وبينها شبر لغلب عليّ الكتاب، فأدركتني الشقاوة، فما حيلة من قلبه بيد غيره يقلبه كيف يشاء، ويصرفه كيف أراد، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه، وهو الذي يحول بين المرء وقلبه، وهو الذي يثبت قلب العبد إذا شاء، ويزلزله إذا شاء، فالقلب مربوب مقهور تحت سلطانه، لا يتحرك إلا بإذنه ومشيئته؟

قال أعلمُ الخلق بربه: «**ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن، إن شاء أن يقيمه أقامه، وإن شاء أن يزيغه أزاغه**» ثم قال: «**اللّهم**





مقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك»(١) وكان أكثر يمينه: **«لا ومقلب القلوب»**(٢).

وقال بعض السلف: «مثل القلب مثل الريشة في أرض فلاة، تقلبها الرياح ظهرًا لبطن»(٣).

فما حيلة قلب هو بيد مقلّبه ومصرّفه، وهل له مشيئة بدون مشيئته؟ كما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٩]

وقال طاووس: «أدركتُ ثلاثمئة من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر»(٤).

وقال أيوب السختياني: «أدركت الناس وما كلامهم إلا إن قُضِيَ، إن قُدِّرَ»(٥).

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]: «خلق الله الخلق كلهم بقدَر، وخلق الخير والشر، فخيرُ

---

(١) أحمد (١٧٦) وصححه الأرناؤوط، وصححه الألباني في صحيح ابن ماجه (١٦٦) والوادعي في الصحيح المسند (١١٩٥).

(٢) البخاري (٦٦١٧).

(٣) ذكره أحمد في المسند (١٩٧٥٧) موقوفًا على أبي موسى رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ.

(٤) شرح أصول اعتقاد اهل السنة للالكائي (٥٣٥).

(٥) البيهقي في القضاء والقدر (٢١٣).


www.alukah.net

الخيرِ السعادة، وشرُّ الشرِّ الشقاوة»(١).

وفي صحيح مسلم عن أبي الأسود الديلي قال: «قال لي عمران بن حصين: أرأيت ما يعمل الناس اليوم ويكدحون، أشيء قُضيَ عليهم ومضى عليهم من قدر قد سبق، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم وثبتت به الحجة؟ قال: قلت لا بل فيما قضي عليهم ومضى.

قال: أفيكون ذلك ظلمًا؟ قال: ففزعت فزعًا شديدًا، وقلت: إنه ليس شيء إلا خلقُه وملكُه، لا يُسئل عما يفعل وهم يسئلون. فقال: سدّدك الله، إنما سألتك لأُحرز عقلك(٢)، إن رجلا من مزينة أو جهينة أتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله أرأيت ما يعمل الناس ويتكادحون فيه، أشيء قُضي عليهم ومضى، أو فيما يستقبلون مما أتاهم به نبيهم؟ قال: **«فيما قُضي عليهم ومضى»** فقال الرجل: ففيم العمل؟ قال رسول الله ﷺ: **«من كان خَلَقَهُ الله لإحدى المنزلتين فسيستعمله لها، وتصديق ذلك في كتاب الله عز وجل: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾** [الشمس: ٧ - ٨](٣).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] قال:

---

(١) تفسير الطبري (١١١/٢٧).

(٢) أي أختبر عقلك هل يقوم لهذا السؤال أم لا؟

(٣) مسلم (٢٦٥٠).


شبكة الألوكة - قسم الكتب

«عَلِمَ من إبليس المعصية، وخَلَقَهُ لها»(١).

وقال تعالى: ﴿ فَرِيقًا هَدَىٰ وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلضَّلَٰلَةُ ﴾ [الأعراف: ٣٠] قال ابن عباس: «إن الله سبحانه بدأ خلق ابن آدم مؤمنًا وكافرًا، ثم قال: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ فَمِنكُمْ كَافِرٌ وَمِنكُم مُّؤْمِنٌ﴾ [التغابن: ٢] ثم يعيدهم يوم القيامة كما بدأ خلقهم مؤمن وكافر»(٢).

وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَقَلْبِهِۦ﴾ [الأنفال: ٢٤] قال: «يحول بين المؤمن وبين الكفر ومعاصي الله، ويحول بين الكافر وبين الإيمان وطاعة الله»(٣).

وقال ابن عباس ومالك وجماعة من السلف في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩] قالوا: «خلق أهل الرحمة للرحمة، وأهل الاختلاف للاختلاف»(٤).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا ٱقْتَتَلُوا۟﴾ [البقرة: ٢٥٣]، ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا ﴾ [السجدة: ١٣]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ﴾ [يونس: ٩٩]، ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ﴾ [الأنعام: ٣٥]، ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا

---

(١) تفسير الطبري (١/ ٤٧٧).
(٢) الطبري (١٢/ ٣٨٢).
(٣) الطبري (١٣/ ٤٦٨).
(٤) الطبري (١٥/ ٥٣٥).


www.alukah.net

﴿فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام: ١١٢].

وقال تعالى: ﴿فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِهِۦٓ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُم مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الأعراف: ٣٧] أي نصيبهم مما كتب لهم.

وقال: ﴿كَذَٰلِكَ سَلَكْنَـٰهُ فِى قُلُوبِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ [الشعراء: ٢٠٠] قال الحسن وغيره: «الشرك والتكذيب»(١).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ [الجاثية: ٢٣] قال: «أضله في سابق علمه»(٢).

وقال في قوله تعالى حكاية عن عدوه إبليس: ﴿فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى﴾ [الأعراف: ١٦] قال: «أضللتني»(٣).

وقال عمر بن عبد العزيز: «لو أراد الله أن لا يُعصى لم يخلق إبليس، وقد فصّل لكم وبيّن لكم ما أنتم عليه بفاتنين إلا من قُدِّر له أن يصلى الجحيم»(٤).

وقال وُهيب بن خالد: أنبأنا خالد قال: قلت للحسن: ألهذه خُلِق آدم ـ يعني السماء ـ أم للأرض؟ فقال: «لا، بل للأرض» قال: قلت: أرأيت لو

---

(١) الطبري (١١٥/١٩).

(٢) الطبري (١٥١/٢٥).

(٣) الطبري (٣٣٢/١٢).

(٤) الطبري (١٠٩/٢٣).


شبكة الألوكة - قسم الكتب

اعتصم من الخطيئة فلم يعملها، أكان تُرك في الجنة؟ قال: «سبحان الله، كان لا بد له من أن يعملها»(١).

وقال مجاهد في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء: ١٣] قال: «مكتوب في عنقه شقي أو سعيد»(٢).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [المائدة: ٤١] يقول: «ومن يرد الله ضلالته لم تغن عنه شيئًا»(٣).

وفي صحيح مسلم عن طاووس: «أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون: كل شيء بقدر. وسمعت عبد الله بن عمر يقول: قال رسول الله ﷺ يقول: **«كل شيء بقدر، حتى العَجْز والكَيْس»**(٤).

وفي صحيح مسلم عن عبدالله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«كتب الله مقادير الخلق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة وعرشه على الماء»**(٥).

وفي صحيحه أيضًا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: **«المؤمن**

---

(١) اللالكائي في أصول الاعتقاد (١٠٠٦).
(٢) الطبري (١٥/٥١) بنحوه.
(٣) ابن أبي حاتم في تفسيره (٤/١١٣٣).
(٤) مسلم (٢٦٥٥).
(٥) مسلم (٢٦٥٣).

القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كلٍّ خير، فاحرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أنّي فعلتُ كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء الله فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١).

وفي صحيحه أيضا عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن النذر لا يُقَدِّرُ لابن آدم شيئًا لم يكن الله قدَّره، ولكن النذر يوافق القَدَرَ، فيُخرِج ذلك من البخيل مالم يكن يريد أن يخرجه»(٢).

وفي حديث جبرائيل وسؤاله النبي ﷺ عن الإيمان قال: «الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله والقدر خيره وشرّه»(٣).

وفي الصحيحين حديث ابن مسعود في التخليق وفيه: «فوالذي لا إله غيره إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة حتّى ما يكون بينه وبينها إلا ذراعٌ، فيسبق عليه الكتاب، فيعملُ بعمل أهل النار، فيدخل النار. وإن أحدَكم ليعمل بعمل أهل النار، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل الجنة، فيدخلها»(٤).

وفي الصحيحين حديثُ عليّ عن النبي ﷺ: «ما منكم من أحد إلا كُتِب

---

(١) مسلم (٢٦٦٤).

(٢) مسلم (١٦٤٠) وانظر البخاري (٦٦٩٤).

(٣) مسلم (٨).

(٤) البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).

مقعده من النار ومقعده من الجنة» فقالوا: يا رسول الله، أفلا نتّكل على كتابنا، وندع العمل؟ فقال: «**اعملوا، فكلّ ميسّر لما خُلق له، أمّا من كان من أهل السعادة فيُيسّر لعمل أهل السعادة، وأما من كان من أهل الشقاوة فييسر لعمل أهل الشقاوة**» ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ﴾ [الليل: ٥ - ١٠][(١)].

وفي الصحيحين عن عمران بن حصين أن النبي ﷺ سُئِل: أَعُلِمَ أهلُ الجنة من أهل النار؟ قال: «**نعم**» قيل: ففيم يعمل العاملون؟ قال: «**نعم، كلٌّ ميسّر لما خلق له**»[(٢)].

وفي صحيح مسلم عن عائشة قالت: دُعِيَ رسول الله ﷺ إلى جنازة غلام من الأنصار، فقلت: يا رسول الله طوبى لهذا، عصفورٌ من عصافير الجنة، لم يُدرك السوء، ولم يعمله. قال: «**أو غيرَ ذلك، إن الله تعالى خلق للجنة أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم. وخلق للنار أهلًا، خلقهم لها وهم في أصلاب آبائهم**»[(٣)].

وفي الصحيحين عن ابن عباس وأبي بن كعب عن النبي ﷺ قال: «**الغلامُ الذي قتله الخضر، طُبِعَ يوم طبع كافرًا، ولو عاش لأرهق أبويه طغيانًا**

---

(١) البخاري (١٣٦٢) ومسلم (٢٦٤٣).

(٢) البخاري (٦٥٩٦) ومسلم (٢٦٤٩).

(٣) مسلم (٢٦٦٢).


www.alukah.net

وكفرًا»(١).

وفي مسند الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«إن الله خَلَقَ الخلق في ظُلْمة، ثم ألقى عليهم من نوره»** وفي لفظ: **«فجعلهم في ظلمة واحدة، فأخذ من نوره فألقاه على تلك الظلمة، فمن أصابه النور اهتدى، ومن أخطأه ضلَّ. فلذلك أقول: جفَّ القلم على علم الله»**(٢).

وذكر راشد بن سعد عن أبي عبدالرحمن السلمي أن أبا قتادة سمع النبي ﷺ يقول: **«خلق الله آدم، وأخرج الخلق من ظهره فقال: هؤلاء في الجنة ولا أبالي، وهؤلاء في النار ولا أبالي»** قال قيل: علامَ نعمل: قال: **«على مواقع القدر»**(٣).

في صحيح مسلم عن حذيفة بن أسيد يبلغ به النبي ﷺ قال: **«يدخل الملك على النطفة بعدما تستقر في الرحم بأربعين أو خمس وأربعين ليلة فيقول: يا رب أشقيّ أم سعيد؟ فيُكتبان، فيقول: يا رب أذكر أم أنثى؟ فيكتبان،**

---

(١) مسلم (٢٦٦١) ولم يروه البخاري بهذا اللفظ.

(٢) أحمد (٦٦٤٤) وصححه أحمد شاكر والأرناؤوط، والترمذي وحسنه (٢٦٤٢) وصححه الألباني في صحيح الترمذي.

(٣) أحمد (١٧٦٦٠) وابن حبان (٣٣٨) والحاكم (٣١/١) وصححاه. وصححه الألباني في السلسلة (٤٨) وحسنه الوادعي في الصحيح المسند (١٠٥٢).


شبكة الألوكة - قسم الكتب

ويكتب عمله وأثره ورزقه. ثم تطوى الصحف ولا يزاد فيهاه ولا ينقص»[(١)].

وفي الصحيحين من حديث ابن مسعود عن النبي ﷺ: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يومًا، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يُنفخ**[(٢)] **فيه الروح، ويُبعث إليه الملك، فيؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد»**[(٣)].

وفي الترمذي عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله خلق آدم من قبضة قبضها من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، جاء منهم الأحمرُ والأبيض والأسود وبين ذلك، والسهلُ والحَزَنُ، والخبيث والطيب**» قال الترمذي حديث حسن صحيح[(٤)].

وفي الترمذي عن ابن عباس قال: ردفتُ رسول الله ﷺ يومًا فقال: «**يا غلام، ألا أعلّمك كلمات ينفعك الله بهن؟ احفظ الله يحفظْك، احفظ الله تجده أمامك، تعرّفْ إلى الله في الرخاء يعرفْك في الشدة، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله. رُفعت الأقلام، وجفّت الصحف. لو جَهَدت الأمة على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو جهدت الأمة على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك. واعلم أن النصر**

---

(١) مسلم (٢٦٤٤).

(٢) الغالب تذكير الروح، والأقل تأنيثها، وكلاهما صحيح، والتذكير أصح.

(٣) البخاري (٦٥٩٤) ومسلم (٢٦٤٣).

(٤) (٢٩٥٥) ورواه أبو داود (٤٦٩٣).

مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرًا»[(١)].

وقال عكرمة عن ابن عباس: «كان الهدهد يدل سليمان على الماء» فقلت له: وكيف ذاك والهدهد ينصب له الفخ عليه التراب؟ فقال: «أعضَّك اللهُ بِهَن أبيك[(٢)] إذا جاء القضاء ذهب البصر»[(٣)].

وصح عن ابن عمر أن يحيى بن يعمر قال له: إن ناسًا يقولون: لا قَدَر، وإن الأمر أُنُفٌ[(٤)] فقال: «إذا لقيت أولئك فأخبرهم أن ابن عمر بريء منهم، وأنهم براء منه»[(٥)].

وقد تقدم قول أبي بن كعب وحذيفة وابن مسعود وزيد بن ثابت[(٦)]: «لو أنفقت مثل جبل أحد ذهبًا في سبيل الله، ما قبل منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك. وإن مت على غير ذلك دخلت النار»[(٧)].

---

(١) أحمد (٢٦٦٩) والترمذي (٢٥١٦) وصححه الترمذي وابن رجب.

(٢) وهي مما تقولها العرب ولا تريد حقيقة معناها.

(٣) اللالكائي (١٢٢٨) وصحح سنده زائد النشيري، مع التنبيه إلى استفادتي من كثير من تخريجه لكتاب طريق الهجرتين، جزاه الله خيرًا.

(٤) أي مستأنف من غير سابق قضاء، وهو قول القدرية النُّفاة.

(٥) مسلم (٨).

(٦) ورفعه زيد إلى النبي ﷺ.

(٧) أبو داود (٤٦٩٩) وأحمد (٢١٥٨٩) وغيرهما.

وقال أبو الدرداء: «ذروة الإيمان أربع: الصبر للحُكْم، والرضا بالقدر، والإخلاص للتوكل، والاستسلام للرب»[١].

والآثار في ذلك أكثر من أن تذكر، وإنما أشرنا إلى بعضها إشارة.

فالجواب[٢]: أن هٰهنا مقامين: مقامَ إيمان وهدى ونجاة، ومقامَ ضلال وردى وهلاك، زلت فيه أقدام، فهوت بأصحابها إلى دار الشقاء.

فأما مقام الإيمان والهدى والنجاة فمقام إثبات القدر والإيمان به، وإسناد جميع الكائنات إلى مشيئة ربها وبارئها وفاطرها، وأن ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما لم يشأ لم يكن وإن شاء الناس. وهذه الآثار كلها تحقق هذا المقام، وتبين أن من لم يؤمن بالقدر فقد انسلخ من التوحيد، ولبس جلباب الشرك، بل لم يؤمن بالله ولم يعرفه. وهذا في كل كتاب أنزله الله على رسله.

وأما المقام الثاني وهو مقام الضلال والردى والهلاك، فهو الاحتجاج به على الله، وحمل العبد ذنبه على ربه، وتنزيه نفسه الجاهلة الظالمة الأمارة بالسوء، وجعل أرحم الراحمين وأعدل العادلين وأحكم الحاكمين وأغنى الأغنياء أضرّ على العباد من إبليس، كما صرح به بعضهم!

وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية يقول: عاتبت بعض شيوخ هؤلاء فقال لي: المحبة نار تحرق من القلب ما سوى مراد المحبوب، والكون كله مراد، فأي

---

(١) اللالكائي (١٢٣٨).

(٢) أي جواب قوله في تصدير كلامه: «فإن أصررت على اتهام القدر...».

شيء أبغض منه؟ قال: فقلت له: إذا كان المحبوب قد أبغض بعض من في الكون، وعاداهم ولعنهم، فأحببتهم أنت وواليتهم، أكنت وليًّا للمحبوب أو عدوًّا له؟ قال: فكأنما أُلقم حجرًا.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في تائيته(١):

ويُدعى خصوم الله يوم معادهم إلى النار طُرًّا فرقةُ القدريةِ
سواءٌ نفَوه أو سعوا ليخاصموا به اللهَ أو ماروا به للشريعةِ

وسمعته يقول: القدرية المذمومون في السنة على لسان السلف هم هؤلاء الفرق الثلاث: نُفاتُه وهم القدرية المجوسية. والمعارضون به للشريعة، الذين قالوا: ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وهم القدرية المشركية. والمخاصمون به الرب سبحانه، وهم أعداء الله وخصومه، وهم القدرية الإبليسية، وشيخهم إبليس، وهو أول من احتج على الله بالقدر فقال: ﴿بِمَآ أَغْوَيْتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩] ولم يعترف بالذنب ويبوء به، كما اعترف به آدم. فمن أقر بالذنب، وباء به، ونزه ربه، فقد أشبه أباه آدم، ومن أشبه أباه فما ظلم. ومن برّأ نفسه، واحتج على ربه بالقدر، فقد أشبه إبليس(٢).

---

(١) وهذه شهادة من تلميذه ابن القيم في نسبة التائية إليه، وهي كافية، فهو من أعلم الناس بمصنفات شيخه، وقد نسب إليه أبياتًا أخرى في مواضع من مصنفاته، وقد يكون إغفال بعضهم لذكرها مع مسرد مصنفاته قد سقط سهوًا، أو قد رأوها قصيرة بالنسبة لمصنف مستقل، فهي أشبه بفتوى أو نحوها.

(٢) قسم شيخ الإسلام الضُّلّال في باب القدر لثلاثة أقسام، ولقّب كل قسم بما يلائمة، =

ولا ريب أن هؤلاء القدرية الإبليسية والمشركية شر من القدرية النفاة،

=

ومن ثمّ أخذت عنه هذه القسمة الثلاثية:

الأولى: القدرية المشركية. وهم المحتجون بالقدر على المعاصي. ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال عنهم في الاستقامة (٢/ ١٣٩):

«وأكثر ما يُبتلى به السالكون أهل الإرادة والعامة في هذا الزمان هي القدرية المشركيّة، فيشهدون القدر ويعرضون عن الأمر، كما قال فيهم بعض العلماء: أنت عند الطاعة قدريّ، وعند المعصية جبريّ، أيّ مذهب وافق هواك تمذهبت به!

وإنما المشروع العكس، وهو أن يكون عند الطاعة يستعين الله عليها قبل الفعل، ويشكره عليها بعد الفعل، ويجتهد أن لا يعصي، فإذا أذنب وعصى بادر إلى التوبة والاستغفار».

الثانية: القدرية المجوسية: وهم الذين يزعمون أن الله لم يخلق أفعال العباد ولا شاء جميع الكائنات. فشابهوا المجوس في القول بخالقَين، فالمجوس يعتقدون بإله النور وإله الظلام، وهؤلاء اتخذوا مع الله خالقًا هو العبد، إذ قالوا: إنه يخلق فعل نفسه، وأن مشيئة الله ليست عامة في المخلوقات! تعالى الله عما يقولون.

الثالثة: القدرية الإبليسية: وهم الذين يقرّون بوجود الأمر والنهي من الله، ويقرون مع ذلك بوجود القضاء والقدر منه، لكنهم يقولون: هذا تناقض منه، وفيه جهل وظلم، ورئيسهم إبليس الذي قال لربه مخاصمًا: ﴿رَبِّ بِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي﴾ [الحجر: ٣٩]. نعوذ بالله من الضلال.

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تائيته:

ويُدعَى خصومُ الله يوم معادهم … إلى النار طُرًّا معشرَ القدرية

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فكثير منهم منسلخ عن الشرع، عدو الله ورسله، لا يقر بأمر ولا نهي، وتلك وراثة عن شيوخهم الذين قال الله فيهم: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأْسَنَاۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيْءٍۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْۚ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾ [النحل: ٣٥] وقال تعالى: ﴿وَقَالُواْ لَوْ شَآءَ ٱلرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَٰهُمۗ مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍۖ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ [الزخرف: ٢٠] وقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنُطْعِمُ مَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطْعَمَهُۥٓ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ [يس: ٤٧].

فهذه أربعة مواضع في القرآن، بيّن سبحانه فيها أن الاحتجاج بالقدر من فعل المشركين المكذبين للرسل.

وقد افترق الناس في الكلام على هذه الآيات أربع فرق، وهدى الله بفضله ورثة أنبيائه ورسله لميراث نبيهم وأصحابه، فلم يؤمنوا ببعض الكتاب ويكفروا ببعض، بل آمنوا بقضاء الله وقدره ومشيئته العامة النافذة، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن. وأنه مقلب القلوب ومصرفها كيف أراد. وأنه هو الذي جعل المؤمن مؤمنًا، والمصلي مصليًا، والمتّقي متّقيًا. وجعل أئمة الهدى يهدون بأمره، وأئمة الضلالة يدعون إلى النار. وأنه ألهم كل نفس فجورها وتقواها. وأنه يهدي من يشاء بفضله ورحمته، ويضل من يشاء بعدله

شبكة الألوكة - قسم الكتب

وحكمته. وأنه هو الذي وفّق أهل الطاعة لطاعته فأطاعوه، ولو شاء لخذلهم فعصوه. وأنه حال بين الكفار وقلوبهم، فإنه يحول بين المرء وقلبه فكفروا به، ولو شاء لوفقهم فآمنوا به وأطاعوه. وأنه من يهد الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأنه لو شاء لآمن من في الأرض كلهم جميعًا، إيمانا يثابون عليه ويقبل منهم ويرضى به عنهم. وأنه لو شاء ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢].

والقضاء والقدر عندهم أربع مراتب جاء بها نبيهم وأخبر بها عن ربه تعالى:

الأولى: علمه السابق بما هم عاملوه قبل إيجادهم.

الثانية: كتابة ذلك في الذكر عنده قبل خلق السموات والأرض.

الثالثة: مشيئته المتناولة لكل موجود، فلا خروج لكائن عن مشيئته، كما لا خروج له عن علمه.

الرابعة: خلقه له وإيجاده وتكوينه، فإنه لا خالق إلا الله، والله خالق كل شيء. فالخالق عندهم واحد، وما سواه فمخلوق. ولا واسطة عندهم بين الخالق والمخلوق. ويؤمنون مع ذلك بحكمته، وأنه حكيم في كل ما فعله وخلقه، وأن مصدر ذلك جميعه عن حكمةٍ تامة هي التي اقتضت صدور ذلك وخلقَه. وأن حكمته حكمةُ حقٍّ، عائدة إليه، قائمه به كسائر صفاته. وهذه الحكمة هي الغاية المحبوبة له، المطلوبة التي هي متعلق محبته وحمده. ولأجلها خلق فسوى، وقدّر فهدى، وأمات وأحيا، وأسعد وأشقى، وأضل وهدى،

ومنع وأعطى. وهذه الحكمة هي الغاية، والفعلُ وسيلة إليها.

والمقصود: أن ورثة الرسل وخلفاءهم لكمال ميراثهم لنبيهم آمنوا بالقضاء والقدر والحكم والغايات المحمودة في أفعال الرب وأوامره، وقاموا مع ذلك بالأمر والنهي، وصدقوا بالوعد والوعيد. فآمنوا بالخلق الذي من تمام الإيمان به إثبات القدر والحكمة، وبالأمر الذي من تمام الإيمان به الإيمان بالوعد والوعيد وحشر الأجساد والثواب والعقاب. فصدّقوا بالخلق والأمر.

واعلم أن الإيمان بحقيقة القدر والشرع والحكمة لا يجتمع إلا في قلوب خواصّ الخلق ولبِّ العالم.

والقضاء والقدر منشؤه عن علم الرب وقدرته، ولهذا قال الإمام أحمد: «القدر قُدرةُ الله»(١) واستحسن ابن عقيل هذا الكلام من أحمد غاية الاستحسان، وقال: إنه شفى بهذه الكلمة وأفصح بها عن حقيقة القدر.

ولهذا كان مصدر الخلق والأمر والقضاء والشرع عن علم الرب وعزته وحكمته، ولهذا يقرن تعالى بين الاسمين من هذه الثلاثة كثيرًا كقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١] وقال بعد ذكر تخليق العالم: ﴿ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ١٢] وذكر نظير هذا فقال: ﴿فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ﴾ [الأنعام: ٩٦].

---

(١) مسائل ابن هانئ (٢/ ١٥٥).

فارتباط الخلق بقدرته التامة يقتضي أن لا يخرج موجود عن قدرته، وارتباطه بعلمه التام يقتضي إحاطته به وتقدمه عليه، وارتباطه بحكمته يقتضي وقوعه على أكمل الوجوه وأحسنها، واشتماله على الغاية المحمودة المطلوبة للرب سبحانه. وكذلك ارتباط أمره بعلمه وحكمته وعزته، فهو عليم بخلقه وأمره، حكيم في خلقه وأمره، عزيز في خلقه وأمره.

ولهذا كان الحكيم من أسمائه الحسنى، والحكمة من صفاته العلى. والشريعة الصادرة عن أمره مبناها على الحكمة، والرسول المبعوث بها مبعوث بالكتاب والحكمة. والحكمة هي سنة الرسول ﷺ، وهي تتضمن العلم بالحق، والعمل به، والخبر عنه، والأمر به. فكل هذا يسمى حكمة.

فكما لا يخرج مقدور عن علمه وقدرته ومشيئته، فهكذا لا يخرج عن حكمته وحمده. وهو محمود على جميع ما في الكون من خير وشر حمدًا استحقه لذاته، وصدر عنه خلقُه وأمرُه، فمصدر ذلك كله عن الحكمة، فإنكار الحكمة إنكار لحمده في الحقيقة.

وإنما يتبين هذا ببيان وجود الحكمة في كل ما خلقه الله وأمر به، وبيان أنه كله خير من جهة إضافته إليه سبحانه. وأنّه من تلك الإضافة خيرٌ وحكمة، وأن جهة الشر منه من جهة إضافته إلى العبد، كما قال في دعاء الاستفتاح: **«لبيك وسعديك، والخير في يديك، والشر ليس إليك»**[(١)] فهذا النفي يقتضي

---

(١) مسلم (٧٧١).



امتناع إضافة الشر إليه تعالى بوجه، فلا يضاف إلى ذاته ولا صفاته ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته منزّهة عن كل شرّ، وصفاته كذلك، إذ كلها صفات كمال ونعوت جلال، لا نقص فيها بوجه من الوجوه. وأسماؤه كلها حسنى، ليس فيها اسم ذمّ ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل، لا تخرج عن ذلك البتة. وهو المحمود على ذلك كله. فيستحيل إضافة الشر إليه.

وتحقيق ذلك: أن الشر ليس هو إلا الذنوب وعقوباتها، كما في خطبته ﷺ: **«الحمد لله، نستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا»**(١) فتضمن ذلك الاستعاذة من شرور النفوس، ومن سيئات الأعمال، وهي عقوباتها. وعلى هذا فالإضافة على معنى اللام من باب إضافة المتغايرين، أو يقال المراد السيئات من الأعمال، فعلى هذا الإضافةُ بمعنى «من» وهي من باب إضافة النوع إلى جنسه.

ويدل على الأول قوله تعالى: ﴿وَقِهِمُ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ وَمَن تَقِ ٱلسَّيِّـَٔاتِ يَوۡمَئِذٖ فَقَدۡ رَحِمۡتَهُۥ﴾ [غافر: ٩] قال شيخنا(٢): «وهذا أشبه إذا أريد السيئات من الأعمال. فإن أريد ما وقع منها فالاستعاذة إنما تكون من عقوباتها. إذ الواقع لا يمكن رفعه، وإن استعاذ منها قبل وقوعها لئلا تقع، فهذا هو الاستعاذة من شر النفس».

---

(١) أحمد (٤١١٦) وأبو داود (٢١١٨) بإسناد صحيح.

(٢) وإذا اطلقه فهو تقي الدين ابن تيمية، وانظر قوله في الفتاوى: (١٨/ ٢٨٩).



وإذا عرف هذا، وأنه ليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، وكونها ذنوبًا تأتي من نفس العبد، فإن سبب الذنب الظلم والجهل، وهما من نفس العبد، كما أن سبب الخير الحمد والعلم والحكمة والغنى، وهي أمور ذاتية للرب، وذات الرب سبحانه مستلزمة للحكمة والخير والجود. وذات العبد مستلزمة للجهل والظلم، وما فيه من العلم والعدل فإنما حصل له بفضل الله عليه، وهو أمر خارج عن نفسه. فمن أراد الله به خيرًا أعطاه هذا الفضل، فصدر منه الإحسان والبر والطاعة. ومن أراد به شرًّا أمسكه عنه، وخلّاه ودواعي نفسه وطبعه وموجبها، فصدر منه موجب الجهل والظلم من كل شر وقبيح. وليس منعه لذلك ظلمًا منه سبحانه، فإنّه فضله، وليس من مَنَع فضله ظالمًا، لا سيما إذا منعه عن محل لا يستحقه، ولا يليق به.

وأيضًا فإن هذا الفضل هو توفيقه وإرادته من نفسه أن يلطف بعبده ويوفقه ويعينه، ولا يخلي بينه وبين نفسه، وهذا محض فعله وفضله. وهو سبحانه أعلم بالمحل الذي يصلح لهذا الفضل، ويليق به، ويثمر به، ويزكو به. وقد أشار الله تعالى إلى هذا المعنى بقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [الأنعام: ٥٣] فأخبر سبحانه أنه أعلم بمن يعرف قدر هذه النعمة، ويشكره عليها. فإن أصل الشكر هو الاعتراف بإنعام المنعم على وجه الخضوع له والذل والمحبة، فمن لم يعرف النعمة بل كان جاهلًا بها لم يشكرها، ومن عرفها ولم يعرف المنعم بها لم يشكرها أيضًا، ومن عرف النعمة والمنعم لكن جحدها كما يجحد المنكر لنعمة

www.alukah.net
شبكة الألوكة

المنعم عليه بها فقد كفرها، ومن عرف النعمة والمنعم وأقر بها ولم يجحدها، ولكن لم يخضع له ويحبه ويرضى به وعنه لم يشكرها أيضًا، ومن عرفها وعرف المنعم بها وخضع للمنعم بها وأحبه ورضي به وعنه واستعملها في محابّه وطاعته فهذا هو الشاكر لها. فلا بد في الشكر من علم القلب، وعمل يتبع العلم، وهو الميل إلى المنعم ومحبته والخضوع له، كما في صحيح البخاري عن شداد بن أوس قال: قال رسول الله ﷺ: «**سيد الاستغفار أن يقول العبد: اللّهم أنت ربي لا إله إلا أنت، خلقتني وأنا عبدك، وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت. أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ، وأبوء بذنبي، فاغفر لي، فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت. من قالها إذا أصبح موقنًا بها فمات من يومه دخل الجنة، ومن قالها إذا أمسى موقنًا بها فمات من ليلته دخل الجنة**»(١) فقوله: «**أبوء لك بنعمتك عليّ**» يتضمن الإقرار والإنابة إلى الله بعبوديته، فإن المباءة هي التي يبوء إليها الشخص، أي يرجع إليها رجوع استقرار، والمباءة هي المستقر، ومنه قوله ﷺ: «**من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»(٢) أي ليتخذ مقعده من النار مباءَةً يلزمه ويستقر فيه، لا كالمنزل الذي ينزله ثم يرحل عنه.

فالعبد يبوء إلى الله بنعمته عليه، ويبوء بذنبه ويرجع إليه بالاعتراف بهذا وبهذا، رجوع مطمئن إلى ربه، منيب إليه، ليس رجوع من أقبل عليه ثم أعرض

---

(١) البخاري (٦٣٢٣).

(٢) البخاري (١١٠) ومسلم في المقدمة (٣).



شبكة الألوكة - قسم الكتب

عنه، بل رجوع من لا يعرض عن ربه، بل لا يزال مقبلًا عليه إذ كان لا بد له منه. فهو معبوده، وهو مستغاثه، لا صلاح له إلا بعبادته، فإن لم يكن معبوده هلك وفسد. ولا يمكن أن يعبده إلا بإعانته.

فقوله: «**أبوء**» يتضمن أني وإن جُلْتُ كما يجول الفرس إما بالذنب، وإما بالتقصير في الشكر، فإني راجع منيب أواب إليك، رجوع من لا غنى له عنك.

وذكر النعمة والذنب، لأن العبد دائمًا يتقلب بينهما، فهو بين نعمة من ربه، وذنب منه هو. كما في الأثر الإلهي: «**ابن آدم، خيري إليك نازل، وشرّكَ إلي صاعد، كم أتحبب إليك بالنعم وأنا غني عنك، وكم تتبغض إلي بالمعاصي وأنت فقير إلي. ولا يزال الملك الكريم يعرج إلي منك بعمل قبيح**»(١).

وكان في زمن الحسن البصري شاب لا يُرى إلا وحده، فسأله الحسن عن ذلك، فقال: إني أجدني بين نعمة من الله، وذنب مني، فأريد أن أُحدث للنعمة شكرًا وللذنب استغفارًا. فذلك الذي شغلني عن الناس. أو كما قال، فقال له: أنت أفقه من الحسن(٢).

فالخير كله من الله، كما قال تعالى: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَلَٰكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ ﴿٧﴾ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً﴾ [الحجرات: ٧ - ٨]

(١) أبو نعيم في الحلية (٤/ ٣١).
(٢) ابن أبي الدنيا في الشكر (١٩٦).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وقال: ﴿ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُل لَّا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُم بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [الحجرات: ١٧] وقال تعالى: ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ ﴾ [الفاتحة: ٦، ٧] وهؤلاء المنعم عليهم هم المذكورون في قوله سبحانه: ﴿وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا ﴾ [النساء: ٦٩].

فالنعم كلها من نعم الله وفضله على عبده، وهو سبحانه وإن كان أجود الأجودين وأرحم الراحمين وأكرم الأكرمين، فإنه أحكم الحاكمين وأعدل العادلين. لا يضع الأشياء إلا في مواضعها اللائقة بها، ولا يناقض جودُه ورحمتُه وفضلُه حكمتَه وعدلَه، ولو رأى العقلاء واحدًا منهم قد وضع المسك في الحشوش والأخلية، ووضع النجاسات والقاذورات في مواضع الطيب والنظافة؛ لاشتد نكيرهم عليه، والقدح في عقله، ونسبوه إلى السّفه وخلاف الحكمة. وكذلك لو وضع العقوبة موضع الإحسان، والإحسان موضع العقوبة؛ لسفّهوه وقدحوا في عقله، كما قال القائل(١):

ووضع الندى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف في موضع الندى

وكذلك لو وضع الدواء موضع الغذاء، والغذاء موضع الدواء، والاستفراغ حيث يكون اللائق به عدمه، والإمساك حيث يليق الاستفراغ.

(١) وهو أبو الطيب المتنبي.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

وكذلك وضع الماء موضع الطعام، والطعام موضع الماء، وأمثال ذلك مما يخل بالحكمة. بل لو أقبل على الحيوان البهيم يريد تعليمه مالم يخلق له من العلوم والصنائع. فمن بهرت حكمته العقول والألباب كيف ينبغي له أن يضع الأشياء في غير مواضعها اللائقة بها.

ومن المعلوم أن أجلَّ نعمه على عبده الإيمان به، ومعرفته، ومحبته، وطاعته، والرضا به، والإنابة إليه، والتوكل عليه، والتزام عبوديته.

ومن المعلوم أيضًا أن الأرواح منها الخبيث الذي لا أخبث منه، ومنها الطيب، وبين ذلك. وكذلك القلوب منها القلب الشريف الزكي، والقلب الخسيس الخبيث. وهو سبحانه خلق الأضداد، كما خلق الليل والنهار، والبرد والحر، والداء والدواء، والعلو والسفل. وهو أعلم بالقلوب الزاكية والأرواح الطيبة التي تصلح لاستقرار هذه النعم فيها، وإيداعها عندها، ويزكو بذرها فيها، فيكون تخصيصه لها بهذه النعمة كتخصيص الأرض الطيبة القابلة للبذر بالبذر، فليس من الحكمة أن يبذر البر في الصخور والرمال والسباخ، وفاعل ذلك غير حكيم، فما الظن ببذر الإيمان والقرآن والحكمة ونور المعرفة والبصيرة في المحال التي هي أخبث المحال.

فالله سبحانه أعلم حيث يجعل رسالته أصلًا وميراثًا[1]، فهو أعلم بمن يصلح لتحمل رسالته، فيؤديها إلى عباده بالأمانة والنصيحة، وتعظيمِ

---

(١) أي ميراث العلم والإيمان عن الرسول ﷺ.

المُرْسِلِ، والقيام بحقه، والصبر على أوامره، والشكر لنعمه، والتقرب إليه، ومن لا يصلح لذلك.

وكذلك هو سبحانه أعلم بمن يصلح من الأمم لوراثة رسله، والقيام بخلافتهم، وحمل ما بلغوه عن ربهم، قال عبدالله بن مسعود: «إن الله نظر في قلوب العباد، فرأى قلب محمد ﷺ خير قلوب أهل الأرض، فاختصه برسالته. ثم نظر في قلوب العباد، فرأى قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فاختارهم لصحبته»(١) وفي أثر إسرائيلي: **«أن الله تعالى قال لموسى: أتدري لم اخترتك لكلامي؟ قال: لا يا رب. قال: إني نظرت في قلوب العباد، فلم أر فيها أخضع من قلبك لي»**(٢) أو نحو هذا.

فالرب سبحانه إذا علم من المحل أهليةً لفضله ومحبته ومعرفته وتوحيده؛ حبب إليه ذلك، ووضعه فيه، وكتبه في قلبه، ووفقه له، وأعانه عليه، ويسر له

---

(١) أحمد (٣٦٠٠) والبزار في كشف الأستار (١٣٠) بسند حسن.

(٢) سير الأعلام (٤٩٨/١٥) ولا حرج في التحديث عن بني إسرائيل فيما لم يخالف الإسلام، لحديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول ﷺ: **«حدثوا عن بنى إسرائيل ولا حرج»** رواه أحمد (١٠١٣٠) وأبو داود (٣٦٦٤) وصححه الألباني.

قال الخطابي: «ليس معناه إباحةَ الكذبِ في أخبار بني إسرائيل، ورفع الحرج عمن نقل عنهم الكذب، ولكن معناه الرخصة في الحديث عنهم على معنى البلاغ وإن لم يتحقق صحة ذلك بنقل الإسناد، وذلك لأنه أمر قد تعذَّر في أخبارهم لبعد المسافة وطول المدة، ووقوع الفترة بين زماني النبوة».

طرقه، وأغلق دونه الأبواب التي تحول بينه وبين ذلك. ثم تولاه بلطفه وتدبيره وتيسيره وتربيته أحسن من تربية الوالد الشفيق الرحيم المحسن لولده الذي هو أحب شيء إليه، فلا يزال يعامله بلطفه ويختصه بفضله ويؤثره برحمته ويمده بمعونته ويؤيده بتوفيقه، ويريه مواقع إحسانه إليه وبره به، فيزداد العبد به معرفة وله محبة وإليه إنابة وعليه توكلًا، ولا يتولى معه غيره، ولا يعبد معه سواه. وهذا هو الذي عرف قدر النعمة، وعرف المنعم، وأقر بنعمته، وصرفها في مرضاته.

واقتضت حكمة الرب وجوده وكرمه وإحسانه أَنْ بَذَرَ في هذا القلب بذرة الإيمان والمعرفة، وسقاه ماء العلم النافع والعمل الصالح، وأطلع عليه من نوره شمس الهداية، وصرف عنه الآفات المانعة من حصول الثمرة؛ فأنبتت أرضه الزاكية من كل زوج كريم. كما في الصحيح من حديث أبي موسى عن النبي ﷺ قال: **«مَثَلُ ما بعثني الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضًا، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء، فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها طائفة أجادبُ، أمسكت الماء، فسقي الناس وزرعوا. وأصاب منها طائفة أخرى إنما هي قيعان، لا تمسك ماءً ولا تنبت كلًا. فذلك مَثَلُ من فَقُهَ في دين الله، ونفعه بما بعثني الله به، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا، ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به»**(١).

فمثّل القلوب بالأرض التي هي محل النبات والثمار، ومثّل الوحي الذي

(١) البخاري (٧٩) ومسلم (٢٢٨٢).

www.alukah.net
شبكة الألوكة

وصل إليها من بارئها وفاطرها بالماء الذي ينزله على الأرض. فمِن الأرض أرضٌ طيبة قابلة للماء والنبات، فلما أصابها الماء أنبتت ما انتفع به الآدميون البهائم وغيرهم، وهذه بمنزلة القلب القابل لهدى الله ووحيه، المستعد لزكائه وثمرته ونمائه، وهذا خير قلوب العالمين.

ومن الأرض أرضٌ صلبة منخفضة، غير مرتفعة ولا رابية، قابلة لحفظ الماء واستقراره فيها، ففيها قوة الحفظ، وليس فيها قوة النبات. فلما حصل فيها الماء أمسكته وحفظته، فورده الناس لشربهم وشرب مواشيهم وسقوا منه زروعهم. وهذا بمنزلة القلب الذي حفظ الوحي وضبطه، وأداه إلى من هو أفهم له منه، وأفقه منه فيه، وأعرف بمراده. وهذا في الدرجة الثانية.

ومن الأرض أرض قيعان، وهي المستوية التي لا تُنبت، إما لكونها سبخة أو رمالًا، ولا يستقر فيها الماء، فإذا وقع عليها الماء ذهب ضائعًا، لم تمسكه لشرب الناس، ولم تنبت به كلأ، لأنها غير قابلة لحفظ الماء، ولا لنبات الكلأ والعشب. وهذا حال أكثر الخلق، وهم الأشقياء الذين لم يقبلوا هدى الله، ولم يرفعوا به رأسًا. ومن كان بهذه المثابة فليس من المسلمين، بل لا بد لكل مسلم أن يزكو الوحي في قلبه، فينبت من العمل الصالح والكلم الطيب ونفع نفسه وغيره بحسب قدرته، فمن لم ينبت قلبه شيئًا من الخير البتة؛ فهذا من أشقى الأشقياء. فصلوات الله وسلامه على من الهدى والبيان والشفاء والعصمة في كلامه وفي أمثاله.

والمقصود: أن الله سبحانه أعلم بمواقع فضله ورحمته وتوفيقه، ومن



شبكة الألوكة - قسم الكتب

يصلح لها ومن لا يصلح، وأن حكمته تأبى أن يضع ذلك عند غير أهله، كما تأبى أن يمنعه من يصلح له. وهو سبحانه الذي جعل المحل صالحًا، وجعله أهلًا وقابلًا، فمنه الإعداد والإمداد، ومنه السبب والمُسَبَّب.

ومن اعترض بقوله: فهلّا جعل المحالَّ كلها كذلك، وجعل القلوب على قلب واحد؟ فهو من أجهل الناس وأضلهم وأسفههم، وهو بمنزلة من يقول: لم خلق الأضداد، وهلّا جعلها كلّها سببًا واحدًا، فلِمَ خلق الليل والنهار، والفوق والتحت، والحر والبرد، والدواء والداء، والشياطين والملائكة، والروائح الطيبة والكريهة، والحلو والمرّ، والحسن والقبيح؟ وهل ذلك إلا موجب ربوبيته وإلهيته وملكه وقدرته ومشيئته وحكمته، ويستحيل أن يتخلف موجب صفات كماله عنها.

وهل حقيقة الملك إلا بإكرام الأولياء وإهانة الأعداء؟ وهل تمام الحكمة وكمال القدرة إلا بخلق المتضادات والمختلفات، وترتيب آثارها عليها، وإيصال ما يليق بكل منها إليه؟ وهل ظهور آثار أسمائه وصفاته في العالم إلا من لوازم ربوبيته وملكه؟ فهل يكون رزاقًا وغفارًا وعفوًّا وحليمًا ورحيمًا ولم يوجد من يرزقه ولا من يغفر له ويعفو عنه ويحلم عنه ويرحمه؟ وهل انتقامه إلا من لوازم ربوبيته وملكه، فممّن ينتقم إن لم يكن له أعداء ينتقم منهم، ويُري أولياءه كمال نعمته عليهم واختصاصه إياهم دون غيرهم بكرامته وثوابه؟

وهل في الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شرّ جزئي يكون من

www.alukah.net
شبكة الألوكة

لوازمه؟ فهذا الغيث الذي يحيي به الله البلاد والعباد والشجر والدواب، كم يحبس من مسافر، ويمنع من قصَّار، ويهدم من بناء، ويعوق من مصلحة؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟ وهل هذه المفاسد في جنب مصالحه إلا كقطرة في بحر؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجبًا لأعظم المفاسد والهلاك؟

وهذه الشمس التي سخّرها الله لمنافع عباده، وإنضاج ثمارهم وأقواتهم، وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها، كم تؤذي مسافرًا وغيره بحرّها، وكم تجفف رطوبة، وكم تعطّش حيوانًا، وكم تحبس عن مصلحة، وكم تنشّف من مورد، وتحرق من زرع! ولكن أين يقع هذا في جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمكمّلة؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كبير، وهو خلاف موجب الحكمة الذي تنزه الله سبحانه عنه.

قلت لشيخ الإسلام: فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور مجردة عن المفاسد، مشتملة على المصلحة الخالصة. فقال: خَلْقُ هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع، فإن وجود الملزوم بدون لازمه محال، ولو خُلقتْ على غير هذا الوجه لكانت غير هذه، ولَكَانَ عالمًا آخر غير هذا.

قال: ومن الأشياء ما تكون ذاته مستلزمة لنوع من الأمور لا ينفك عنه، كالحركة مثلًا المستلزمة لكونها لا تبقى، فإذا قيل لِمَ لَمْ تُخلقِ الحركة المعيّنة باقية؟ قيل: لأن ذات الحركة تتضمن النقلة من مكان إلى مكان، والتحوّل من حال

إلى حال، فإذا قدّر ما ليس كذلك لم يكن حركة. ونفسُ الإنسان هي في ذاتها جاهلةً عاجزةً فقيرةً، كما قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا﴾ [النحل: ٧٨] وإنما يأتيها العلم والقدرة والغنى من الله بفضله ورحمته، فما حصل لها من كمال وخير فمِنَ الله، وما حصل لها من عجز وفقر وجهل يوجب الظلم والشرّ فهو منها ومن حقيقتها. وهذه أمور عدميّة، وليس لها من نفسها وجود ولا كمال، والأمور العدمية من لوازم وجودها، ولو جُعلت على غير ذلك لم تكن هي هذه النفس الإنسانية، بل مخلوقًا آخر(١).

فحقيقة نفس الإنسان جاهلة ظالمة فقيرة محتاجة، والشرّ الذي يحصل لها نوعان: عدمٌ ووجودٌ.

فالأول: كعدم العلم والإيمان والصبر وإرادة الخيرات، وعدمِ العمل بها. وهذا العدم ليس له فاعلٌ، إذ العدم المحض لا يكون له فاعل، لأن تأثير الفاعل إنما هو في أمر وجودي. وكذلك عدم استعدادها للخيرات والكمالات هو عدم محض ليس له فاعل، فإن العدم ليس بشيء أصلًا، وما ليس بشيء لا يقال إنه مفعول لفاعل. فلا يقال إنه من الله، إنما يحتاج إلى الفاعل الأمور الوجودية. ولهذا من قول المسلمين كلهم: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن» فكل كائن فبمشيئته كان، وما لم يكن فلعدم مشيئته.

---

(١) وهذا الكلام من أجود ما قيل في تفسير قوله ﷺ في ثنائه على رب العالمين سبحانه: **«والشر ليس إليك»** فشرّ الإنسان من نفسه لأن الله تعالى قطع عنه مدد التوفيق والهدى، فرجع إلى حاله الظالم الجاهل العاجز.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والمقصود: أن ما عدمته النفس من كمالها فمنها، فإنها لا تقتضي إلا العدم، أي عدمُ استعداد نفسه، وقوَّتها هو السبب في عدم هذا الكمال. فإنه كما يكون أحاد الوجودين سببا للآخر فكذلك أحد العدمين يكون سببا لعدم الآخر. والموجودُ الحادث يضاف إلى السبب المقتضي لإيجاده، وأما المعدوم فلا يحتاج استمراره على العدم إلى فاعل يُحدِث العدم، بل يكفي في استمراره عدم مشيئة الفاعل المختار له، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، لانتفاء مشيئته، فانتفاء مشيئةِ كونِه سببُ عدمه، فظهر استحالة إضافة هذا الشر(١) إلى الله عز وجل.

وأما الشر الثاني: وهو الشر الوجودي ـ كالعقائد الباطلة والإرادات الفاسدة ـ فهو من لوازم ذلك العدم. فإنه متى عُدِمَ ذلك العلم النافع والعمل والصالح من النفس لزم أن يخلفه الشر والجهلُ وموجبُها ولا بد، لأن النفس لا بد لها من أحد الضدين، فإذا لم تشتغل بالضد النافع الصالح؛ اشتغلت بالضد الضار الفاسد.

وهذا الشر الوجودي هو من خلقه تعالى، إذ لا خالق سواه، وهو خالق كل شيء. لكن كلّ ما خلقه الله فلا بد أن يكون له في خلقه حكمة لأجلها خَلَقَهُ، لو لم يخلقه فاتت تلك الحكمة.

وليس من الحكمة تفويت هذه الحكمة التي هي أحب إليه سبحانه من الخير الحاصل بعدمها، فإن في وجودها من الحكم والغايات التي يحمد عليها

(١) أي الشرّ العدمي.



شبكة الألوكة - قسم الكتب

سبحانه أضعاف ما في عدمها من ذلك، ووجود الملزوم بدون لازمه ممتنع، وليس في الحكمة تفويت هذه الحكمة العظيمة لأجل ما يحصل للنفس من الشر مع ما حصل من الخيرات التي لم تكن تحصل بدون هذا الشر، ووجود الشيء لا يكون إلا مع وجود لوازمه وانتفاء أضداده، فانتفاء لوازمه يكون ممتنعًا لغيره. وحينئذ فقد يكون هدي هذه النفوس الفاجرة وسعادتها مشروطًا بلوازم لم تحصل، أو بانتفاء أضداد لم تنتف.

فإن قيل: فهلّا حصلت تلك اللوازم، وانتفت تلك الأضداد؟ فهذا هو السؤال الأول، وقد بينّا أن لوازم هذا الخلق وهذه النشأة وهذا العالم لا بد منها، فلو قُدِّر عدمها لم يكن هذا العالم، بل عالمًا آخر، ونشأة أخرى، وخلقًا آخر.

وبينّا أن هذا السؤال بمنزلة أن يقالك هلّا تجرّد الغيث والأنهار عمّا لا يحصل به من تغريق وتخريب وأذى؟ وهلّا تجردت الشمس عما يحصل منها من حرّ وسموم وأذى؟ وهلّا تجردت طبيعة الحيوان عما يحصل له من ألم وموت وغير ذلك؟ وهلّا تجردت الولادة عن مشقة الحمل والطلق وألم الوضع؟ وهلا تجرد بدن الإنسان عن قبوله للآلام والأوجاع واختلاف الطبائع الموجبة لتغير أحواله؟ وهلّا تجردت فصول العام عما فيها من البرد الشديد القاتل والحر الشديد المؤذي؟

فهل يقبل عاقل هذا السؤال أو يورده؟ وهل هذا إلا بمنزلة أن يقال: لم كان المخلوق فقيرًا محتاجًا، والفقر والحاجة صفة نقص، فهلا تجرد منها،

وخلعت عليه خِلْعة الغنى المطلق، والكمال المطلق، فهل يكون مخلوقًا إذا كان غنيًّا غنى مطلقًا، ومعلوم أن لوازم الخلق لا بد منها فيه؟

ولا بد للعلو من سفل، والسفل من مركز(١). ولوازمُ العلو من السعة والإضاءة والبهجة والخيرات، وما هناك من الأرواح العلوية النيّرة المناسبة لمحلها، وما يليق بها ويناسبها من الابتهاج والسرور والفرح والقوة، والتجرد من علائق المواد السفلية لا بد منها. ولوازمُ السفل والمركز من الضيق والحصر، ولوازم ذلك من الظلمة والغلظ والشر، وما هنالك من الأرواح السفلية المظلمة الشريرة، وأعمالها وآثارها لا بد منها.

فهما عالمان علوي وسفلي، ومحلان وساكنان تناسبهما مساكنهما وأعمالهما وطبائعهما، وقد خلق كلا من المحلين معمورًا بأهليه وساكنيه، حكمة بالغة وقدرة قاهرة. وكل من هذه الأرواح لا يليق بها غير ما خلقت له مما يناسبها ويشاكلها، قال تعالى: ﴿ قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَىٰ شَاكِلَتِهِۦ ﴾ [الإسراء: ٨٤] أي على ما يشاكله ويناسبه ويليق به. كما يقول الناس: كل إناء بالذي فيه ينضح.

فمن أرادت من الأرواح الخبيثة السفلية أن تكون مجاورة للأرواح الطيبة العلوية في مقام الصدق بين الملأ الأعلى فقد أرادت ما تأباه حكمة أحكم الحاكمين. ولو أنّ ملِكًا من ملوك الدنيا جعل خاصته وحاشيته سِفْلَةَ الناس

---

(١) وهذا بناءً على أن الكون مقبب مستدير كالكرة، فكلما صعد اتسع وكلما نزل ضاق حتى يصل إلى مركز الضيق والسفل.

وسَقَطُهم وغَرْثَهم[1] الذين تتناسب أقوالهم وأعمالهم وأخلاقهم في القبح والرداءة والدناءة، لقَدَح الناس في ملكه، وقالوا: لا يصلح للملك. فما الظن بمجاوري الملِك الأعظم مالك الملوك في داره، وتمتّعهم برؤية وجهه وسماع كلامه، ومرافقتهم للملأ الأعلى الذين هم أطيب خلقه وأزكاهم وأشرفهم؟

أفيليق بذلك الرفيق الأعلى والمحل الأسنى والدرجات العلى روحٌ سفليّة أرضيّة، قد أخلدت إلى الأرض، وعكفت على ما تقتضيه طبائعها مما يشاركها فيه بل قد يزيد عليها الحيوان البهيم، وقصرت همتها عليه، وأقبلت بكليتها عليه، لا ترى نعيمًا ولا لذة ولا سرورًا إلا ما وافق طباعها من كل مأكل ومشرب ومنكح من أين كان وكيف اتفق. فالفرق بينها وبين الحمير والكلاب والبقر بانتصاب القامة ونطق اللسان والأكل باليد، وإلا فالقلبُ والطبع على شاكلة قلوب هذه الحيوانات وطباعها، وربما كانت طباع الحيوانات خيرًا من طباع هؤلاء وأسلم وأقبلَ للخير. ولهذا جعلهم الله سبحانه شر الدواب فقال تعالى: ﴿إِنَّ شَرَّ ٱلدَّوَآبِّ عِندَ ٱللَّهِ ٱلصُّمُّ ٱلْبُكْمُ ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوا۟ وَّهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٢ - ٢٣].

فهل يليق بحكمة العزيز الحكيم أن يجمع بين خير البرية وأزكى الخلق وبين شر البرية وشر الدواب في دار واحدة، يكونون فيها على حالة واحدة من النعيم أو العذاب؟ قال الله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ

(١) الغرث: الجوع والفاقة، وتصح بفتح الراء وهو الأكثر، وبتسكينها وهو الأصح، كما قال حسان: وتصبح غرْثى من لحوم الغوافلِ.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

﴿تَحْكُمُونَ﴾ [القلم: ٣٥ - ٣٦] فأنكر عليهم الحكم بهذا، وأخرجه مخرج الإنكار لا مخرج الإخبار، لينبه العقول على أن هذا مما تحيله الفطر، وتأباه العقول السليمة. وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠] وقال تعالى: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٨] وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

بل الواحد من الخلق لا تستوي أعاليه وأسافله، فلا يستوي عقبُه وعينُه، ولا رأسه ورجلاه، ولا يصلح أحدهما لما يصلح له الآخر. والله عز وجل قد خلق الخبيث والطيب والسهل والحزن والضار والنافع، وهذه أجزاء الأرض: منها ما يصلح جلاء للعين، ومنها ما يصلح للأتون والنار.

وبهذا ونحوه يُعرَف كمال القدرة وكمال الحكمة، فكمال القدرة بخلق الأضداد، وكمال الحكمة تنزيلها منازلها، ووضع كل منها في موضعه. والعالِمُ من لا يُلقي الحرب بين قدرة الله وحكمته، فإن آمن بالقدرة قَدَحَ في الحكمة وعطّلها، وإن آمن بالحكمة قدح في القدرة ونقصها، بل يربط القدرة بالحكمة، ويعلم شمولها لجميع ما خلقه الله ويخلقه، فكما أنه لا يكون إلا بقدرته ومشيئته، فكذلك لا يكون إلا بحكمته.

وإذا كان لا سبيل للعقول البشرية إلى الإحاطة بهذا تفصيلًا، فيكفيها الإيمان بما تعلم وتشاهد منه، ثم تستدل على الغائب بالشاهد، وتعتبر ما علمت بما لم تعلم. وقد ضرب الله الأمثال لعباده في كتابه، وبين لهم ما في لوازم ما



خلقه لهم وأنزله عليهم من الغيث الذي به حياتهم وأقواتهم وحياة الأرض والدواب، وما خلقه لهم من النار التي بها صلاح أبدانهم وأقواتهم وصنائعهم، من الشر الجزئي المغمور بالإضافة إلى الخير الحاصل بذلك، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [الرعد: ١٧].

فأخبر سبحانه أن الماء بسبب مخالطته الأرض إذا سال فلا بد من أن يحمل السيل من الغثاء والوسخ وغيره زبدًا عاليًا على وجه السيل. فالذي لا يعرف ما تحت الزبد يقصر نظره عليه، ولا يرى إلا غثاءً ووسخًا ونحو ذلك، ولا يرى ما تحته من مادة الحياة. وكذلك ما يُستخرج من المعادن من الذهب والفضة والحديد والنحاس وغيرها، إذا أوقد عليها في النار لتتهيأ الانتفاع بها خرج منها خبث ليس من جوهرها ولا يُنتفع به. وهذا لا بد منه في هذا وهذا.

وقد ذم تعالى من ضعفت بصيرته من المنافقين، وعمي عما في القرآن مما به ينال كل سعادة وعلم وهدى وصلاح وخير في الدنيا والآخرة، ولم يجاوز بصرُه وسمعُه رعودَ وعيده وبروقَها وصواعقها، وما أعد الله لأعدائه من عذابه ونكاله وخزيه وعقابه، الذي هو - بالإضافة إلى ما فيه من حياة القلوب والأرواح، ومن المعارف الإلهية، وتبين طريق العبودية التي هي غاية كمال العبد - يسيرٌ، وهو مقصود لتكميل ذلك وتمامه.

قال تعالى: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ

www.alukah.net
شبكة الألوكة

بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ﴿١٧﴾ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ [البقرة: ١٧ - ٢٠] فهكذا حال كل من قَصَرَ نظرَه في بعض مخلوقات الرب سبحانه على ما لا بد منه من شر جزئي جدًّا بالإضافة إلى الخير الكثير.

ولو لم يكن في هذه النشأة الإنسانية إلا خاصته وأولياؤه من رسله وأنبيائه وأتباعهم لكفى بها خيرًا ومصلحة، ومن عداهم ـ وإن كانوا أضعاف أضعاف أضعافهم ـ فهم كالقشّ والزّبالة وغثاء السيل، لا يعبأ بكثرتهم، ولا يقدح في الحكمة الإلهية. بل وجود الواحد الكامل من هذا النوع يغتفر معه آلاف مؤلفة من النوع الآخر، فإنه إذا وجد واحد يوازن البرية ويرجح عليها، كان الخير الحاصل بوجوده والحكمة والمصلحة أضعاف الشر الحاصل من وجود أضداده، وأثبت وأنفع وأحب إلى الله من فواته بتفويت ذلك الشر المقابل له.

وهذا كالشمس، فإن الخير الحاصل بها أنفع للخلق وأكثر وأثبت وأصلح من تفويته بتفويت الشر المقابل له بها، وأين نفع الشمس وصلاح النبات والحيوان بها، من نفع الرسل وصلاح الوجود بهم؟ بل أين ذلك من نفع سيد ولد آدم وصلاح الأبدان والدين والدنيا والآخرة به؟

وقد ضُرب للنفس الإنسانية وما فيها من الخير والشر مثلًا بدولاب أو


شبكة الألوكة - قسم الكتب

طاحون شديد الدوران، أي شيء خطفه ألقاه تحته وأفسدَه، وعنده قيِّمُه[١] الذي يديره، وقد أحكم أمره لينتفع به ولا يضر أحدًا، فربما جاء الغرُّ الذي لا يعرف فيقترب منه فيخرق ثوبَه أو بدنه أو يؤذيه، فإذا قيل لصاحبه: لِمَ لَمْ تجعلْه ساكنًا لا يؤذي من اقترب منه؟ قال: هذه صفته اللازمة التي كان بها دولابًا وطاحونًا، ولو جُعل على غير هذه الصفة لم تحصل به الحكمة المطلوبة منه.

وكذلك إذا أوقدنا نار الأتون التي تُحرق ما وقع فيها، وعندها وقَّادٌ حاذق يحشُّها[٢]، فإذا غفل عنها أفسدتْ، وإذا أراد أحد أن يقرب منها نهاه وحذّره، فإذا استغفله من قَرُبَ منها حتى أحرقتْهُ لم يقل لصاحب النار: هلّا قلّلت حرّها لئلا تفسد من يقرب منها وتحرقه؟ فإنه يقول: هذه صفتها التي لا يحصل المقصود منها إلا بها، ولو جعلتها دون ذلك لم تحرق أحجار الِكْلس[٣] ولم تطبخ الآجُرّ، ولم تنضج الأطعمة الغليظة ونحو ذلك.

فما يحصل من الدولاب والطاحون ومن النار من نفعها هو من فضل الله ورحمته، وما يحصل بها من شر هو من طبيعتها التي خلقت عليها، والتي لا تكون نارًا إلا بها، فلو خرجت عن تلك الطبيعة لم تكن نارًا. وكذلك النفس فما يحصل لها من شر فهو منها ومن طبيعتها ولوازم نقصها وعدمها، وما يحصل لها من خير فهو من فضل الله ورحمته، والله خالقها وخالق كل شيء

(١) أي المسؤول عن تشغيله وإدارته.
(٢) أي يزيد إشعالها ويعتني بها.
(٣) وهو الجير.

قام بها من قدرة وإرادة وعلم وعمل وغير ذلك.

فأما الأمور العدميّة فهي باقية على ما كانت عليه من العدم، والإنسان جاهل ظالم بالضرورة، كما قال تعالى: ﴿وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: ٧٢] فإن الله أخرجه من بطن أمه لا يعلم شيئًا، وهي ظالمة نفسها، فهي الظالمة والمظلومة، إذ كانت منقوصة من كمالها بعدم بعض الكمالات أو أكثرها منها. وتلك الكمالات التي عدمت كان وجودها سببًا لكمالات أخرى، فصار عدمها مستلزمًا لعدم تلك الكمالات التي لا سعادة لها بدونها.

وتأمل أول نقص دخل على أبي البشر وسرى إلى أولاده، كيف كان من عدم العلم والعزم. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَآ إِلَىٰٓ ءَادَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِىَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُۥ عَزْمًا﴾ [طه: ١١٥] والنسيان سواءٌ كان عدم العلم أو عدم الصبر كما فسر بهما هٰهنا فهو أمر عدمي، ولهذا قال آدم لما رأى ما دخل عليه من ذلك: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فإنه اعترف بنقص حظ نفسه بما حصل لها من عدم العلم والصبر بالنسيان الذي أوجب فوات حظه من الجنة. ثم قال: ﴿وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣] فإنه سبحانه إن لم يغفر السيئات الوجودية فيمنع أثرها وعقابها ويقِ العبدَ من ذلك؛ وإلا ضرّته آثارها ولا بدّ، كآثار الطعام المسموم إن لم يتداركه المداوي بشرب الترياق ونحوه؛ وإلا ضره ولا بد.

وإن لم يرحمه سبحانه بإيجاد ما تصلح به النفس وتصير عالمة بالحق عاملة به؛ وإلا خسر، فالمغفرة تمنع الشر، والرحمة توجب الخير، والرب سبحانه إن لم



يغفر للإنسان فيقيه السيئات، ويرحمه فيؤتيه الحسنات؛ وإلا هلك ولا بد، إذ عاد كما كان ظالمًا لنفسه ظلومًا بنفسه، فإنّ نفسه ليس عندها خير يحصل لها منها، وهي متحركة بالذات، فإن لم تتحرك للخير تحركت إلى الشر فضرّت صاحبها، وكونها متحركة بالذات من لوازم كونها نفسًا، لأن ما ليس حسّاسًا متحركًا بالإرادة فليس نفسًا، ففي الصحيح[(١)] عن النبي: «**أصدق الأسماء حارث وهمّام**»[(٢)] فالحارث الكاسب العامل، والهمام الكثير الهمّ، والهم مبدأ الإرادة، فالنفس لا تكون إلا مريدة عاملة، فإن لم توفق للإرادة الصالحة وإلا وقعت في الإرادة الفاسدة والعمل الضار.

وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾ إِلَّا ٱلْمُصَلِّينَ﴾ [المعارج: ١٩ - ٢٢] فأخبر سبحانه أن الإنسان خلق على هذه الصفة، وإنّ من كان على غيرها فلأجل ما زكّاه الله به من فضله وإحسانه.

وقال تعالى: ﴿وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨] قال طاووس ومقاتل

---

(١) لفظ (في الصحيح) عند الإطلاق يراد به أحد الصحيحين البخاري ومسلم، ولعل ابن القيم أطلقه هنا بمعنى (في الحديث الصحيح) وهذا تصحيح منه للحديث بكل حال ولكنه خارج الصحيحين.

(٢) أحمد (١٩٠٣٢) والبخاري في الأدب المفرد (٨١٣) وأُعلّ بالإرسال. وصححه ابن تيمية في جامع الرسائل (٢/٢٠١).

وغيرهما: «لا يصبر عن النساء»[(١)] وقال الحسن: «هو خلقه من ماء مهين»[(٢)] وقال الزجاج: «ضعف عزمه عن قهر الهوى»[(٣)] والصواب: أن ضعفه يعمّ هذا كله، وضعفه أعظم من هذا وأكثر. فإنه ضعيف البنية، ضعيف القوة، ضعيف الإرادة، ضعيف العلم، ضعيف الصبر، والآفات إليه مع هذا الضعف أسرع من السيل في صيب الحدور. فبالاضطرار لا بد له من حافظ معين يقويه ويعينه وينصره ويساعده، فإن تخلى عنه هذا المساعد المعين فالهلاك أقرب إليه من نفسه.

وخلْقُه على هذه الصفة هو من الأمور التي يُحمد عليها الرب سبحانه، ويثنى عليه بها. وهو موجب حكمته وعزته، فكل ما يحدث من هذه الخلْقَة وما يلزمُ عنها فهو بالنسبة إلى الخالق سبحانه خير وعدل وحكمة، إذ مصدر هذه الخلقة عن صفات كماله من غناه وعلمه وعزته وحكمته ورحمته. وبالنسبة إلى العبد تنقسم إلى خير وشر، وحسن وقبيح، كما تكون بالنسبة إليه طاعة ومعصية، وبرًّا وفجورًا، بل أخص من ذلك مثل كونها صلاة وصيامًا وحجًّا وزنىً وسرقة وأكلًا وشربًا، إذ ذاك موجب حاجته وظلمه وجهله وفقره وضعفه، وموجب أمر الله له ونهيه. فلله سبحانه الحكمة البالغة والنعمة السابغة والحمد المطلق على جميع ما خلقه وأمر به، وعلى مالم يخلقه مما لو شاءه

---

(١) زاد المسير (٢/ ٦٠).

(٢) زاد المسير (٢/ ٦٠).

(٣) زاد المسير (٢/ ٦٠).

لخلقه، وعلى توفيقه الموجب لطاعته، وعلى خذلانه الموقع في معصيته.

وهو سبحانه سبقت رحمته غضبه، وكتب على نفسه الرحمة، وأحسن كل شيء خلَقَهُ، وأتقن كل ما صنع. وما يحصل للنفوس البشرية من الضرر والأذى فله في ذلك سبحانه أعظم حكمة مطلوبة، وتلك الحكمة إنما تحصل على الوجه الواقع المقدّر بما خلق لها من الأسباب التي لا تنال غاياتها إلا بها، فوجود هذه الأسباب بالنسبة إلى الخالق الحكيم سبحانه هو من الحكمة.

ولهذا يقرن سبحانه في كتابه بين اسمه الحكيم واسمه العليم تارة، وبينه وبين اسمه العزيز تارة، كقوله: ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦]، ﴿وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٢٨] وقوله: ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٨]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٧]، ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: ٦] فإن العزة تتضمن القوة، ولله القوة جميعًا.

يقال عَزَّ يعَزّ - بفتح العين - إذا اشتد وقوي، ومنه الأرض العزاز للصلبة الشديدة، وعزّ يعِزّ - بكسر العين - إذا امتنع ممن يرومه، وعزّ يعُزّ - بضم العين - إذا غلب وقهر. فأعطَوا أقوى الحركات وهي الضمة لأقوى المعاني وهو الغلبة والقهر للغير، وأضعفها وهي الفتحة لأضعف هذه المعاني وهو كون الشيء في نفسه صلبًا ولا يلزم من ذلك أن يمتنع عمن يرومه، والحركة المتوسطة وهي الكسرة للمعنى المتوسط وهو القوي الممتنع عن غيره، ولا يلزم منه أن يقهر غيره ويغلبه. فأعطوا الأقوى للأقوى، والأضعف للأضعف، والمتوسط

للمتوسط[١].

ولا ريب أن قهر المريد عما يريده من أقوى أوصاف القادر، فإن قهره عن إرادته وجعله غير مريد كان أقوى أنواع القهر. والعز ضد الذل، والذل أصله الضعف والعجز، فالعز يقتضي كمال القدرة، ولهذا يوصف به المؤمن ولا يكون ذمًّا له، بخلاف الكبر. قال رجل للحسن البصري: إنك متكبر، فقال: «لست بمتكبر، ولكني عزيز» وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨].

وقال ابن مسعود: «ما زلنا أعزّةً منذ أسلم عمر»[٢] وقال النبي ﷺ: **«اللّهم أعز الإسلام بأحد هذين الرجلين: عمر بن الخطاب، أو أبي جهل بن هشام»**[٣].

فالقدرة إن لم يكن معها حكمة، بل كان القادر يفعل ما يريده بلا نظر في العاقبة، ولا حكمة محمودة يطلبها بإرادته ويقصدها بفعله؛ كان فعله فسادًا، كصاحب شهوات الغيّ والظلم الذي يفعل بقوته ما يريده من شهوات الغيّ في بطنه وفرجه، ومن ظلم الناس، فإن هذا وإن كان له بقوّة وعزّة، لكن لما لم يقترن بها حكمة؛ كان ذلك معونة على شره وفساده.

---

(١) انظر منهاج السنة (٣/٢٣٨).

(٢) البخاري (٣٨٨٤).

(٣) الترمذي (٣٦٨١) وأحمد (٥٦٩٦) بسند جيد.

وكذلك العلم كماله أن تقترن به الحكمة، وإلا فالعالم الذي لا يريد ما تقتضيه الحكمة وتوجبه، بل يريد ما يهواه؛ سفيهٌ غاوٍ، وعلمه عون على الشر والفساد.

هذا إذا كان عالمًا قادرًا مريدًا له إرادة من غير حكمة، وإن قّدر أنه لا إرادة له بحال؛ فهذا أولًا ممتنع من الحي، فإن وجود الشعور بدون حب ولا بغض ولا إرادة ممتنع، كوجود إرادة بدون الشعور. وأما القدرة والقوة إذا قدّر وجودها بدون إرادة؛ فهي كقوة الجماد، فإن القوة الطبيعية التي هي مبدأ الفعل والحركة لا إرادة لها.

والمقصود: أن العلم والقدرة المجردين عن الحكمة لا يحصل بهما الكمال والصلاح، وإنما يحصل ذلك بالحكمة معهما. واسمه سبحانه الحكيم يتضمن حكمته في خلقه وأمره، في إرادته الدينية والكونية، وهو حكيم في كل ما خلقه وأمر به.

وبالجملة: فالموفقون المهديّون هم من آمنوا بخلق الله وأمره بقدره وشرعه، وأنه سبحانه المحمود على خلقه وأمره، وأنه له الحكمة البالغة والنعمة السابغة، وأنه على كل شيء قدير، فلا يخرج عن مقدوره شيء من الموجودات أعيانها وأفعالها وصفاتها، كما لا يخرج عن علمه، فكل ما تعلق به علمه من العالم تعلّقت به قدرته ومشيئته. وآمنوا مع ذلك بأن لله الحجة على خلقه، وأنه لا حجة لأحد عليه، بل لله الحجة البالغة. وأنه لو عذب أهل سماواته وأهل أرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم، بل كان تعذيبهم منه عدلًا منه

وحكمة، لا بمحض المشيئة المجردة عن السبب والحكمة.

ولا يجعلون القدر حجة لأنفسهم ولا لغيرهم، بل يؤمنون به ولا يحتجون به. ويعلمون أن الله سبحانه أنعم عليهم بالطاعات، وأنها من نعمته عليهم وفضله وإحسانه، وأن المعاصي من نفوسهم الظالمة الجاهلة، وأنهم هم جُناتُها، وهم الذين اجترحوها، ولا يحملونها على القضاء والقدر، مع علمهم بشمول قضائه وقدره لما في العالم من خير وشر، وطاعة وعصيان، وكفر وإيمان. وأن مشيئة الله سبحانه محيطة بذلك كإحاطة علمه به. وأنه لو شاء ألا يُعصى لما عُصي، وأنه تعالى أعزّ وأجل من أن يُعصى قسرًا، والعباد أقل من ذلك وأهون. وأنه ما شاء الله كان، وكل كائن فهو بمشيئته، ومالم يشأ لم يكن، وما لم يكن فلعدم مشيئته. فله الخلق والأمر، وله الملك والحمد، وله القدرة التامة والحكمة الشاملة البالغة.

ولا يستكثر تكرار هذه الكلمات من يعلم شدة الحاجة إليها، وضرورة النفوس إليها(١)، فلو تكررت ما تكررت فالحاجة إليها في محل الضرورة والله المستعان.

ويجمع هذين الأصلين العظيمين أصل ثالث، هو عقد نظامهما وجامع شملهما، وبتحقيقه وإثباته على وجهه يتم بناء هذين الأصلين، وهو إثبات

---

(١) وصدق فيما قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ، ومن يعاني سؤالات الحيارى، والتباس دينهم عليهم من جهة ضعف بصيرتهم بالقدَر، وما ينتج عن ذلك من ضلال وقلق وحيرة واضطراب، بل وانسلاخ من الدين جملة لقدّر هذا الكلام النفيس حق قدره.

الحمد كله لله رب العالمين، فإنه المحمود على ما خَلَقَه وأمر به ونهى عنه. فهو المحمود على طاعات العباد ومعاصيهم وإيمانهم وكفرهم. وهو المحمود على خلق الأبرار والفجار والملائكة والشياطين، وعلى خلق الرسل وأعدائهم. وهو المحمود على عدله في أعدائه، كما هو المحمود على فضله وإنعامه على أوليائه.

فكل ذرة من ذرات الكون شاهدة بحمده، ولهذا سبّحت بحمده السموات السبع الأرض ومن فيهن، وإن من شيء إلا يسبح بحمده. وكان في قول النبي ﷺ عند الاعتدال من الركوع: «**ربنا ولك الحمد، ملء السماء، وملء الأرض، وملء ما بينهما، وملء ما شئت من شيء بعد**»[1] فله سبحانه الحمد حمدًا يملأ المخلوقات والفضاء الذي بين السماوات والأرض، ويملأ ما يقدَّر بعد ذلك مما يشاء الله أن يملأ بحمده.

والمعنى أن يملأ ما يخلقه الله بعد السموات والأرض، أي: لك الحمد ملء ما خلقتَه وملء ما تخلقه بعد ذلك.

وأسماء الرب تعالى كلّها حسنى، ليس فيها اسم سوء. وأوصافه كلّها كمال، ليس فيها صفة نقص. وأفعاله كلّها حكمة، ليس فيها فعل خال عن الحكمة والمصلحة. وله المثل الأعلى في السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم. موصوف بصفات الكمال، مذكور بنعوت الجلال، منزَّه عن الشبيه

---

(١) مسلم (٤٧٦).

والمثال، ومنزَّه عما يضاد صفات كماله. فمنزه عن الموت المضاد للحياة، وعن السِّنة والنوم والسهو والغفلة المضاد للقيّوميّة. وموصوف بالعلم، منزّه عن أضداده كلها من النسيان والذهول وعزوب شيء عن علمه. وموصوف بالقدرة التامة، منزه عن ضدها من العجز واللغوب والإعياء. وموصوف بالعدل، المنزه عن الظلم. وموصوف بالحكمة، منزه عن العبث. وموصوف بالسمع والبصر، منزه عن أضدادهما من الصمم والبكم. وموصوف بالعلوّ والفوقية، منزه عن أضداد ذلك. وموصوف بالغنى التام، منزّه عما يضاده بوجه من الوجوه.

ومستحق للحمد كله، فيستحيل أن يكون غير محمود، كما يستحيل أن يكون غير قادر ولا خالق ولا حي. وله الحمد كله واجب له لذاته، فلا يكون إلا محمودًا، كما لا يكون إلّا إلهًا وربًّا وقادرًا.

فإذا قيل: «الحمدُ كلّه لله» فهذا له معنيان:

أحدهما: أنه محمود على كل شيء، وبكل ما يُحمد به الحمد التام. وإن كان بعض خلقه يُحمد أيضًا، كما يُحمد رسلُه وأنبياؤه وأتباعهم، فذلك من حمده تبارك وتعالى، بل هو المحمود بالقصد الأول وبالذات، وما نالوه من الحمد فإنما نالوه بحمده، فهو المحمود أولًا وآخرًا وظاهرًا وباطنًا. وهذا كما أنه بكل شيء عليم، وقد علم غيرُه من علمه مالم يكن يعلمه بدون تعليمه.

المعنى الثاني: أن يقال: «لك الحمد كلّه» أي: الحمد التام الكامل، فهذا مختص بالله، ليس لغيره فيه شركة.



والتحقيق: أن له الحمد بالمعنيين جميعًا، فله عموم الحمد وكماله. وهذا من خصائصه سبحانه، فهو المحمود على كل حال، وعلى كل شيء، أكملَ حمد وأعظمَه، كما أن له الملك التام العام، فلا يملك كل شيء إلا هو، وليس الملك التام الكامل إلا له. وأتباع الرسل يثبتون له كمال الملك وكمال الحمد. فإنهم يقولون: إنه خالقُ كل شيء وربُّه ومليكُه، لا يخرج عن خلقه وقدرته ومشيئته شيء البتة. فله الملك كله.

والمقصود: بيانُ شمولِ حمدِه سبحانه وحكمته لكل ما يُحدثه من إحسان ونعمة، وامتحان وبليّة، وما يقضيه من طاعة ومعصية. والله تعالى محمود على ذلك مشكور، حَمْدَ المدح وحمْد الشكر[١]، أما حمدُ المدح فالله محمود على كل ما خلق، إذ هو رب العالمين، والحمد لله رب العالمين. وأما حمد الشكر فلأنّ ذلك كلّه نعمة في حق المؤمن إذا اقترن بواجبه.

والإحسانُ والنعمة إذا اقترنت بالشكر صارت نعمة، والامتحان والبلية إذا اقترنا بالصبر كانا نعمة، والطاعة من أجلِّ نِعَمه. وأما المعصية فإذا اقترنت بواجبها من التوبة والاستغفار والإنابة والذل والخضوع، فقد ترتب عليها من الآثار المحمودة والغايات المطلوبة ما هو نعمةٌ أيضًا، وإن كان سببها مسخوطًا مبغوضًا للرب سبحانه، ولكنه يحبّ ما يترتب عليها من التوبة والاستغفار. وهو سبحانه أفرحُ بتوبة عبده من الرجل إذا أضلّ راحلته بأرض دوية[٢]

(١) فالحمد هو الثناء على ذي الصفة الجميلة، والشكر هو الثناء على ذي المنّة الحميدة.

(٢) الدوية: هي الصحراء الواسعة التي ليس فيها نبات.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

مهلكة، عليها طعامه وشرابه، فأيس منها ومن الحياة، فنام ثم استيقظ، فإذا بها قد تعلّق خطامها في أصل شجرة، فجاء حتى أخذها، فالله أفرحُ بتوبة العبد حين يتوب إليه من هذا براحلته.

فهذا الفرح العظيم الذي لا يشبهه شيء أحبُّ إليه سبحانه من عدمه، وله أسبابُ ولوازم لا بد منها. وما يحصل بتقدير عدمه من الطاعات وإن كان محبوبًا له، فهذا الفرح أحب إليه بكثير، ووجوده بدون لازمه ممتنع. فله من الحكمة في تقدير أسبابه وموجباته حكمة بالغة، ونعمة سابغة.

هذا بالإضافة إلى الرب سبحانه، وأما بالإضافة إلى العبد فإنه قد يكون كمال عبوديته وخضوعه موقوفًا على أسباب لا تحصل بدونها. فتقدير الذنب عليه إذا اتصلت به التوبة والإنابة والخضوع والذل والانكسار ودوام الافتقار كان من النعم باعتبار غايته وما يُعقِبه، وإن كان من الابتلاء والامتحان باعتبار صورته ونفسه، والرب سبحانه محمود على الأمرين، فإن اتصل بالذنب الآثار المحبوبة للرب سبحانه من التوبة والإنابة والذل والانكسار فهو عين مصلحة العبد، والاعتبار بكمال النهاية لا بنقص البداية.

وإن لم يتصل به ذلك فهذا لا يكون إلا من خبث نفسه، وشرّه، وعدم استعداده لمجاورة ربه بين الأرواح الزكية الطاهرة في الملأ الأعلى. ومعلوم أن هذه النفس فيها من الشر والخبث ما فيها، فلا بد من خروج ذلك منها من القوة إلى الفعل، ليترتب على ذلك الآثار المناسبة لها ومساكنة من تليق مساكنته ومجاورة الأرواح الخبيثة في المحل الأسفل، فإن هذه النفوس إذا كانت مهيأة



شبكة الألوكة - قسم الكتب

لذلك فمن الحكمة أن تُستخرج منها الأسباب التي توصلها إلى ما هي مهيأة له، ولا يليق بها سواه.

والرب سبحانه محمود على ذلك أيضًا، كما هو محمود على إنعامه وإحسانه على أهل الإحسان والإنعام القابلين له، فما كل أحد قابلًا لنعمته تعالى، فحمده وحكمته يقتضي أن لا يُودع نعمه وإحسانه وكنوزه في محل غير قابل لها.

ولا يبقى إلا أن يقال: فما الحكمة في خلق هذه الأرواح التي هي غير قابلة لنعمته؟ فقد تقّدم من الجواب عن ذلك ما فيه كفاية، وأن خلق الأضداد والمتقابلات وترتيب آثارها عليها موجب ربوبيته وحكمته وعلمه وعزته، وأن تقدير عدم ذلك هضم من جانب الربوبية.

وأيضًا فإن هذه الحوادث نعمة في حق المؤمن، فإنها إذا وقعت فهو مأمور أن ينكرها بقلبه ويده ولسانه، أو بقلبه ولسانه فقط، أو بقلبه فقط، ومأمور أن يجاهد أربابها بحسب الإمكان. فيترتب له على الإنكار والجهاد من مصالح قلبه ونفسه وبدنه ومصالح دنياه وآخرته ما لم يكن ينال بدون ذلك.

والمقصود بالقصد الأول: إتمام نعمته تعالى على أوليائه ورسله وخاصته، فاستعمال أعدائه فيما تكمل به النعمة على أوليائه غاية الحكمة. وكان في تمكين أهل الكفر والفسق والعصيان من ذلك إيصال أوليائه إلى الكمال الذي يحصل لهم بمعاداة هؤلاء وجهادهم والإنكار عليهم والموالاة فيه والمعاداة فيه وبذل نفوسهم وأموالهم وقواهم له، فإن تمام العبودية لا يحصل إلا بالمحبة الصادقة، وإنما تكون المحبة صادقة إذا بَذَل فيها المحبُّ ما يملكه من مال ورياسة وقوة



www.alukah.net

في مرضاة محبوبة والتقرب إليه، فإنْ بَذَلَ له روحَه كان هذا أعلى درجات المحبة.

ومن المعلوم أن من لوازم ذلك التي لا يحصل إلا بها أن يخلق ذواتًا وأسبابًا وأعمالًا وأخلاقًا وطبائع تقتضي معاداة من يحبه ويؤثر مرضاته لها، وعند ذلك تتحقق المحبة الصادقة من غيرها. فكلّ أحد يُحب الإحسانَ والراحة والدعة واللذة، ويحب من يوصل إليه ذلك ويحصّله له، ولكن الشأن في أمر وراء هذا، وهو محبتُه سبحانه ومحبةُ ما يحبه مما هو أكرهُ شيء إلى النفوس، وأشقُّ شيء عليها مما لا يلائمها. فعند حصول أسباب ذلك يتبينُ من يحب اللهَ لذاته ويحب ما يحب، ممن يحبه لأجل مخلوقاته فقط من المأكل والمشرب والمنكح والرياسة، فإن أعطي منها رضي، وإن مُنعِها سخط وعتب على ربه، وربما شكاه، وربما ترك عبادته.

فلولا خلق الأضداد وتسليط أعدائه وامتحان أوليائه بهم لم يستخرج خالص العبودية من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبوديةُ الموالاة فيه والمعاداة فيه والحب فيه والبغض فيه والعطاء له والمنع له، ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ونصرته، ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عبده لأجله في مرضاته. فلا يتحيز إليهم، وهو يرى محابَّ نفسه وملاذها بأيديهم، فيرضى مفارقتهم ومشاققتهم وإيثار موالاة الحق عليهم. فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار.



وأيضًا فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله وإيثارًا لمرضاته وطلبًا للزلفى لديه والقرب منه.

وأيضًا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانية، بل كانت ملكيّة، فإن الله سبحانه خلق خلقه أطوارًا، فخلق الملائكة عقولًا لا شهوات لها(١)، ولا طبيعة تتقاضى منها خلاف ما يراد منها، فخلقها من مادة نوريّة لا تقتضي شيئًا من الآثار والطبائع المذمومة. وخلق الحيوانات ذوات شهوات لا عقول لها، وخلق الثقلين الجنّ والإنس، وركّب فيهم العقول والشهوات والطبائع المختلفة لآثار مختلفة، بحسب موادها وصورها وتركيبها، وهؤلاء هم أهل الامتحان والابتلاء، وهم المعرّضون للثواب والعقاب. ولو شاء سبحانه لجعل خلقه على طبيعة خلق واحد، ولم يفاوت بينهم، لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الإلهية.

أيضًا فإن تنويع المخلوقات واختلافها هو من لوازم الحكمة والربوبية والملك، وهو أيضًا من موجبات الحمد، فله الحمد على ذلك كله أكمل حمد وأتمّه.

أيضًا فإن مخلوقاته هي مُوجَباتُ أسمائه وصفاته، فلكل اسم وصفة أثرٌ لا

---

(١) ولا يعني بذلك نفي الجسمية عن الملائكة، فهم وإن كانوا قد خُلقوا من نور فإن لهم القدرة بإذن الله على التشكل والتجسّم، إنما يقصد نفي الشهوة المؤدية للمخالفة والعصيان.



بد من ظهوره فيه واقتضائه له، فيمتنع تعطيل آثار أسمائه وصفاته، كما يمتنع تعطيل ذاته عنها. وهذه الآثار لها متعلقات ولوازم يمتنع أن لا توجد، كما تقدم التنبيه عليه.

وأيضًا فإن تنويع أسباب الحمد أمر مطلوب للرب محبوبٌ له، فكلما تنوعت أسباب الحمد تنوّع الحمد بتنوعها، وكثر بكثرتها، ومعلوم أنه سبحانه محمود على انتقامه من أهل الإجرام والإساءة، كما هو محمود على إكرامه لأهل العدل والإحسان، فهو محمود على هذا وعلى هذا، مع ما يتبع ذلك من حمده على حلمه وعفوه ومغفرته وترك حقوقه ومسامحة خلقه بها والعفو عن كثير من جنايات العبيد. فنبههم باليسير من عقابه وانتقامه على الكثير الذي عفا عنه، وأنه لو عاجلهم بعقوبته وأخذهم بحقه لقُضِيَ إليهم أجلُهم، ولما ترك على ظهرها من دابة، ولكنه سبقت رحمتُه غضبَه، وعفوُه انتقامَه، ومغفرتُه عقابَه، فله الحمد على عفوه وانتقامه، وعلى عدله وإحسانه. ولا سبيل إلى تعطيل أسباب حمده ولا بعضها. فليتدبر اللبيب هذا الموضع حق التدبّر، وليعطه حقَّه يُطلِعْه على أبوابٍ عظيمة من أسرار القدر، ويهبطْ به على رياض منه معشبة وحدائق مؤنقة(١)، والله الموفق الهادي للصواب.

وأيضًا فإن الله سبحانه نوّع الأدلة الدالة عليه، والتي تعرّف عباده به غاية

---

(١) ومما يعين على ذلك: التفقّه في معاني أسماء الله تعالى وصفاته وأفعاله، وآثارها في مخلوقاته، والربط بين كل اسم وصفة مع ما يشاهده ويطالعه ببصره وسمعه وقلبه، ويعتبر بذلك كله في تفكّره وتذكّره، وهذا علم شريف عزيز.



التنوع، وصرّف الآيات، وضرب الأمثال، ليقيم عليهم حجته البالغة، ويتمّ عليهم بذلك نعمته السابغة، ولا يكون لأحد بعد ذلك حجة عليهم سبحانه. بل الحجة كلها له، والقدرة كلها له. فأقام عليهم حجته، ولو شاء لسوّى بينهم في الهداية، كما قال تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡحُجَّةُ ٱلۡبَٰلِغَةُۖ فَلَوۡ شَآءَ لَهَدَىٰكُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الأنعام: ١٤٩] فأخبر أن له الحجة البالغة، وهي التي بلغت إلى صميم القلب وخالطت العقل واتحدت به، فلا يمكن للعقل دفعها ولا جحدها، ثم أخبر أنه سبحانه قادر على هداية خلقه كلهم، ولو شاء ذلك لفعله لكمال قدرته ونفوذ مشيئته، ولكن حكمته تأبى ذلك، وعدله يأبى تعذيب أحد وأخذه بلا حجة، فأقام الحجة وصرّف الآيات وضرب الأمثال ونوّع الأدلة. ولو كان الخلق كلهم على طريقة واحدة من الهداية لما حصلت هذه الأمور، ولا تنوعت هذه الأدلة والأمثال، ولا ظهرت عزته سبحانه في انتقامه من أعدائه ونصر أوليائه عليهم، ولا حججه التي أقامها على صدق أنبيائه ورسله، ولا كان للناس ﴿ءَايَةٞ فِي فِئَتَيۡنِ ٱلۡتَقَتَاۖ فِئَةٞ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخۡرَىٰ كَافِرَةٞ يَرَوۡنَهُم مِّثۡلَيۡهِمۡ رَأۡيَ ٱلۡعَيۡنِۚ﴾ [آل عمران: ١٣] ولا كان للخلق آية باقية ما بقيت الدنيا في شأن موسى وقومه، وفرعون وقومه، وفلق البحر لهم، ودخولهم جميعًا فيه ثم إنجاء موسى وقومه ولم يغرق أحد منهم، وأغرقَ فرعونَ وقومَه لم ينج منهم أحد. فهذا التعرّف إلى عباده، وهذه الآيات، وهذه العزة والحكمة، لا سبيل إلى تعطيلها البتة، ولا توجد بدون لوازمها.

وأيضًا فإن حقيقة الملك إنما تتم بالعطاء والمنع، والإكرام والإهانة،

www.alukah.net
شبكة الألوكة

والإثابة والعقوبة، والغضب والرضا، والتولية والعزل، وإعزاز من يليق به العز وإذلال من يليق به الذل، قال تعالى: ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلۡمُلۡكِ تُؤۡتِي ٱلۡمُلۡكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلۡمُلۡكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُۖ بِيَدِكَ ٱلۡخَيۡرُۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٦ تُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِۖ وَتُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَتُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّۖ وَتَرۡزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ﴾ [آل عمران: ٢٦، ٢٧] وقال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويكشف غمًّا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفكّ عانيًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويُقيل عثرة، ويستر عورة، ويعز ذليلًا، ويذلّ عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويذهب بدولة ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقوامًا ويضع آخرين. يسوقُ المقاديرَ التي قدّرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كما أحصاه كتابه، وجرى به قلمُه، ونفذ فيه حكمُه، وسبق به علمُه. فهو المتصرف في الممالك كلها وحده تصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسير الحافظ أبي بكر أحمد بن موسى بن مردويه من حديث أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ﴾ [الرحمن: ٢٩] فقال: سئل عنها رسول الله ﷺ فقال: **«من شأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرّج كربًا، ويرفع قومًا،**

ويضع آخرين»(١).

فالملك والحمد في حقّ الله تعالى متلازمان، فكلّ ما شمِله ملكُه وقُدرتُه شملهُ حمدُه، فهو محمود في ملكه، وله الملك والقدرة مع حمده، فكما يستحيل خروج شيء من الموجودات عن ملكه وقدرته؛ يستحيل خروجها عن حمده وحكمته. ولهذا يحمد سبحانه نفسه عند خلقه وأمره، لينبّه عباده إلى أن مصدر خلقه وأمره عن حمده وحكمته. فهو محمود على كل ما خلقه وأمر به حمدَين: حمدَ شكر وعبودية، وحمدَ ثناء ومدح، ويجمعهما التَّبَارُك، فتبارُكَ الله يشمل ذلك كله، ولهذا ذكر هذه الكلمة عقيب قوله: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ تَبَارَكَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

فالحمد أوسع الصفات، وأعمّ المدائح، والطرق إلى العلم به في غاية الكثرة، والسبيل إلى اعتباره في ذرات العالم وجزئياته وتفاصيل الأمر والنهي واسعة جدًّا، لأن جميع أسمائه تبارك وتعالى حمدٌ، وصفاته حمد، وأفعاله حمد، وأحكامه حمد، وعدله حمد، وانتقامه من أعدائه حمد، وفضله في إحسانه إلى أوليائه حمد. والخلق والأمر إنما قام بحمده، ووُجد بحمده، وظهر بحمده، وكان لِغايةٍ هي حمده. فحمده سبب ذلك، وغايته، ومظهره، وحامله. فحمده روحُ كل شيء، وقيامُ كل شيء بحمده، وسريانُ حمده في الموجودات وظهورُ آثاره فيه أمر مشهود بالأبصار والبصائر.

---

(١) ابن ماجه (٢٠٢) وابن حبان (٦٨٩) وحسنه البوصيري في مصباح الزجاجة، وله شواهد، وقد روي موقوفًا.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فمن الطرق الدالة على شمول معنى الحمد وانبساطه على جميع المعلومات: معرفةُ أسمائه وصفاته، وإقرارُ العبد بأن للعالَم إلهًا حيًّا جامعًا لكل صفة كمال واسم حسن وثناء جميل وفعل كريم، وأنه سبحانه له القدرة التامة، والمشيئة النافذة، والعلم المحيط، والسمع الذي وسع الأصوات، والبصر الذي أحاط بجميع المبصَرات، والرحمة التي وسعت جميع المخلوقات، والملك الأعلى الذي لا تخرج عنه ذرة من الذرات، والغنى التام المطلق من جميع الجهات، والحكمة البالغة المشهودة آثارها في الكائنات، والعزة الغالبة بجميع الوجوه والاعتبارات، والكلمات التامات النافذات التي لا يجاوزهن بر ولا فاجر من جميع البريات.

واحدٌ لا شريك له في ربوبيته ولا في إلهيته، ولا شبيهَ له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، وليس له من يَشرَكه في ذرة من ذرات ملكه، أو يخلُفه في تدبير خلقه، أو يحجبه عن داعيه أو مؤمليه أو سائليه، أو يتوسط بينهم وبينه بتلبيس أو فرية أو كذب، كما يكون بين الرعايا وبين الملوك. ولو كان كذلك لفسد نظام الوجود، وفسد العالم بأسره، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: ٢٢] ولو كان معه آلهة أخرى ـ كما يقوله أعداؤه المبطلون ـ لوقع من النقص في التدبير وفساد الأمر كله ما لا يثبت معه حال، ولا يصلح عليه وجود.

ومن أعظم نعمه علينا وما استوجب به حمدَ عباده له أن جعلنا عبيدًا له خاصّةً، ولم يجعلنا نهْبًا منقسمين بين شركاء متشاكسين، ولم يجعلنا عبيدًا لإله



نحتته الأفكار، لا يسمع أصواتنا، ولا يبصر أفعالنا، ولا يعلم أحوالنا، ولا يملك لعابديه ضرًّا ولا نفعًا، ولا وموتًا ولا حياة ولا نشورًا، ولا تكلَّم قطّ ولا يتكلم، ولا يأمر ولا ينهى، ولا تُرفع إليه الأيدي، ولا تعرج الملائكة والروح إليه، ولا يصعد إليه الكلم الطيب، ولا يُرفع إليه العمل الصالح(١).

فله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل إذ لم يجعلْنا عبيدًا لمن هذا شأنه، فنكون مضيعين، ليس لنا رب نقصده، ولا صمد نتوجه إليه ونعبده، ولا إلهَ نعوّل عليه، ولا رب نرجع إليه»(٢).

❁❁❁❁

---

(١) وسبق الكلام بحمد الله على طريق تحصيل الافتقار بمشاهدة الأسماء والصفات للحميد سبحانه.

(٢) طريق الهجرتين للإمام ابن القيم (١/ ٢٣٩- ٢٣٧) (١/١٣٧-٣١٠) باختصار واقتصار.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

فقر المشرك

الموحد غنيٌّ بالله مهما جاع بطنُه، وعري جسدُه، وأملقت يدُه، والمشرك فقير حسير مهما انتفخ بطنه من زاد جسده، ودفئ جلده برياش الترف، وأثقلت مفاتح خزائنه العصبة أولي القوة. ذلك أن الغنى في الحقيقة هو غنى القلب، والفقر فقر القلب، ومن ذاق عرف، ومن جرّب اغترف، ومن حقّق اعترف.

وبما أن المشرك ادّعى الغنى عند غير الله وطلبه منه؛ فقد قطع عن نفسه مادّة الغنى الحقيقية، ليعيش في وهم ويطرد خيال. فالله أغنى الشركاء عن الشرك ولا يرضى أن يُرجى الغنى بكمال التوجه لسواه.

قال شيخ الإسلام: «وهكذا يوجد من فيه شبه من النصارى والرافضة من الغلاة في أنفسهم وشيوخهم تجدهم في غاية الدعوى وفي غاية العجز كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: «**ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم؛ شيخ زان، وملك كذاب، وفقير مختال**»(١) وفي لفظ: «**عائل مزهو**» وفي لفظ: «**وعائل مستكبر**»(٢) وهذا معنى

---

(١) فليس لديهم ما يستدعي هذه الخلال الخبيثة، فالشيخ قد أدبرت شهوته، والملك غني عن الكذب لسطوته، والفقير عارٍ عن المال الكاسرِ تواضع من ضعف عقله، فدلّ ذلك على استحكام مادة تلك الصفة الرديئة من قلبه، والله المستعان.

(٢) رواه مسلم (١/ ٧٢) بلفظ «**عائل مستكبر**».

قول بعض العامة الفقر والزنطرة، فهكذا شيوخ الدعاوى والشطح يدعى أحدهم الإلهية وما هو أعظم من النبوة ويعزل الرب عن ربوبيته والنبي عن رسالته، ثم آخرته شحاذ يطلب ما يقيته أو خائف يستعين بظالم على دفع مظلمته! فيفتقر إلى لقمة ويخاف من كلمة، فأين هذا الفقر والذل من دعوى الربوبية المتضمنة للغنى والعز؟! وهذه حال المشركين الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وقال: ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ ٱلْبُيُوتِ لَبَيْتُ ٱلْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١] وقال: ﴿سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا﴾ [آل عمران: ١٥١] والنصارى فيهم شرك بيّن كما قال تعالى: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَـٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١] وهكذا من أشبههم من الغالية من الشيعة والنساك فيه شرك وغلو كما في النصارى شرك وغلو، واليهود فيهم كبر، والمستكبر معاقب بالذل، قال تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢] وقال تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ



أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾ [البقرة: ٨٧] فتكذيبهم وقتلهم للأنبياء كان استكبارا، فالرافضة فيهم شبه من اليهود من وجه وشبه من النصارى من وجه، ففيهم شرك وغلو وتصديق بالباطل كالنصارى، وفيهم من جبن وكبر وحسد وتكذيب بالحق كاليهود»(١).

فالشرك دهليز الفقر والخيبة، ومهما تدثرت نفس المشرك بباذخ الحطام الفاني فهي فقيرة فقرًا مدقعًا لأن مادّة الاستغناء معدومة في فؤاده، فلا تعجب حينها من تكسر نفوسهم على سواحل البلايا!

والحمد لله رب العالمين.

(١) منهاج السنة النبوية (٧/ ١٥٠ - ١٥١).



إضاءة

روى مسلم في الصحيح عن المغيرةِ بن شعبة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن رسُولِ الله ﷺ قال: «**سأَلَ مُوسَى ﷺ رَبَّهُ: ما أدْنَى أهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً؟**

قال: هُوَ رَجُلٌ يَجِيءُ بَعْدَ مَا أُدْخِلَ أَهْلُ الجَنَّةِ الجَنَّةَ، فَيُقَالُ لَهُ: ادْخُلِ الجَنَّةَ. فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، كَيْفَ وَقَدْ نَزَلَ النَّاسُ مَنَازِهُمْ، وأَخَذُوا أَخَذَاتِهِمْ؟ فَيُقَالُ لَهُ: أَتَرْضَى أَنْ يَكُونَ لَكَ مِثْلُ مُلْكِ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِ الدُّنْيَا؟ فَيقُولُ: رَضِيْتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: لَكَ ذَلِكَ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ وَمِثْلُهُ، فَيَقُولُ فِي الخَامِسَةِ: رَضِيْتُ رَبِّ. فَيَقُولُ: هذَا لَكَ وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهِ، وَلَكَ مَا اشْتَهَتْ نَفْسُكَ، وَلَذَّتْ عَيْنُكَ. فَيَقُولُ: رَضِيتُ رَبِّ.

قَالَ: رَبِّ فَأَعْلاَهُمْ مَنْزِلَةً؟

قَالَ: أُولَئِكَ الَّذِينَ أَرَدْتُ؛ غَرَسْتُ كَرَامَتَهُمْ بِيَدِي، وَخَتَمْتُ عَلَيْهَا، فَلَمْ تَرَ عَيْنٌ، وَلَمْ تَسْمَعْ أُذُنٌ، وَلَمْ يَخْطُرْ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»(١).

وروى الشيخان بسنديهما عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسولُ اللهِ ﷺ: «**إِنِّي لأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجاً مِنْهَا، وَآخِرَ أَهْلِ الجَنَّةِ دُخُولاً الجَنَّةَ. رَجُلٌ يَخْرُجُ مِنَ النَّارِ حَبْواً، فَيقُولُ اللهُ عز وجل له: اذْهَبْ فادْخُلِ الجَنَّةَ، فَيَأْتِيهَا، فَيُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهَا مَلأَى، فَيَرْجِعُ، فَيقُولُ: يَا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأَى! فَيَقُولُ اللهُ عز وجل له:**

---

(١) مسلم ١/ ١٢٠ (١٨٩) (٣١٢).

اذْهَبْ فَادْخُلِ الجَنَّةَ، فيأتِيهَا، فَيُخيَّلُ إليهِ أَنَّهَا مَلأى، فيَرْجعُ، فَيقولُ: يا رَبِّ وَجَدْتُهَا مَلأى. فيقُولُ اللهُ عز وجل لَهُ: اذهبْ فَادخُلِ الجنَّةَ، فَإنَّ لَكَ مِثْلَ الدُّنْيَا وَعَشَرَةَ أَمْثَالِهَا؛ أَوْ إنَّ لَكَ مِثْلَ عَشَرَةِ أَمْثَالِ الدُّنْيَا، فيقُولُ: أَتَسْخَرُ بِي، أَوْ تَضْحَكُ بِي وَأَنْتَ المَلِكُ».

قال: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رسولَ اللهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ، فَكَانَ يقولُ: «ذلِكَ أَدْنَى أَهْلِ الجَنَّةِ مَنْزِلَةً» متفق عليه(١).

وعن أبي موسى رضي الله عنه: أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «إنَّ لِلمُؤْمِنِ فِي الجَنَّةِ لَخَيْمَةً مِنْ لُؤْلُؤَةٍ وَاحِدَةٍ مُجَوَّفَةٍ، طُولُهَا في السَّمَاءِ سِتُّونَ مِيلاً(٢). لِلمُؤْمِنِ فِيهَا أَهْلُونَ، يَطُوفُ عَلَيْهِمُ المُؤْمِنُ فَلاَ يَرَى بَعْضُهُمْ بَعْضاً» متفق عليه(٣).

وروى مسلم بسنده عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «آخِرُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ رَجُلٌ فَهْوَ يَمْشِي مَرَّةً وَيَكْبُو مَرَّةً وَتَسْفَعُهُ النَّارُ مَرَّةً، فَإِذَا مَا جَاوَزَهَا الْتَفَتَ إِلَيْهَا فَقَالَ: تَبَارَكَ الَّذِي نَجَّانِي مِنْكِ، لَقَدْ أَعْطَانِي اللَّهُ شَيْئًا مَا أَعْطَاهُ أَحَدًا مِنْ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ.

فَتُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ، فَلِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا. فَيَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: يَا ابْنَ آدَمَ، لَعَلِّي إِنْ أَعْطَيْتُكَهَا سَأَلْتَنِي

(١) أخرجه: البخاري ٨/١٤٦ (٦٥٧١) ومسلم ١/١١٨ (١٨٦) (٣٠٨).
(٢) المِيلُ: سِتة آلافِ ذِراعٍ، وهو الميل المعروف حاليّاً، ويقدر بـ(١٥٩٠) متر.
(٣) البخاري ٦/١٨١ (٤٨٧٩) ومسلم ٨/١٤٨ (٢٨٣٨) (٢٣).



غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَا يَا رَبِّ، وَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا.

ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَى، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ لِأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، وَأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ فَيَقُولُ: لَعَلِّي إِنْ أَدْنَيْتُكَ مِنْهَا تَسْأَلُنِي غَيْرَهَا؟ فَيُعَاهِدُهُ أَنْ لَا يَسْأَلَهُ غَيْرَهَا، وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا، فَيَسْتَظِلُّ بِظِلِّهَا، وَيَشْرَبُ مِنْ مَائِهَا.

ثُمَّ تُرْفَعُ لَهُ شَجَرَةٌ عِنْدَ بَابِ الْجَنَّةِ هِيَ أَحْسَنُ مِنَ الْأُولَيَيْنِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ، أَدْنِنِي مِنْ هَذِهِ، لِأَسْتَظِلَّ بِظِلِّهَا، وَأَشْرَبَ مِنْ مَائِهَا، لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ، أَلَمْ تُعَاهِدْنِي أَنْ لَا تَسْأَلَنِي غَيْرَهَا؟ قَالَ: بَلَى يَا رَبِّ، هَذِهِ لَا أَسْأَلُكَ غَيْرَهَا. وَرَبُّهُ يَعْذِرُهُ لِأَنَّهُ يَرَى مَا لَا صَبْرَ لَهُ عَلَيْهِ، فَيُدْنِيهِ مِنْهَا.

فَإِذَا أَدْنَاهُ مِنْهَا فَيَسْمَعُ أَصْوَاتَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَدْخِلْنِيهَا. فَيَقُولُ: يَا ابْنَ آدَمَ مَا يَصْرِينِي مِنْكَ[1] أَيُرْضِيكَ أَنْ أُعْطِيَكَ الدُّنْيَا وَمِثْلَهَا مَعَهَا؟

قَالَ: يَا رَبِّ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟!» فَضَحِكَ ابْنُ مَسْعُودٍ فَقَالَ: أَلَا تَسْأَلُونِي مِمَّ أَضْحَكُ؟ فَقَالُوا: مِمَّ تَضْحَكُ؟ قَالَ: هَكَذَا ضَحِكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَالُوا مِمَّ تَضْحَكُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مِنْ ضحكِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حِينَ

---

(١) **«ما يصريني منك»**: أي ما الذي يرضيك ويقطع مسألتك، وأصل التصرية: القطع والجمع، ومنه: الشاة المُصَرَّاة، وهي التي قطع حلبها لجمع لبنها.

www.alukah.net
شبكة الألوكة

قَالَ أَتَسْتَهْزِئُ مِنِّي وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟! فَيَقُولُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ مِنْكَ، وَلَكِنِّي عَلَى مَا أَشَاءُ قَادِرٌ»(١).

وروى مسلم بسنده عَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنِّي لَأَعْلَمُ آخِرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ دُخُولًا الْجَنَّةَ، وَآخِرَ أَهْلِ النَّارِ خُرُوجًا مِنْهَا، رَجُلٌ يُؤْتَى بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اعْرِضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ، وَارْفَعُوا عَنْهُ كِبَارَهَا. فَتُعْرَضُ عَلَيْهِ صِغَارُ ذُنُوبِهِ، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا، وَعَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا كَذَا وَكَذَا. فَيَقُولُ: نَعَمْ. لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُنْكِرَ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنْ كِبَارِ ذُنُوبِهِ أَنْ تُعْرَضَ عَلَيْهِ.

فَيُقَالُ لَهُ: فَإِنَّ لَكَ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ حَسَنَةً. فَيَقُولُ: رَبِّ قَدْ عَمِلْتُ أَشْيَاءَ لَا أَرَاهَا هَا هُنَا؟!» فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ(٢).

وأخرج مسلم بسنده عن أَبِي الزُّبَيْرِ، أَنَّهُ سَمِعَ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ يُسْأَلُ عَنْ الْوُرُودِ فَقَالَ: «نَجِيءُ نَحْنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَنْ كَذَا وَكَذَا، انْظُرْ أَيْ ذَلِكَ فَوْقَ النَّاسِ، قَالَ: فَتُدْعَى الْأُمَمُ بِأَوْثَانِهَا وَمَا كَانَتْ تَعْبُدُ، الْأَوَّلُ فَالْأَوَّلُ، ثُمَّ يَأْتِينَا رَبُّنَا بَعْدَ ذَلِكَ فَيَقُولُ: «مَنْ تَنْظُرُونَ» فَيَقُولُونَ: نَنْظُرُ رَبَّنَا. فَيَقُولُ: «أَنَا رَبُّكُمْ» فَيَقُولُونَ: حَتَّى نَنْظُرَ إِلَيْكَ. فَيَتَجَلَّى لَهُمْ يَضْحَكُ.

قَالَ: فَيَنْطَلِقُ بِهِمْ وَيَتَّبِعُونَهُ، وَيُعْطَى كُلُّ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ مُنَافِقٍ أَوْ مُؤْمِنٍ نُورًا، ثُمَّ

---

(١) مسلم (١/ ١٧٤) (١٨٧).

(٢) مسلم (١/ ١٧٧) (١٩٠).



شبكة الألوكة - قسم الكتب

يَتَّبِعُونَهُ، وَعَلَى جِسْرِ جَهَنَّمَ كَلَالِيبُ وَحَسَكٌ تَأْخُذُ مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُطْفَأُ نُورُ الْمُنَافِقِينَ، ثُمَّ يَنْجُو الْمُؤْمِنُونَ. فَتَنْجُو أَوَّلُ زُمْرَةٍ وُجُوهُهُمْ كَالْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، سَبْعُونَ أَلْفًا لَا يُحَاسَبُونَ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ كَأَضْوَإِ نَجْمٍ فِي السَّمَاءِ، ثُمَّ كَذَلِكَ.

ثُمَّ تَحِلُّ الشَّفَاعَةُ، وَيَشْفَعُونَ حَتَّى يَخْرُجَ مِنْ النَّارِ مَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَكَانَ فِي قَلْبِهِ مِنْ الْخَيْرِ مَا يَزِنُ شَعِيرَةً، فَيُجْعَلُونَ بِفِنَاءِ الْجَنَّةِ، وَيَجْعَلُ أَهْلُ الْجَنَّةِ يَرُشُّونَ عَلَيْهِمْ الْمَاءَ حَتَّى يَنْبُتُوا نَبَاتَ الشَّيْءِ فِي السَّيْلِ، وَيَذْهَبُ حُرَاقُهُ، ثُمَّ يَسْأَلُ حَتَّى تُجْعَلَ لَهُ الدُّنْيَا وَعَشَرَةُ أَمْثَالِهَا مَعَهَا»[(١)].

نسأل الله الكريم من فضله وكرمه وجوده وإحسانه.



---

(١) مسلم (١/ ١٧٧) (١٩١).

موسوعة

تعظيم علام الغيوب بتوضيح أعمال القلوب

تأليف: إبراهيم بن عبد الرحمن الدميجي

١) مقدّمات في أقوال وأعمال القلوب
٢) التوحيد والإخلاص
٣) العبودية
٤) الصدق مع الله تعالى
٥) محبّةُ الله تعالى
٦) الشّوقُ إلى الله تعالى
٧) الأُنسُ بالله تعالى
٨) الإرادة
٩) العزم
١٠) الرّجاء
١١) الرّغبة
١٢) التّوكّلُ على الله تعالى
١٣) حُسنُ الظّنّ بالله تعالى
١٤) الثقةُ بالله تعالى
١٥) الافتقارُ إلى الله تعالى
١٦) الاستغناءُ بالله تعالى
١٧) التعلُّقُ بالله تعالى
١٨) الالتجاءُ إلى الله تعالى
١٩) الاعتصامُ بالله تعالى
٢٠) سلامةُ الصّدر
٢١) العفاف
٢٢) الصَّبر
٢٣) الرّضا بالله تعالى
٢٤) شكر الله تعالى
٢٥) حمد الله تعالى
٢٦) الفرح بالله تعالى
٢٧) ....



الصف والتنسيق والإخراج الفني
خالد محمد جاب الله
مكة المكرمة ـ جوال: 0502543917